رواية
أنام لأحلام
رحيل بن دحمان
مرسال الحديثة
ناشرون و موزعون
رحيل بن دحمان
أنام لأحلام
رواية
أنام لأحلام
رحيل بن دحمان
كانت رسائل منال تتوالى الواحدة تلو الأخرى بوتيرة مضطربة..تردني أحيانا بعد أسبوع وأحيانا أنتظرها بقلق لأسابيع، حتّى أعتقد أنّها رحلت، رغم أنيّ كنت أكتب لها لتعرف أنيّ لا أغفل عن صندوق بريدي..أتفقّده كلّ صباح لعلّ اليوم يكون لقائي الجديد بها..أخيرا بعد ثلاثة أسابيع وردتني رسالتها الثالثة ..ضممتها إلى صدري بغبطة ممتنّة للسّماء على بقاء صديقتي على قيد الحياة
مرسال الحديثة
ناشرون و موزعون
عمان - الأردن
00962790920505
Mersal.p.p@gmail.com
9 789957 678067

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠٢١/٤/٢١٠٤

(٨١١,٠٣)

المؤلف

رحيل بن دحمان

رقم إيداع (٢٠٢١/٤/٢١٠٤)

التوصيف/الرواية العربية/الأدب العربي / العصر الحديث

- يتحمل المؤلف كافة المسؤوليات القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الدائرة الوطنية ولا أي من المؤسسات الحكومية المعنية .
- جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع الورقي والإلكتروني وكافة الحقوق الأدبية لإستغلال المصنف خاصة بالمؤلف دون غيره ولا يحق لأي جهة أو شخص مخالفة ذلك دون إذن كتابي منه .
- لوحة الغلاف :للفنانة العراقية الراحلة د/خالدة حاتم النعيمي
- تنسيق فني ومراجعة إليكترونية م/ محمود لطفي السيد .

أنام لأحلم

الروائية

رحيل بن دحمان

إهداء

إلى السّيدة الّتي علّمتني الحب

ولم تسلّحني بغيره لمواجهة مصاعب الحياة

أمّي ذات الوجه الحسن

إلى الرّجل الّذي علّمني التّسامح

فلا أنتظر الاعتذار من أحد

أبي الرّجل العظيم

أهديك نوريّتي عملي هذا أينما كنت..

هل اسمك نورية أم نوال أم ماريّا؟

لا أنتظر الجواب..

لكنّي أعلم أنّك الرّوح الجميلة الّتي عرفت

إلى دررري الثّلاث: عبد الرّحمن ،سماح وعفاف

رحيل بن دحمان

فاصلة إليك...:

أيّها السّائح بين حروفي وكلماتي..أترك غرورك والأنانية عند عتباتي..

ثمّ اعبر إلى عالمي مباركا محفوفا بالمحبّة.

قد تهبُ قلبك لأحدهم فيعبث به ولا يقدّره، لأنّه جُبل على حبّ الذّات والخيلاء، فذاك من أوجه الجرم اللاّ إنساني.

قد يُلهمُك أحدهم فتكتب، لكنّه للأسف يقرأ فلا يفهم ،وإن فهم لا يشعُر..غبي العاطفة والإحساس.

لذا أكتب لقلبك المحبّ ولروحك العذبة ،واسمعْ ضحكاتك، وهي تتردّد بين روابيك وحقولك، وفي الفيافي والجبال..سيرتدّ إليك الصّدى مبهجا، يعانق الحياة.

ودعك من حماقات المتسوّلين عند بابك، فإنّهم حمامات سلام إلى أن تأمن جانبهم فترعاهم بالاهتمام..حينها سينقلبون إلى جوارح تنهش أعماقك ،وتفسد عليك أحلامك..هكذا أخبرتني ذات يوم صديقتي.

حديث حبي لك لو بدأته.. ذو شجون..

هل يُسمع الرّجاء وفي القلب لك ذكرى لا تزول..؟

لن أضعف حتّى ينتهي عزف قيثارة العمر..

ولن أتوسّد الرّماد ما دمت معي يا بئري العميق..

عاد الماضي

اِستغرقني التّفكير طويلا ،قبل أن أقرّر أنّه حان الوقت للكتابة عن أهمّ قضية أُسندت لي في حياتي.لم أتلقّ فيها أتعابا، ولم أكن أنتظر أن آخذ عليها أجرا يليق بحجم جهدي في العمل على الفوز بها.عاينت بحكم تجربتي في المحاكم، وفي مسلسل ـ لا ينتهي ـ من المنازعات، ولن ينتهي، كيف أن معنى العدالة والظّلم كمفهومين ،يبدوان لأوّل وهلة واضحين للعيان، لكن في الواقع؛ كلّ منهما نراه على حسب موقعنا من الأحداث وكطرف فاعل في هذه الأخيرة، فما أراه أنا ظلما؛ يراه الطرف الثاني عدلا،لا يمكن التنازل عنه أو التّفريط فيه، ما دام يحقق له ذاته ويشعره بكينونته، وما أراه أنا عدلا؛ هو بالنّسبة للطرف الآخر تعدٍّ على وجوده وصيرورة حياته.

لم يكن الطرف الّذي لجأ إليّ بذلك الضعف والإنكسار اللّذين بدا عليهما لأوّل وهلة، ولم أكن بحاجة لجمع وثائق، وصنع ملفّات متينة لضمان الإنتصار.

كانت قضيّة اِنسانية بإمتياز ،وكنت المحامية، والشّاهدة، والقاضية الّتي حسمت بصورة ما مآل ذلك الصّراع الأبدي بين الغرور والتواضع ،والعناد والتنازل، والثّبات على مبدأ ما والتّراجع عنه ،فكلّها متناقضات عنْونَت علاقاتنا كبشر، وتداخلت فيما بينها لتحرمنا لذّة الإستمتاع بكلّ ما هو جميل ولائق بنا، كأناس طيبين نقدّر العطايا الممنوحة لنا على شكل قلوب رقيقة، وأرواح طيّعة عذبة.

أخذت إجازة قصيرة من أجل الإحتفال بحصول ابنتي على شهادة الثّانوية العامّة. منحنا لأنفسنا فسحة من هدوء البال للتّفكير معا وأبيها في نوع الجامعة الّتي ترغب في الإلتحاق بها، حينها فقط تذكّرت الجامعة حيث درست بالعاصمة، وعادت بي الذّكريات إلى أجمل أيام الشّباب. شجّعتها على دخولها هي أيضا لأنّ مجموعها يسمح لها بالإلتحاق بأي تخصّص يستهويها ويرضي طموحها،ورحت أبحث في صوري القديمة بعد أن اجتاحني

الحنين ،وأفتّش في دفاتري الّتي لم تكن يوما للعرض بما أنّها تحمل أسرار مراهقتي وطيشي.فمكتبي هو صومعتي وأدراجي مقدّسة ،كان مساحتي الّتي احترمها زوجي قبل أولادي. بينما كنت أفتّش بشغف بين تفاصيل حياتي السابقة ؛عثرت على قصاصة ورق أعادتني إلى فصل من حياتي خلته مضى، ولم يبق منه شيء.

كدت أنسى **منال** صديقتي، ويا للحظ السّعيد أنّني لم أكد أفعل حتّى عادت إليّ بروحها على قصاصة ورق، لم أصدّق أنّني أشاهدها لأوّل مرّة، دوّنَت عليها رقم هاتفها وعنوانها ثمّ كتبت تقول: **آه يا نوريتي..ظننتني قطعت شريانا كان يجذبني ويجعلني ألتفت ورائي علّني أبصر طيفا يتبعني، يرجو لقائي..أجهل ما حدث..لمجرد رسالة قرأتها على صفحة السّماء عاد النّبض إلى ذلك الشّريان الّذي عليه قضيت..تملّكني الخوف يا بئري العميق..**

قمت من حيني، وكتبت لها رسالة على العنوان المدوّن على القصاصة ،فلم يكن هناك مجال للاتّصال بها على ذلك الرّقم الهاتفي، مضت أعوام طويلة على فراقنا ،تغيّرت خلالها شبكة الهواتف، وتطوّرت الحياة لتجعل من ذلك الرّقم أحد ذكريات الزّمن الجميل.أعترف أنني رغم حبّي الشّديد لصديقتي وتعلّقي بها؛ لم أسع إليها منذ زوّجها أهلها، لكنّني بالمقابل لم أفتح قلبي لسواها منذ افترقنا. بقي مكانها شاغرا، وأخذتني مشاغل الحياة لأستغرق في بناء مستقبل كنّا حلمنا به معا قبل أن تسلك منعطفا مغايرا لذلك الّذي كانت ترتجيه ، ففتحت مكتبي للمحاماة، وتزوّجت بدوري فصار زوجي هوالصّديق.

● ● ● ● ● ● ●

لا يبدو هذا الصّباح للوهلة الأولى مختلفا عن الإصباحات الأخرى في حياتي.لم أنس أنّي كتبت منذ أيام إلى منال أسألها عمّا أحدثته الأقدار معها، لكنّني لم أعلّق أملا كبيرا على اِمكانية ردّها،فلربّما غيّر أهلها مسكنهم أيضا، فأكتفي حينها بالمجهود الّذي قمت به،وأكون

بذلك فقدت أثرها فعلا . شاءت الأقدار أن تنشأ علاقة وثيقة بيني وبين ساعي البريد بعد أن وصلتني أوّل رسالة منها..بدأت أقرأها كأنّنا التقينا من جديد بعد الفراق.

كم كان أثرها عظيما عليّ، حفر عميقا داخلي. قرأت كلمات تتوسّلني صاحبتها أن أهبها بعضا من وقتي الثّمين ،وأن أنصت إلى حديث نفسها العميق.

كتبت تقول:

صديقتي العزيزة **نورية**

سعدت بتلقّي خطابك الّذي جعلني أحنّ إلى زمن كان ساعي البريد فيه أحبّ الزّوار.دهشت عندما سلّمني خطابا بدل فاتورة هاتف أو كهرباء ،وذُهلت عندما فتحت الرّسالة، وقرأتها ،فوجدتك تسألينني فيها عن حالي ومآلي فقط ،ثمّ تذيّلينها بعبارة: **تقبّلي تحيّاتي وقبلاتي..**

لك أن تتخيلي دهشتي أيضا عندما صادف مكتوبك حينها وجودي عند أهلي، فكان بمثابة هدية العيد. ألم يكن من الأسهل أن تسمعي ما تريدينه منّي على الهاتف مثلا ؟أو على أيّ وسيلة أخرى من وسائل التّواصل؟ ففي زمن المعلوماتية، صار سهلا العثور على أشخاص فقدنا أثرهم منذ سنوات بعيدة.. بعد تفكير أظنّني اِهتديت إلى أنّك ربّما منحتني فرصة لقول ما أريد، ورسم ما أشاء من مشاعر تجيش في داخلي، من غير أن يعيقها صوت أنفاسك، أو نحنحة تذكّرني بوجودك على الطّرف الآخر، فأتشوّش أو أنسى، أو أخجل ممّا يمكن أن أجرؤ على قوله. كما أنّ الجلوس أمام جهاز يضيق معه الوقت، فلا تحسب دقائقه، ولا ساعاته يفقدك شهيّة الكتابة، لأنّ الّذي في الطّرف الآخر ينتظرك من غير صبر،يبعثرك ويفقدك تركيزك..يكفي كبداية أن تعلمي أنّي صرت مؤخّرا كمجنون، يحاول إقناع نفسه بجنونه..أتساءل..هل شعرت بحاجتي إليك فأرسلت لي..؟ أم أنّ بيننا اتّفاقا مسبقا، رتّبنا على أساسه مواعيدنا..؟ لديّ الكثير لأبوح به لك يا**بئري العميق**، فإنّني لم أعد آمن على وصيّتي الأخيرة غيرك بعد أن أغادر دنياي..هلاّ تركت عالمك المليء وراءك ،وأنصتّ لنجواي ياصديقة العمر..من أين أبدأ..؟ عندي الكثير من البدايات.سأحاول ألاّ تملّيني،

فترمي برسالتي جانبا.

صديقتي..إنّه الواحد والعشرون من مارس..أوّل أيّام الرّبيع عندنا..يصادف أنّه أوّل يوم أيضا قرّرت فيه مقاومة مسيري نحو فنائي .تمنّيت أن تكوني معي حيث أوجد الآن، فلم أعد أتسامح مع السّاعات والدّقائق الّتي ألاحقها بغية أن أسبقها..آلة الزّمن الآن في حوزتي. أمارس بها جنون البحث عن فرصة بين السّاعة والسّاعة.أصطاد الفكرة ما أن تقع في عقلي إذ استبدلت الأمل بالعمل، فلا وقت يكفي لجعل الأمنيات واقعا، وإلاّ انفلتت قدماي،وسارعت الخطو نحو الحافّة الّتي أتوجّس وأخشى.لو تعلمين كم أنت عزائي الآن.. حرّرتني من قيودي وملكتني بالمقابل. ستجدينني مستسلمة لك كقدري، مادمت يد الله نحو خلاصي من الألم واليأس..أظنّك جسري نحو سلامي الدّاخلي في انتظار سفري الأخير حيث ملاذي.

أنا في ورطة ياصديقتي لا أجد لها مخرجا..أشيري علي، لأنّي غارقة في وهمي..أستلذّه حينا، ويشقيني أحيانا كثيرة..لا تتصوّري أبدا أنّي لا أعي مايحدث لي، وأقبلت عليه، فإنّي أدرك العواقب ،إنّما أنا أبطئ لحظة ذلك الموت بما توفّر لديّ من ثبات، لأنّ أسواري العالية القديمة قدمي لا تسمح لي بالخروج للتّمتّع بالنّور في مكان يليق بي.

ما أن أنهيت صلاتي ليلة أمس حتّى أجهشت بالبكاء قائلة:

ـ آه يا ربّي..أنجدني ياربّي..أنا أحبك يا ربّي..

ثمّة ضوء تسلّل إلى قلبي من ثقب الجدار الّذي حدّثتك عنه من قبل لو تذكرين..أنا الآن أستنير به ما مكّنني من ذلك..لا تنسي أنّ السّماء تبرق، وتعصف أحيانا، وأنّ للكواكب حالات كسوف وخسوف..ستسحبني لدائرة موتي ما أن يتعرّض شعاع ذلك النّور للخطر.

لا أملك الآن سوى الإنتظار، لعلّي أحظى ببعض السّعادة، قبل أن تدقّ ساعة نهايتي.

عثرت الآن فقط على بدايتي..لا أريد أن تحزني قبل أن تعرفي.

أسألك أوّلا..هل لديك رفاق صاحبوك منذ ساعة الميلاد..؟ شاهدتهم، ولم يشاهدوك لأنّهم كانوا طيلة الوقت مشغولين بلملمة الجراح..؟ أسلمت الجفن للنوم ليلا، ولا أحد غيرهم شغل حيّز الأحلام ؟ لأنّك كنت تحلّين بهم قهوة الصّباح، وتتقمّصين بطولاتهم في أحاديث المساء.

تودّعين القمر ،والنّجوم على دعوات الكبار لهم..لعلّ الغد يأتي بالإنتصار.

هل لديك مثل هؤلاء الرّفاق؟ لعلّك تعلّمت لأجلهم قصائد محمود درويش، ولمارسيل الكثير من الأغاني؟ فأدمنت الإلتزام ، وانزويت بعيدا، فرسمت أعلامهم على جدار الحيّ بعيدا عن أنظار الرّفيقات..هؤلاء الّذين كانوا أوّل الملهمين، حين زارتك ثورة الكلمات عِشقك حتّى الممات..هل لديك مثل هؤلاء الرّفاق..؟ بالنّسبة لي..كانوا دائما معي..أتتبّع أخبارهم وبطولاتهم في نشرات الأخبار، وعلى قصاصات الجرائد الّتي يرمي بها جارنا عندما ينتهي منها، أو نحصل على بعض صفحاتها من جارتنا كي نمسح بها زجاج نوافذنا استعدادا للضّيف أو العيد..ألثم صورهم..أحفظ أسماءهم الأحياء منهم والشّهداء، إلى أن قابلت أحدهم في يوم شتوي ممطر، كنت فيه برفقتك يابئري العميق..!أظنّك نسيته، فهو لم يعن لك شيئا حينها..هل تذكرين الشّاعر الّذي التقيناه صدفة منذ سنين في إحدى أمسيات ملتقى الشّعراء والأدباء الّذي دعينا إليه..؟ كم كانت فرحتنا عظيمة أنا وأنت عندما واتتنا فرصة الفرار فاغتنمناها حينها لنروي ظمأنا الكبير للحرّية..حرّية أن نعيش أمنياتنا، فأخذتني إلى ذلك المكان الباذخ بالأدب والفنون..هناك التقينا به، ومن حينها لم يفارقني..لكنّي أخفيته عنك كما فعلت مع الجميع،لأنّ الحب هو الجرم المحض في مجتمعنا. ستتذكّرينه حتما، فهو من أعارنا مظلّته كي نحتمي بها من المطر في طريق عودتنا إلى مهجع الجامعة..لا تسأليني كيف هنت عليّ ،فأخفيت عنك أنّي اعتنقت الحبّ يومها.

لا أجد تفسيرا مقنعا لتصرّفي الأحمق لحدّ السّاعة..لعلّي شعرت بالخجل منك ،واعتبرتك جزءا من ذلك المجتمع..؟ لا تلوميني وأنت تقرئين هذه السطور لأنّي لا أتحمّل أن تتألّمي

بسببي..كم تعذّبني الذّكرى يا صديقتي..عدنا في ذلك المساء، نكاد لا نلامس الأرض بما حظينا به من فرح ، فلم نكن نشاهد هؤلاء الناس إلاّ على الشّاشة أو تطلّ علينا صورهم في صفحات مجلّة أو جريدة..كان هو واحدا منهم..كان حبّي الأوّل والوحيد..صار بعد زواجي سرّي الأوّل والوحيد، فحميته بين جوانحي..رفضت أن يغادرني فأفقد روحي بفقدانه.
أعجبت به ساعتها أيّما إعجاب، وأعجب بي كلّ الإعجاب..من يومها أصبحت له كلّ الإلهام..حتّى الكتابة للوطن، صارت تمرّ من خلالي ياصديقتي..لا ذنب لي أنّي أحببته فهو يستحقّ الحبّ، ولا ذنب له أنّه أحبّني، بعدما أجبرته على التّفاني في ذلك..ألقيت عليه تعويذتي..ففاح ورق رسائلي بشذى عطري المفضل،وكتبت عليه أجمل قصائدي.

تحجّجت في الغد بالمظلّة، فعدت إلى الملتقى بمفردي..فتّشت عنه وسط الجموع الّتي كانت حينذاك وقت فسحة الغداء.

كنت تائهة في ذلك البهو الواسع، أبحث عن شاعري..ما أن شاهدني من بعيد أحدّق في الوجوه حتّى سارع إليّ مرحّبا..متوسّط القامة..لم أهتمّ لهذا التّفصيل الّذي يجعلني أطول منه، لكنّي ذهلت أمام عينيه اللّتين كانتا بلون البحر الّذي تنعكس عليه زرقة السّماء الصّافية وإشعاع شمس الرّبيع الفاتنة..شعر كستنائي يحوط وجها خمريا مثلّثا بلحية خفيفة..أكثر ما شدّني شفتان..مازالت نفسي تراودني على تقبيلهما ولو من خلال صوره الّتي ما زلت أحتفظ بها..لم نتحدّث كما تتخيّلين، لكنّه سلّمني ورقة كتب عليها عنوانه بالشام، وهاتفه، وقصيدة كهديّة..قال أنّي ألهمته إيّاها..ثمّ أضاف:

ـ سأنتظر كتابك لي لأنّك أسرتني منذ الأمس،أنا مدين للغيم وللمطر، وبالتّالي لا تاريخ ولا حياة تذكر قبلك..أنا بك بدأ التّأريخ لميلادي..
يداهمني التّعب..سأتوقّف عند هذا الحدّ في رسالة اللّيلة..نسيت أن أخبرك أنّي أصبت مؤخّرا بسرطان الثّدي..أعاني مرحلته الأخيرة..كنت سأخبرك منذ البداية لكنّي وجدت صعوبة كبيرة في ذلك ، لذا ارتأيت أن أحدّثك عن **جواد** أوّلا، في انتظار أن يسعفني قلمي

بالكلمات المناسبة.

سأقتنص كلّ لحظة صفو في ذهني، وأتجاوز آلامي لأكتب لك حتّى إن انقطع بريدي ستعرفين حينها أنّي غادرت إلى وجهتي الأخيرة.

صديقتك

منال

السيد الأنيق

وصلتني رسالة منال الثّانية بعد أيّام ،سارعت إلى كرسيّي الهزّاز في حديقة منزلي الخلفية

عانقته، كما يقول زوجي عندما يراني أسبقه إليه ضاحكة:

كتبت لي صديقتي:

هل تصدّقين أنّنا نجني الشّوك رغم كلّ ما عانيناه عندما أحسنّا الزّرع..؟

بالنّسبة لي استنفدت كلّ طاقتي، حتّى بتّ أشعر أنّني أنهل من أوردتي..الآن تجاوزَت المنتصف..تلك الّتي أسمّيها حياتي باتت ورائي.

صحوت صبيحة اليوم منهكة القوى ،سحبت نفسي من الفراش، كمن يجاهد في نقل أثاث قديم من مكان إلى آخر.حملت نفسي كما أفعل دائما، وقفت عند باب غرفتي أستعيد ذاكرة المكان، وأستوعب واقعا أصحو عليه منذ شهور،أسرعت كالعادة إلى الحمّام ،وقفت قبالة المرآة أمشّط شعري أوّلا.أنا هكذا أدخل عالم اليقظة بتمشيط شعري.نظرت في المرآة لأتأكّد أنّي اليوم أيضا أصبحت جميلة مثل أمس والّذي قبله..ألم تقل أمّي:

الزّين بعد النّعاس وإلاّ لما تْحطي الحنّاء على الرّاس..!

عزائي في وجهي الجميل صديقتي، أمّا خصلات شعري فقد عشقت المشط مؤخّرا، ما أن تلامسه حتّى تتبعه فتقع، وأنتشلها من بين أسنانه..بعدها بدأت الدّورة الّتي اعتدتها من جديد.

يوم آخر خال من الحياة ، بعد فنجان قهوة لم أستطع الاستغناء عنه رغم مرضي.

تضمّ الجدران شقّة صغيرة يلفّها الظّلام.. باردة كالموت الّذي يترصّدني..كنجمة أفلت من السّماء صديقتك حبيبتي فسقطت وسط رمال الصّحراء..أتفقّد الغرف واحدة واحدة ،علّني

أجد مكانا أريح لي فيها من غرفتي..عبثا..ملكت الظّلمة كلّ المساحة..أعود في النّهاية إلى سريري ،وأستلقي عليه منهكة..أحضن إحدى المخاديد ، بينما تتمدّد الأخرى تحت قدميّ، وساقيّ المزرقّتين المنتفختين.

يوم الجمعة خرجوا لريام أغنية ل **قروابي**..أستمتع بها الآن..وأنا أخطّ إليك هذه الكلمات. لم أحبّ الغناء الشّعبي يوما، لكنّ أحدهم عمّدني على هذا النّوع من الفن المستمد من الذّاكرة الجماعية، فوجدتني أغتسل بعذب ألحانه، وسيل أشعاره التّراثية..لابدّ أن نغتنم المجهول قبل أن نستحسن أو نرفض..أتعلّم في كلّ مرّة وأتبنّى جديدا .

توقّفت منذ أيّام عن كتابة مذكّراتي، أحاول أن أقضي على الحلم الّذي يصاحبني منذ سنوات، فتلك الأجنحة تأبى أن ترفرف..أصبحت تجهدُني وتكتم على أنفاسي..أقاوم الصّور..كلّ أطياف الماضي والحاضر في خيالاتي..لا أدعني أنام..أتصوّرك تشيرين عليّ قائلة:

ـ إبدئي من حيث الصّور.. مزّقيها!

لقد مزّقتها ياصديقتي.. تصوّري!..أحرقتها.. لكنّها ألقت بظلالها على روحي قبل أن تختفي من أمام ناظري..ستسألينني:

ـ هل تأثّرت..؟ لا تبالغي فما تعانينه سيشغلك أكثر.

بلى تأثّرت، شعرت بنغزة في القلب، وجدتني أغوص في عالمي اللاّمتناهي حيث **الشاعر**.. حيث كان الفرح في البداية، ومن بعدها الأحزان..ذلك الشّاعر الغامض الّذي خطفني ذات يوم، ولم أعثر عليّ لحدّ اللّحظة.

شهد ذلك اليوم مطرا غزيرا..كنّا مأخوذتين بجنون الشّباب فلم نأبه لثيابنا الّتي جعلها البلل الشّديد تلتصق بأجسادنا الشّابّة الطّرية..كنّا كمن خرجتا من حمّام سباحة لتوّهما.. حوريّتان اقتحمتا معبد الملهمين.. كان من الطّبيعي جدّا أن تشرئب الأنظار إلينا لحظتها.

أنت بشعرك الكالح السّواد المسترسل على كتفيك ، ومفاتن انبثقت سحرا وجاذبية بعد أن

اعتنق الفستان تفاصيلك ، لم أكن أفضل حالا منك لكنّي . كما تعرفينني . لا أجيد الوصف عندما يتعلّق الأمر بي.. لم تهتمّي بأحد بل رحت تضحكين مستمتعة بهذا الذّهول الّذي أحدثناه في كلّ من رآنا، بينما وجدت أنا صعوبة في الحفاظ على هدوئي، والسّيطرة على خجلي عندما اقترب منّي **جواد** مبتسما وعيناه لا تغادران تفصيلا من جسدي.. شعرت بخدّي يتورّمان ، ولم أدر أين أخبّئ بصري عندما قال لي:

ـ أنت مثل القمر تتوهّجين..كلّك أقمار آنستي..!

ضحك، وابتعد، وشعرت بحمّى تجتاحني، ومن يومها بدأت محنتي.ألم تستغربي **نوريّتي** كيف أنّنا لم نمرض؟ كنّا عنيدتين.. لم نعد إلى الإقامة الجامعية وفضّلنا الاستمتاع بما تجود به قرائح الشّعراء،من بينهم **جواد**.

كانت المظلّة جائزتي في النّهاية،حيث سمحت لي بالعودة إلى هناك مجدّدا..ليتني لم أفعل..!

فقد حكمت على نفسي بالضّياع في دهاليز حبّ لا أمل يرجى منه.. قرأت في كتاب أنّ المأساة تبدأ بعثرة.. عندما فكّرت في مآل حياتي أدركت أنّها فعلا هكذا بدأت، بخطإ تلته الكثير من الأخطاء،حتّى انتهى مشوار العمر، ورست سفينتي في مينائها الأخير..

إن كنت أريد التّحدّث عن خطئي أنا، ومرساتي أنا، فلا دخل لي بالآخرين.

من يومها صرت أتلقّى الرّسائل من **الشاعر** بعد أن كنت المبادرة..لا أفهم كيف أنّه أعطاني رقم هاتفه ورغم ذلك لم أتمكن من الوصول إليه،وربما سمعته يرن في الطرف الآخر لكن دون جدوى ،رغم محاولاتي المتكرّرة..هل كان الرّقم خاطئا؟

كنت أسأل نفسي..ثمّ استفهمت منه في إحدى رسائلي قائلة له:

ـ لماذا لا أستطيع الوصول إليك..؟ لماذا لا تردّ على اتّصالاتي..؟ أم أنّك غيّرت الرّقم ولم تخبرني؟

أتخيّلك تسألينني عن جوابه..لم يردّ على سؤالي يوما، ثم صارت كلّ رسالة منه قصيدة،

وكلمات مقتضبة مفعمة بعطر البلد الّذي أرسلت منه.هي قصيدة وحيدة وصلتني من رام الله.

كنت أنفرد بنفسي في مكتبة الجامعة لأردّ على مايصلني منه ،وقلبي ينزف شوقا إليه ،إلى تلك العيون، تلك الشّفاه الّتي لم أتذوّق قبلتها إلى اليوم، ولا أظنّني سأفعل.

كنت أسرع قبل أن تلتحقي بي، فيأخذك الفضول لمعرفة ما تكتبه صديقتك.كم كنت بريئة! كم غيّرني ذلك اللّقاء..!

علّمتني أمّي من خلال سيرة **بني هلال** عندما كنت طفلة، أنّ الحيلة والذّكاء مقرونان بالجمال..من دونهما هو مجرّد مسحة من غباء. تقلّدت سمائي ثياب الحزن والكآبة، فلا يكاد الغيم ينقشع ليسمح للشّمس كي تشرق على قلبي تقبّله حتّى يعود.. تبكي السّماء، فأبكي معها، فيسارع قوس قزح يزاحم الشّمس للظّهور، فأنشد للحياة أهزوجة ومقاما،ومن ثمّ تقهرني وحدتي مع سرّي، فالمكتئب داؤه السّكوت.

أعتقد أنّي كنت غبية عندما بنيت عالمي السّحري في الخيال وصدّقته، غصت فيه فلم أعد أشعر بمن حولي.هل تذكرين حين كنت لا تتوقّفين عن السّؤال:

ـ مابك منال..؟ لم تعودي كما عهدتك..أين المرح الّذي كان يسكنك..؟ ماهذا الشّرود الّذي بات يصاحبك؟

صدّقيني..! حاولت أن أبوح لك بسرّي الدّفين ، لكنّي كنت متأكّدة أنّك ستؤنّبينني، وتطلبين منّي نسيانه..كنت أضحك معك حتّى ألامس الجنون، لكنّ ذلك لم يعن أنّ ما بداخلي كان هادئا..آمنا..كالثّلج عندما يتراكم في حيّنا كلّ شتاء فيخفي العيوب.

كنت ملاكي الحارس..تخترقين روحي الشّفّافة، وترين كلّ ما يحدث فيها..لعلّك كنت تعلمين واكتفيت بالصّمت..أذكر أنّك مرّة قلت لي:

ـ مهما فعلت لتحمي ذاك الملاك داخلك لن تستطيعي..لا تنسي تلك النّقطة البعيدة حيث

يكمن لك ذلك **السّيد الأنيق**..يرسل لك رسائله يغريك: أن **تعالي**..!عانقي سحري..كلّنا يسكننا **السّيد الأنيق** وأنت يا **منال** لست الاستثناء..!

ذهلت حينها وسألت نفسي:

ـ ياويلي أيّ رسائل..؟ هل علمت..؟

لكنّك طبعا كنت تقصدين أمرا آخر .سأتوقّف هنا اللّيلة يا عزيزتي،لم يعد قلمي يطاوعني حتّى حروفي وكلماتي تهرب منّي، وتتمرّد فتترنّح على أسطر ورقتي.

عندما يحلّ المساء ياصديقتي تلثم الآلام جسدي بشغف..تؤنس وحدتي، وتحملني إلى البعيد حيث ينمحي الوجود بالنّسبة لي ،فأرقب نهايتي..أتوقّع في كلّ ليلة موتي بين ساعة صحو، وإغماء إلى أن أقبّل وجه الشمس،فتشرق روحي من جديد.

خاصمني المورفين فلم يعد جسدي مرتعه..لا تؤثّر فيّ جرعته..أنشد السّلام في حلم يحملني بعيدا عن ألمي الّذي ينهشني..خضعت أمس لغسيل كليتي..تعبت هاتان الأخيرتان فقرّرتا التّوقّف لاستعادة الأنفاس..أعتقد أنّهما لا تعلمان أنّ ما أقدمتا عليه ينذر بهلاكي..سأنتظر منك رسالة، ولا تظنّي نفسك مضطرّة للإطالة فيها..هي مجرّد ردّ سلام..سأهجع الآن إن تمكّنت من ذلك.

صديقتك

منال

واثقة الخطى..

أتحداك أيها الفناء الرّابض عند بابي.

ثابتة الخطى..

أرسم خريطة وطن وحيد لي، لا توجد فيه كما يملي علي مخيالي.

ثابتة الخطى..

أشقّ مسالكي الوعرة أيها الجاثم في حفرة حياتي. لا أراك مهما تضخمت ، وحاولت ملء المكان..لي زاوية جعلت منها قصري ومحرابي.. لي ذاتي، ولك الغرور، والباقي.

المرض الخبيث

كانت رسائل **منال** تتوالى الواحدة تلو الأخرى بوتيرة مضطربة..تردني أحيانا بعد أسبوع، وأحيانا أنتظرها بقلق لأسابيع، حتّى أعتقد أنّها رحلت، رغم أنّي كنت أكتب لها لتعرف أنّي لا أغفل عن صندوق بريدي..أتفقّده كلّ صباح لعلّ اليوم يكون لقائي الجديد بها..أخيرا بعد ثلاثة أسابيع وردتني رسالتها الثالثة ..ضممتها إلى صدري بغبطة ممتنّة للسّماء على بقاء صديقتي على قيد الحياة.

كتبت لي صديقتي:

صباح الخير **نوريّتي**

لأوّل مرّة منذ زمن نمت البارحة باكرا، لم أكن بحاجة إلى حلم ألمّع به ليلتي، ولا إلى يد تربّت على قلبي ليتسرّب إليه أمانه.. سافرت أنتِ إلى وجهتك، وغادرت روحي أنا إلى وجهتها المشتهاة بعد أن كتبت جزءا من روايتي تلك الّتي تعرفين، وقرأت صفحات من روايتي تلك الّتي لا تعرفين.

كنت سعيدة لأجلك عندما أخبرتني أنّك ستعودين إلى حيث كنّا آخر مرّة معا..هو يوم واحد تقضينه هناك، وأتلذّذ أنا بذكرياته في عالمي..تراك قابلت أحدا عرفناه يوما ؟هل مازال كلّ شيئ على حاله؟ لقد فرحت أكثر لأنّك سجّلت ابنتك في نفس الجامعة الّتي تخرّجنا منها..كم كان سيبهجني لو كنت معكما..عندما تكتبين لي في المرّة القادمة..حاولي لعلّك تنجحين.
أخبريني كيف ترسم الأقدار ياصديقتي؟ أخبريني كيف يخطّ القلم؟ كيف أعدّ للسّفر الأخير، لعلّني أغفلت أمرا ولم أنتبه، فما أصعب سكرات الألم..لست ملاكا لكنّني جمّلت نفسي ما استطعت..أعددتها كي تنال الرّضى، فأنزل منزل المرضيّ عنها..أقدّم الإلتماس، فيستجابُ الطّلب..أصبت يا عزيزتي بالصّدمة عندما علمت أنّي مصابة بسرطان

الثّدي،لطالما كنت أسمع عنه، وأتعاطف مع المصابات به، لكنّني لم أتوقّع يوما أن أكون ضحيّته..أرجعت شعوري بالوهن، وعدم قدرتي على ممارسة حياتي مؤخّرا إلى حالة الإكتئاب الّذي عانيت منه..صاحبت الحمّى لياليّ، إذ يغزو البرد أطرافي ، يلسعني كالإبر، ويأخذني الكرى على تلك الحال ،فلا أقوى على مناداة أحدهم،ليجلب لي غطاء آخر يدثّرني به، أستيقظ صباحا ،فتداهمني دموعي لأنّني كنت أشعر بالقهر،ولم أعد أقوى على مغادرة فراشي لإعداد فطور الصّباح لأولادي..كنت في بادئ الأمر أنادي على أحدهم كي يجذبني، ليدفعني للنّهوض حتّى أتغلّب على اكتئابي ووهني. لم أكن أغادر البيت لشهور،ثمّ أخذني زوجي للفحص عند طبيبة عامة بعد أن عجزت عن آدائي مهامي، ووقعت مغشيا عليّ داخل حمّامي..لك أن تتصوّري نوريّتي كيف تبدأ الرّحلة من أسفل السلّم، وتبقى أسفل السلّم.

كنّا نقف على قارعة الطّريق، ننتظر مرور سيّارة أجرة.. أنا بضغط دمي المنخفض ونوبة الحمّى الّتي تضطرم داخلي، وهو بقامته العالية وكبريائه الّذي لم يسمح له باستدعاء سيّارة الإسعاف لأنّني كنت بحاجة لمن يسعفني فعلا، أو على الأقل أخرج، فأجد سيارة الأجرة في انتظاري..ماذا فعلت..؟ أسندت ظهري إلى الجدار المحاذي للطّريق، واستسلمت للقدر كعادتي.. بعد ساعة إلاّ ربع بالضّبط توقّفت جارتي بسيّارتها وكلّها قلق على حالتي المزرية، دعتنا للرّكوب عارضة إيصالي إلى حيث أريد..صعدت إلى جانبها. سألتني:

ـ ألن يأتي معنا؟

ضحكت وكلّي منهك قائلة:

ـ دعيه..رياضة المشي مفيدة جدّا!

وصل قبلنا..لا تدرين كيف؟ رغم أنّ المشوار كان بعيدا..خمّني أنت لأنّي ضجّت بي المشاعر بينما أقصّ عليك الآن بعضا ممّا مررت به من مراحل، لأكتشف في الأخير أنّ الوقت يُسرق

منّي ،وأنّ مصيري محسوم.

ماذا لو لم أُحمَّل كلّ ذلك الجهد والسّفر من البداية ؟ ألم يكن من الأحسن لو أحاطوني بالحنوّ حتّى تحتملني سحابتي، وأرقد، فأستيقظ بعدها في البرزخ مع الأرواح الّتي سبقتني؟ هكذا صرت أفكّر مؤخّرا.

بعد الفحص الأوّل وإجرائي للتّحاليل بدا الأمر بسيطا للطّبيبة..قالت لي:

ـ هو مجرّد فقر دم أصابك الإعياء على إثره..

أخذتُ مقوّيات، ونصحتني بالرّاحة..لم تتحسّن صحتي. كنت كمن تغوص في بئر سحيق.

خرجت حينها عن سكوني لأقرّر العلاج عند طبيبة مختصّة، ورفضت العودة إلى الأولى.لم أعد أعير اهتماما لما يقوله زوجي..لم يكن لدي أكثر من خيار، فشعوري بآلام في أحد ثديي جعلني أتوجّه إلى المختصّة الوحيدة لدينا في أمراض الثّدي وبكلّ ما تعايشه النّساء، ومن هناك بدأت رحلتي..دعيني أوّلا أشرح لك يا نوريّتي ما معنى أن تسكني الجنوب مريضة عليلة..؟ ينقطع نفسك وأنت تسلكين كلّ الدّروب..تجدّفين طويلا في طرقها الممتدّة على مرمى البصر من غير تعرّجات، وسط الحرّ،والقرّ ،تبحثين عن العلاج في رئة يتنفّس من خلالها ملايين البشر ،لكنّك تفتقدين فيها لأبسط متطلّبات العيش، كأن تكون جرعة الهواء النّقية الّذي أفسده احتراق الغاز الدّائم في تلك المشاعل الرّائعة تنير اللّيالي..تلقي بضيائها إلى صفحة السّماء..حتّى الجمال عندنا مميت. نسافر إلى عاصمة الولاية لنجد أنفسنا فئران تجارب بين يدي من تركوا الشّمال مضطرّين؛متخرّجون جدد..لابدّ لهم من بشر يمارسون عليهم كلّ الطّقوس الّتي تعلّموها.. أنت وحظّك بين يدي من تقعين.. كأن تشكين من ألم في ظهرك، لكنّك تأخذين عنده حقنة كورتيكويد على باطن قدمك ،لا تفهمين حقا ما يحدث.أشفق على العاجز والفقير فيها صديقتي.

كنت سأخضع لمشرط جرّاح مبتدئ لم يشخّص حالتي جيّدا، لولا عناية السماء لكنت

تعذّبت أكثر فأكثر..تحسّنت حالتي فوجدتني راضية.

جلست قبالة الطبيبة المختصّة في موعدي الثّاني، وكلّي ثقة في أنّ هذا الفحص سيكون مجرّد روتين لتأكيد الشّفاء فقط، فأعود إلى حياتي وقد زال التّوتّر الّذي نال منّي لأسابيع.ما أن امتثلت ،واعتدلت في جلستي على سرير الفحص حتّى فوجئت بها تؤكّد لي عدم استعادتي لعافيتي ،وإصابة الثّدي الأيسر أيضا بعد أن كان خاليا من أي ورم ،بدت حالته أكثر تعقيدا من الثدي الأيمن.

ضحكت..اضطربت داخلي المشاعر،وبالتّالي ردّات الفعل.لم أدر ما أقول في البداية، لكنّني تماسكت وقلت ممازحة:

ـ أخبريني إن كنت سأموت بهذا الشيء، حتّى أستعدّ نفسيا لتلك الطّريق.

إبتسمت طبيبتي، وقالت:

ـ لا تخشي شيئا..من المحتمل أن يكون مجرّد التهاب أو تكيّس أو ورم حميد نستأصله، ولا نتحدّث عنه بعدها أو لعلّه معك منذ زمن ولم تشعري..

تملّكتني الحيرة ،وقلت في نفسي:

ـ ألم أكن أعاني منذ أسابيع إلاّ من تكيّس بسيط لم يستدع القلق؟

ثمّ رفعت صوتي موجّهة الكلام لها هذه المرّة:

ـ معي منذ زمن؟ كيف؟ هل عليّ أن أقلق؟

ضحكت بعصبية،وأضفت مازحة:

ـ أنا لا أصاحب أشكالا كهذه في جسدي..

ثمّ قلت:

ـ لكنّه موجع.. والمرض الخبيث لا يؤلم صاحبه إلى أن يباغته في النّهاية!

هذه باختصار البداية صديقتي..خرجت يومها من تلك العيادة أضحك، وأمسح دموعا غزيرة كانت تغسل جفنين تأذّيا من ريح رملية عصفت ذلك المساء بمدينتنا..كيف أشرح لك حالتي تلك؟ لا أجد الكلمات المناسبة..داهمني التّعب، لذا سأركن إلى فراشي يصاحبني ذلك النّغم الخالد في قلبي يجهدني ، يلاحقني ، يسحبني إليه ،يغرقني في طفولتي..تُراني سأكبر يوما؟ قبل أن أغادر، أنا الّتي قبّلتْ عقدها الخامس؟

أدمنت هذه الطّفلة أحلامها المستحيلة..أخشى عليها من استيقاظة عنيفة..هلاّ دعوت لها أن تنجو بحرفها، وتجرؤ أخيرا على فتح بابها، والخروج للمسير في ذلك الطّريق ،حيث رأتها أمّها يومها في المنام قبل أن تخطفها يد القدر، لترسلها إلى مرفئها الأخير؟.

صديقتك

منال

أنام لأحلم

أسعد المولى صباحك صديقتي..هكذا استهلّت رسالتها الرّابعة:

أكتب لك كلّ مساء بينما أعدّ نجومي ، وتعذّبني أقماري، لكنّي متيقّنة أنّ رسالتي تصلك صباحا تستفتحين بها يومك..لذا أحاول جاهدة ألاّ أحزنك بما أبوح به لك.

عدت منذ يومين من سفرة قصيرة عند أهلي ،أخذت خلالها جرعة الكيمياوي..أرغموني

على أخذها يا عزيزتي..كيف نعرف أنّ أيّامنا معدودة ثمّ نسمح لتلك الأيادي تعبث بنا وتعذّبنا..؟!

هل أخبرتك أنّهم استأصلوا أحد ثدييّ ؟ لم أسمح لهم باستئصال الآخر ،رغم إلحاح الجرّاح على ذلك بعد شهرين من العملية الأولى..مجانين..يريدون أن أموت ألف مرّة قبل أن أموت حقا..رغم هذا ما زلت أراني فاتنة وأنتظر **جواد..**لا أمل يرجى من لقائه غير ساعة من السّعادة أملأ بها روحي بنور محيّاه ،بعد كلّ تلك السّنوات الّتي بنيت فيها قصورا، وهدمت قلاعا من الأماني، لأجل موعد عاهدني عليه..ومازلت أنتظر.

دخل ولدي علي منذ قليل..حزن عندما وجدني ما زلت صاحية..أتململ في جلستي من شدّة الألم وأكتب لك..تجاوزت السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل.

قال لي:

ـ أراك متعبة..لم تنامي البارحة أيضا..ألم أقل لك لا تفكّري كثيرا؟

قلت له:

ـ أشعر بعقلي يفرّ منّي..أنت تفهمني حبيبي..من الضّروري لي أن أتمسّك به فأشغله..لا أسمح له بالهروب.

ولدي مراهق لذا ينصحني بما يراه منسجما مع رؤيته.قال لي:

ـ مارسي الحلم إذن..ستجدين فيه لذّة ما بعدها لذّة..تحلّقين فيه وتصنعين البطولات..فلا توجد هزائم حيث الكون كلّه طوع أمرك وبين يديك!

كيف أخبره يا صديقتي أنّ حلمي سرق منّي منذ تزوّجت أباه..؟ وأنّني أعيش على بقايا ذكريات.لا يعلم أيضا أنّي سأتركه قريبا، فلن أختار عروسه كما يتمنّى عليّ في كلّ مرّة عندما نتحدّث عن فتاة..لن أصعد إلى جانبه، ويسافر بي حيث أشاء كما وعدني..قلت له:

ـ لا حاجة لي الآن بشريط يعذّبني مثلما يسعدني..إن سمحت لهذا العقل بالسّرحان خارج حدود الواقع ستجدني أذرف الدّموع على حلم ضاع داخل حلمي..أضحك وحدي..أعيش جنوني هناك على تلّتي أو مسندة ظهري إلى أثر كنت أمرح قربه أيّام الطّفولة، فأنتكس بعدها لأنّ الحلم أيضا يؤذي.

لم يجد بدا من تركي بعد أن ضمّني إليه طويلا، وقد كنت استيقظت صباحا على صوته ويده تسحبني برفق خارج فراشي:

ـ ماما..! قومي.. اكتبي كما تعوّدت على ذلك كلّ صباح ومساء..هاكي قهوتك والورق والأقلام أعددت لك كلّ طقوس الإلهام..هذا نغمك الّذي تحبّين فلم يعد يزعجنا كالعادة..

أخذت وقتي في الخروج من كوابيس اللّيل..في حالتي..ليس أحسن من قبلات، وعناق لهكذا استعداد..أفضّل أن يقبّلني ولدي أوّلا، ثمّ ننتهي إلى العناق، كمسافر يضع رحاله في واحة غنّاء حتّى يستريح من عناء الطّريق..الحب بلسم الجراح **نوريتي..**

قلت له:

ـ خاصمتني الحروف والكلمات..لا أجد ما ألوّن به ورقتي البيضاء..

أجابني مشجّعا:

ـ يعجبني جنونك ماما..أكتبي لصديقتك..تعجبني هذه الصّديقة أيضا..!

كتبت أسطرا قليلة من روايتي، وتوقّفت..يمزّقني الألم..لا تنفع معي مضادّات له، لكنّي أتشجّع، وأضع نصب عينيّ الكثيرات ممّن يعانين نفس مرضي..ألتقي بهنّ في المستشفى، حيث أقضي اللّيل أحيانا هناك عندما تسوء حالتي فأفقد القدرة حتّى على التّنفّس ، لكن ما أن تعود إليّ الرّوح حتّى أنفق ما تبقّى من السّاعات في مسامرة نزيلات جناحي..أضحك بشدّة، وأجعلهنّ يضحكن رغم سوء حالتهنّ..يبكين فأبكي معهنّ، فليس أصعب من مرض مخادع ينخر جسدك من حيث لا تعلمين.

حسنا حبيبتي..أظنّني.. لحدّ الآن أحزنتك كفاية، لكنّني لا أجد مناصا من الكتابة إليك والبوح بمكنوناتي..أشعرأنّك خيطي الرّفيع الّذي يربطني بالحياة،وأنا متأكّدة أنّه سينقطع ما أن أتوقّف عن إرسال رسائلي.

لم يصلني شيء من **جواد** منذ زمن..كانت الغبطة الوحيدة الّتي ملأت عليّ كياني في ذهابي إلى بلدتي هي حصولي على ما يصلني منه على بريد أختي، لكنّي للأسف لم أجد شيئا..كنت قبل ذلك قلقة، فلم أتأمّل كعادتي، ولم أشعر مطلقا بجمال التّضاريس..سافرت بالحافلة كما كنت أفعل دائما..فلم يشفع لي المرض حتّى في هذه..لا بأس.. فقد كنت في الطّريق ولم أكن ، وظلّ الفكر مشغولا كفاية كي لا أحسب السّاعات.

لم أفتح حقيبة سفري بعد لأرتّب أغراضي داخل خزانتي، حتّى وجدتني أتجهّز من جديد لرحلة أطول بعدما رفضت استئصال الثّدي الثّاني..لا أستطيع خوض تجربة أخرى من الألم النّفسي والجسدي الشّديدين..أستسلم لمشيئة القدر..أتقبّل مسيري نحو نهايتي بصدر

رحب ،وراضية بما فعلته لأجل نجاتي لحدّ الآن، لكن لا مزيد من التّشوّه والبتر..أحبّ كلّ جزء في جسدي، فأنا لا أرمي بأشيائي الثّمينة بعيدا،وسآخذ هذا الثّدي معي إلى قبري.

لم تبق إلاّ أيّام قلائل على شهر رمضان..أرجو أن تصوميه وأسرتك بالصّحة والعافية.

لأوّل مرّة أترك بيتي في هذا الشّهر الفضيل..هي تجربة جديدة على البنتين..ستتدرّبان على خوض الحياة من غير حضوري وحنوّي، ومهما كان الدّرس قاسيا يبقى ضروريا للإِستعداد لكلّ الاحتمالات يا عزيزتي.

أهدتني أمّي ستّة أهلّة.. كنت ضيّعتهم يوما.. حجبتهم سحب وغمّت عليهم غيوم.. تركوني في البدء في أوّل الطّريق بعد أن أغرقوني والجوّ عاصف من حولي..لا نور في دربي،فاضطررت حينها إلى التماس الخلاص لوحدي.. تعبت لكنّني خرجت بأقلّ الخسائر إن اعتبرت خسارتي لذاتي لا حدث.. اليوم غفرت بعد أن وجدتني وسط الطّريق الصّعب ثانية.

سمائي تنيرها أهلّة أمّي..إنقشعت السّحب وتبدّدت كلّ الغيوم فاستحالوا بدورا..هؤلاء هم اخوتي . **نوريّتي** . لوتذكرين كم عذّبوني.. كم حرصوا علي ،وكم حموني، ثمّ إلى أوّل خاطب قدّموني على طبق من ذهب.. هكذا كأنّهم سئموا وجودي قربهم، وملّوا صحبتي..خذلوني من البداية، وأتساءل الآن بعد كلّ تلك السّنين وقد صاروا بدورهم أزواجا وآباء لبنات هنّ الآن كما كنت في مثل سنّي..كيف أنّهم لم يمارسوا تلك الرّجولة عليهنّ، وتلك الأنانية والجبروت معهنّ..حرصوا على سعادتهنّ وحرّيتهن ،وفي الأخير أحسنوا اختيار أزواجهنّ، فقد كان الرّضا أوّل ما توفّر لهن..على عكسي تماما فقد كنت مثل أخواتي لذا كان عليهم التّعاون على **صون عفافي..** لو كنت أنوي كسر أغلالي وقتها لفعلت .. لكنت امتثلت لإلحاح **جواد** والهروب معه للزّواج به بعد أن رفض إخوتي مجرّد الخوض في الحديث عن قدومه لخطبتي والتّعرّف عليه.

قال لي أحد اخوتي مؤنّبا:

ـ هل أرسلناك إلى الجامعة لتغرمي أم لتدرسي؟! ثمّ ما الّذي ينقص أبناء بلدك حتّى تنجذبي إلى هذا الغريب المشرقي..؟ لا يوجد أيّ تشابه بيننا وبينهم سوى أنّهم عرب ونحن كذلك إلى حدّ ما..ما الّذي يرغمك على خوض المجهول هناك حيث يستوطن اليهود بلده..؟ لن تحصدي سوى النّدامة من وراء مغامرتك..

توسّلت إليه موعدا ألتقيه فيه قبل أن أزفّ إلى من اختاره أهلي زوجا ، رفض المجيء إلى الجزائر وغضب حيث اعتبر رسالتي دعوة ليشهد زواجي من بعيد والعجز والألم ينهشانه. كتب لي قائلا:

وصلتني بطاقة دعوة لحضور الفرح وليس خطابا..هل يمكن لي أن أنعيك من الآن؟..لا تجبريني..أعرف أنّه أتعس يوم في حياتك..سأحزن عندما يزجّ بك إلى حيث تدفن الرّغبات ويضيع الحلم ، وتبقى ساعات الفرح مجرّد ذكريات جميلة موجعة حين نصحو بعدها على واقع أكثر إيلاما. لا أتصوّر مشاهدتك تخرجين مرتدية البياض من بيت لم تستطيعي فيه مواجهة الأحبّة فتنتصري لنفسك لتدخلي بيتا لن تحرّكي فيه ساكنا أمام غريب..حظينا أنا وأنت بزمن تحرّرت فيه العقول وتطوّرت فيه المفاهيم فكيف تريدينني أن أصدّق أنّ قوّة تفوق قدرتك هي ما أجبرك على الاستسلام والرّضوخ. أتعرفين؟..أنا الآن أحقد عليك..لم تتعلّمي من تجارب أمك.أضاعت هذه الأخيرة وقتا ثمينا عندما تركتك تلتحقين بالجامعة فتخرّجت منها فارغة اليدين من دون حقائب عدا تلك الشّهادة..توقّعت أن تصبحي أكثر نضجا وقوّة لكنّك خيّبت الظّنّ، فالخضوع هو الخضوع والضّعف هو نفسه فقط تتغيّر الوجوه..لكنت بقيت بالقرب منها..أنتظر بعد أن تعيشي ليلتك الأولى معه وتنتهي لحظتها مرحلة العذراء الجميلة أن تقومي وتعدّي فطور الصّباح.. لا تنسي أن تبتلعي دموعك وتشرقي بغصّتك..أظهري مهاراتك المعهودة، فزيّني المائدة بما علّمتك إيّاه أمّك..رتّبي غرفتك بما يليق بعروس، ولكنّي أعرف أنّ

فوضاك الدّاخلية ستبقى.وسأتّخذ لي زوجة أنا أيضا بعد أن أستيقظ من صدمتي..سترى فيّ الغريب ربّما كما أراها منذ الآن تلك الغريبة.

المخلص جواد

قرأتها مرّة واحدة، ثمّ أخفيتها في صندوق جواهري..أصابتني الكآبة من يومها،فلم أستلذّ حلوا، ولم استطب طيبا..كنت فعلا جبانة..رغم هذا واصلت الكتابة له بعد زواجي،ليس لأبوح له بحبي وأشواقي ولكن لأبقي على ذات الكاتبة في داخلي، وعاد يكتب لي بعد أشهر مشفقا على حبّه الّذي ضاع..كتب لي كلمات لم أسمعها من أي إنسان..لم لا وأنا ملهمته وفاتنته؟

أعود وأتساءل لماذا تأخّرت رسائله، فلم يردني منه خطاب منذ شهر..ربّما تزوّج أخيرا بعد كلّ هذا العمر..هل تظنّينه فعلها..؟ تصوّري أنّني بقدر ما أرجو له السّعادة، يؤلمني أن تأخذ امرأة أخرى مكاني في قلبه.

يا لي من حمقاء..! كيف لا يضجر هذا القلب من أنّات روحي الهائمة..؟ تضاعفت نبضاته وهو الّذي أترعته الأوجاع منذ مرضي.

هكذا هي الدّنيا معنا ياصديقتي..! يوم علينا.. ويوم علينا..! يوم كان علينا..ويوم أذكر كان علينا..ويوم آخر بعيد كان أيضا علينا..أخيرا يوم أرجوه يكون ربّما لنا ذات يوم..سأقوم إلى فراشي لأقاوم سهادي لعلّي فعلا أغمض جفني فأحلم كما نصحني ولدي.

صديقتك

منال

على الطريق

وذات صباح وردتني رسالتها

سلام من قلبي المحبّ إليك صديقتي

ها أنا أكتب لك هذه المرّة بيد ترتجف..تقاوم الضّعف واهتزازات على مقعد الحافلة..نحن في اليوم الثّاني من الشّهر الفضيل..يطفئ السّائق الأنوار، فيهجع الجميع على مقاعدهم منهكين أو هكذا يبدو لي..أضأت نور هاتفي كي أبصر ما تخطّه يدي لك..استيقظت من غفوتي أسامر اللّيل..أخوض نفس الطّريق الّتي أقطعها منذ شهور، وآخرها منذ أيّام كنت قلقة فيها على فارس التّاريخ والحكاية، فالقصيد عنده لم يكن مجرّد كلمات مصفوفة يبلغك بها الصّدى ولا يلامسك فيها عمق المعنى..يغتسل اِسفلت الطريق بماء المطر..سحب من فوقنا وقمر يغالبها للظّهور، فهو رفيق رحلتي منذ الغروب، لكنّي هذه اللّيلة قلقة على فارسة المعاني والجمل المسترسلة..الّتي هي أنا يا عزيزتي.

تحوّلتُ ليوم خريفي ؛ يغمرني الرّضا والطّمأنينة..وفجأة تقودني وساوسي وظنوني نحو مغاور الاِنكسار والهزيمة..صدّقيني لو قلت لك أنّي أقاومها.

قبل أن أنسى..أخبرك أنّنا أفطرنا على الطّريق فقد اعترض الحافلة شباب من الهلال الأحمر الجزائري، فنزلنا جميعا ضيوفا عليهم..لن أسهب في وصف كرمهم فمائدة الإفطار كانت باذخة بحق..لم أقو على الأكل رغم إلحاح ولدي..كان يضع اللّقيمات في فمي رغما عنّي، بينما تحدّق الأعين فينا مستغربة هذا المشهد النّادر حدوثه، وخاصّة في مكان ساحر كهذا، حيث تنتشر أشجار النّخيل على مرمى البصر..

تزيّن حمرة الغروب صفحة السّماء..اختارت الرّمال السّكون..

لكأنّها كانت ترحب بالضيوف على غير عادتها قبل أيّام..كانت ساعة مسروقة من حلم بحق.

أستسلم لمتعة النّظر إلى الخارج من خلال النّافذة ،متأمّلة الطّريق والتّضاريس الّتي تتابعت، وتنوّعت من رمال ونخيل وصفرة طبعت الأفق في بداية الرّحلة، ثمّ تحوّلت المعالم إلى خضرة وأشجار وظلمة أضاءتها أنوار بعيدة ،هي قرى وبلدات لا يظهر منها سوى أضواؤها..أستسلم لمتعة المشهد ثمّ تعيدني أوجاعي المقيتة إلى أرض الواقع، وقد زادت الجلسة غير المريحة من عذاباتي.

أتساءل أحيانا لماذا مرضت الآن بالذّات..؟هو مجرّد سؤال، فقد اجتزت الكثير من المحن وانتصرت عليها بامتياز..هل لأنّي أضحك كثيرا رغم نوبات الحزن الّتي تجتاحني؟ أو ربّما عندما صارت السّعادة على مرمى حجر منّي؟ فقد كبر الأولاد كفاية لأختار لي حياة أخرى تليق بي وبهم.

أنا يا صديقتي منذ افترقنا مثل آلة موسيقية ،تجتاز روحي في لحظات كلّ المشاعر،تعزف نوتات الحزن والفرح،الهدوء والصّخب،تهيم في الملكوت ثمّ تعود متأسية إلى الأرض. تغوص في بئر الإنطواء السّحيق وتعود بعد أن يكاد ينساها الآخر لتذكّره أنّها تدرك تماما كيف يكون الجنون.

كانت السّاعة الثّانية صباحا عندما توقّفت بنا الحافلة لينزل بعض الرّكاب في مدخل مدينة **باتنة** عروس **الأوراس**.أبطأت روح طيّبة عند مقعدي ومدّت لي يدها مسلّمة ،فتاة في عقدها الثّاني تقريبا، جميلة ،شديدة النّحافة، إبتسمت لها عندما شاهدتها تبتسم لي ثمّ مددت لها يدي بدوري، لكنّي ضحكت لها بكلّ ما أملك من حب عندما حدّقت في وجهها الملائكيّ وعرفت أنّها من ذوي الاحتياجات الخاصّة..لقد توقف الزّمن معها عند الطفولة: أجمل مراحل العمر..أن يختارني مخلوق نقي مثلها من دون الخلق الّذي شاركني السّفر وصاحبني فيه، لتسلّم عليّ وتهديني ابتسامة بريئة لم أر مثلها..هل يعني هذا أنّ الله يحبّني..؟

قبّلت يدها السّاحرة فعاملتني بالمثل وقبّلت يدي..نزلت من الحافلة فنزل قلبي معها..لعلّها إشارة السّماء إلى أنّ كلّ شيئ سيكون على ما يرام ؟ بقيت كيلومترات قليلة ونتوقّف لأجل السّحور يا صديقتي. أتشجّع كي لا يقلق الولد علي، لكنّني أعاني الأمرّين..أشغل أذني وكلّ حواسي بالإنصات إلى حديث السّائق ومساعده بالأمازيغية..أحاول إلتقاط بعض الكلمات لكنّهما ماكران..يسرعان في الحديث كأنّهما يشقّان الكلمة نصفين، أحدهما ينطقانه والآخر يخبّئانه لقادم الأيّام..عبثا حاولت فهمهما إذ لم أفكّ غير بعض الرّموز وبقي الغالب مستعصيا على فهمي. رفض أبي الأمازيغي تعليمنا إيّاها مكرّرا على مسامعنا كلّما دعته الضرورة لذلك :

ـ نحن أمازيغ عرّبنا الإسلام!

ليته فعل ،فأنا أعشق الغناء **القبائلي** و **الشّاوي** لكنّي لا أفهمه،إلاّ ما كان على العموم. أليست تلك اللّغة أو اللّهجة جزءا من الهويّة؟ فكيف نرمي بها وراء ظهورنا ،ونهملها، ولا نعطيها حقّها من الاهتمام؟ كما أنّ التعصب لا يخدمنا في جميع الظّروف بل يعمّق الهوّة بيننا..أمّي عربية وأبي أمازيغي،ولو لم يكن زواجهما متناغما لما صمد أكثر من خمسين عاما..عندما خضعت لعملية استئصال ثديي في **تيزي وزو** المدينة الفاتنة بكلّ مظاهرها الطبيعية والعمرانية ،وأحاط بي الأطبّاء يومها..لم أفهم مّما كان يدور من حديث بينهم إلاّ ما كان باللّغة الفرنسية، وعندما وقعت في الغيبوبة، وكانوا يعملون على إيقاظي وإسعافي حريصين على ألاّ يفقدوني..تحدّث إليّ أحدهم بالامازيغية، لكنّي عجزت عن الردّ ،رغم أنّي سمعته، وفتحت عينيّ لأراه لأنّي لم أفقه حرفا ممّا تفوّه به، إلى أن صرخت بصوتي المتألّم الضّعيف:

ـ لا أفهم ما تقول! لا أفهم القبائلية..

طبعا قلت كلماتي تلك باللّغة الفرنسية..

دمعت عيناي،وأشاح ذلك الطّبيب بوجهه عنّي،وهو يقول بالفرنسية:

ـ هل أنت بخير..؟

كنت حزينة بعد أيّام أيضا، لأنّي لم أفهم كلام العجوز الّتي قبّلتها ،وتمنّيت لها السّلامة قبل أن أخرج من المستشفى تاركة إيّاها على سرير المرض،لا أعلم إن كانت نجت أم قضت هناك؟ يداعبني الكرى وتصرّ نيران الألم على إحراقي، وكلّ شبر منّي يتلظّى،هل أقوم منتصبة بجانب مقعدي؟ أشاور عقلي..أرمق ولدي النائم في المقعد خلفي، وأحرص على عدم اِزعاجه بعد أن كحّل النّعاس عينيه بصعوبة..حجز لي مقعدين في مقدّمة الحافلة حتّى أكون أكثر راحة..سخرية!..هل من كانت في مثل وضعي تقطع كلّ تلك المسافة الّتي تكاد تتجاوز الألف كيلومتر في حافلة؟!

حسنا سلّمت أمري للقدير ،فهو الّذي يحسن التّدبير.

توقّفنا الآن حبيبتي..سننزل لتناول السّحور، ومن ثمّ نعود لنواصل سفرنا، لذا سأتركك راجية أن يجمع بيننا لقاء في رسالة أخرى لو كُتبتْ لي الحياة.

صديقتك

منال

لم أنتظر طويلا كي يصلني مكتوب **منال**. إنتصف الشّهر الفضيل،وبدل أن أسارع إلى مطبخي كعادتي مهابة أن تغلبني ساعات اليوم، فلا تكفيني لأعدّ ما لذّ وطاب للصّائمين، اتّجهت صوب كرسيّ الهزّاز في حديقتي ،أضمّ مكنونات صديقتي إلى صدري،ارتميت عليه أجالس الذّكرى والحنين برفقتها.

كتبت لي صديقتي في رسالتها

وصلت إلى حيث ودّعتني آخر مرّة شقائق النّعمان،وغابات من أشجار الزّيتون العاقر الّتي أذهلني هرمها.. ليست كتلك الّتي في حقولنا..وجدت بيادر القمح الّتي تركت قد استحالت إلى اللّون البني الفاتح ،توشّح بصفرة تحاكي صفرة الشّمس.. تستدعي منجل الحصّادين إلى حضرتها، وأشجار الصّفصاف والصّنوبر على جنبات الطّريق تظلّل صناديق حبّ الملوك والتّوت والفراولة .. يقتنيها المسافرون المارّون ممّن يجدون في تذوّقها لذّة تغنيهم عمّا سواها على مائدة الإفطار.

حرصت على البقاء مستيقظة، لأنّني كنت بحاجة لبحر من الخضرة ،أغمس فيه بصري، وأنعش به روحي، وأسعد به قلبي ..أبدّد بعضا من الأسى الّذي لا يغادرني قبل أن يصدمني ذلك اللّون القبيح الفاقع، حيث غرفتي، وكتبي، وذكرياتي، وخيبات لا تحصى ،ولا تنسى لأنّها على الدّوام حاضرة متجدّدة..أركض منذ شهور دون توقّف ،رغم ما يتّسم به فعل الرّكض من السّوء،لأنّه يجهد صاحبه في النّهاية،لكنّني زرت أجمل مدن الشّرق والشّمال الجزائري أثناء رحلة البحث عن العلاج..يعود الفضل لإخوتي في ذلك، لذا تجدينني ممتنّة لهم.

هنا أستوقفك يا صديقتي، وأطلب منك أن تضعي نفسك مكان مصابة بهذا الدّاء..فلا يشعر بالألم سوى صاحبه..يكون في البدء في مرحلته الأولى حيث بإمكانها النّجاة..لكنّها على عكس ذلك تكتوي بنار الإنتظار عند عتبات المستشفيات، مترقّبة موعد فحص قد يمتدّ لأكثرمن شهر، تنشب أصابع هذا الدّاء أظافرها في عضوها المصاب وجسدها المنهك خلاله،

فينتقل عندئذ إلى محطّة أخطر،وعندما تصل إلى سرير الفحص،تتغيّر الخطّة، وتعاد كلّ التّحاليل والأشّعة من جديد، وتأخذ طبعا موعدا آخر، وهكذا تزحف نحو الهلاك رويدا رويدا إلى أن يقرّر طبيبها ذات يوم بعد أن يئس من الشّفاء إرسالها إلى بيتها ،موصيا أهلها بالإعتناء بها، وتحقيق رغباتها الأخيرة، لأنّ لا أمل بقي في تعافيها بعد أن خطّ الفناء على وجهها كلمته الأخيرة ،لأنّ الجميع أثناء الوقت المتبقّي لها سينشغل بلون وجهها..هل تغيّر فأصبح أخضر يميل من حين لآخر للسّواد..؟

من جهتي..كنت مطمئنّة أغلب الأحيان..أسرق الأحلام من الطّريق الّذي تسلكه سيّارة أخي..أقتنص ومضات الفرح من منظر طبيعي أذهلني، فيأبى أخي إلاّ أن آخذ صورة لهذا الأخير لأزيّن بها هاتفي.

بعيدا عن أولادي في هذا الشّهر الفضيل، أقضي الأيّام بين أهلي عندما لا أكون في المستشفى أو في الطّريق..حاولت الصّوم، فنجحت بعض الأيّام ،وفشلت في أخرى إذ كدت أهلك.. أجد صعوبة في التّناغم مع أهلي، فأعوام غربتي جعلت منّي بومة تنام النّهار، وتبيت اللّيل صاحية، وإن حدث واستيقظت باكرا فإنّي ألجأ إلى مكان قصيّ في الطّابق الثّاني من بيتهم غير مكتمل التشييد، فلا نوافذ ولا أبواب تحجب السّماء ونور الشّمس عنّي..أتمدّد على فراش وضع لي هناك خصّيصا..ألوذ به بعد عناء الوقفة الطّويلة في الشّرفة المطلّة على دور هذا الحيّ الجديد المتناثرة هنا وهناك..لقد تفنّنوا في تزيين واجهات بيوتهم، ونسوا أن يزرعوا أشجارا أو ورودا كلمسة راقية تضفي الحياة والجمال على تماثيلهم المسكونة،.أمّا ليلا فإنّي أوصد باب غرفتي لأريح روحي الهائمة من ضجيج الأحاديث والضّحكات الّتي يحدثها المحيطون بي، لكنّني أحتاج للكتابة.يطيعني قلمي في الأسطر الّتي أخطّها إليك، ويسهب في الصّفحات الّتي أرسلها لجواد..لا تستائي يا **نوريتي** فكما النّار فاكهة الشّتاء الشّهية كذلك الشّوق فاكهة الصّبابة العتيّة ،وحرقة أحدثتها أمنيات بعيدة كستها غبرة..عزفت عليها قيثارة الزّمن الحزين.

قال لي أحدهم:

ـ أنتنّ النّساء تكتبن ندبيات وليس روايات..لماذا تكثرن من الشّكوى والبكاء؟

احتجّت فيّ كلّ تجارب سنين عمري كأنثى، لكنّي اكتفيت بالقول:

ـ خذ صفحات حياتي..واقرأ ثمّ اخترلي رواية منها أخطّها لعلّها لن تكون ندبية كما تفضّلت؟!

سأصف الفرح ساعة ألتقيه يا صديقتي.

خرجت أمس في نزهة كحلم ..تركني ولدي، ومضى مع صديقه يرقبني من بعيد..مدينة **قالمة** ساحرة..تفوح روائح الماضي من كلّ زوايا شوارعها ،وأحيائها ،وحدائقها العامّة..لا أحد يحدّق فيك وأنت مارّة بجنبه أو جالسة بقربه أو بعيدة عنه،سواء كنت عابسة ،أو ضاحكة ، أو منشغلة بالقراءة، أو حتّى نائمة..هنا يبحر الكلّ في التّاريخ ،والماضي ،والمستقبل..حياة لا يتقرّى حسنها إلاّ أصحاب المكان وأهله..إنّها **قالمة** العبقة بتاريخها الزّاهي الطّويل.

تعبت من التّجوال ، فأنا لم أفعلها منذ زمن..اخترت أن أستريح في المسرح الرّوماني، فلا ضجيج فيه غير حنين، وعبق، وفيض من المشاعر ينبعث من كلّ حجر ودرج لامسته أجيال من الأرواح..مازال وقت السّحر بعيدا، لكنّ ساعة التّأمّل لم تدم طويلا،إنضمّت إليّ سيّدة خطفتني من عالمي، حين جلست بجانبي، وأمالت رأسها عليّ.

قلت في نفسي:

ـ هل تشبهني؟ ربّما لديها ما ينزف داخلها منذ وقت طويل ولا تجد من يصغي إليها..

استأذنتني وتناولت ورقة كنت أخطّ عليها ما يجول بخاطري..قرأتها ثمّ قالت لي:

ـ كأنّك تكتبين عنّي..وجدت نفسي تتمدّد بين سطورك..

قلت لها:

ـ يسعدني أنّي وصلت إليك من خلال ما أكتبه رغم أنّي لا أعرفك..لعل التّجارب الّتي تقوّينا أو تهدمنا تتشابه لدينا جميعا..!

أخذت نفسا عميقا، ثم قالت لي:

ـ كنت أرقبك منذ اللّحظة الّتي قعدت فيها على المدرّج منذ ساعة تقريبا، شعرت أنّك لست على مايرام..كنت أحدّق فيك من حينها، ثمّ اقتربت منك لأقول لك: لا تحزني ، فلا شيء ولا أحد يستحقّ حزنك ..! لا تفعلي مثلي ،لا تدعي ساعات العمر تفلت منك في محاولة الانسجام مع الأوضاع الّتي تعيشينها، أو إقناع الأشخاص الّذين تقابلينهم، سواء كانوا من العابرين في مسالك حياتك أو هؤلاء الّذين جمعتك بهم الأقدار ماكثين لا سبيل لحذفهم من دفتر الحاضر والمستقبل.. سيتعوّدون على بلادتك كما يرونها من منظورهم، وسيدفعهم غباؤهم إلى الزّيادة من حدّة الضّغط كلّما أوجدت مساحة للتّوافق معهم.. سيختبرون تحمّلك إلى أقصى ما يمكنهم الوصول إليه من الشّناعة، لأنّهم بكلّ بساطة تعوّدوا الإستقبال بدل الإرسال، والتّمتّع والتّدلّل بدل الاحتواء.. ستجدين نفسك تحاربين الفتور.. تنسجين الفرح بخيوط باهتة حيث تعشّش الأحزان، وترسلين الضّحكات حيث يعزف لحن البكاء.. ستمسحين الدّموع ولن يروا غير هالات سوداء أحاطت عينيك من سهر وتعب..لن يروا في وفائك غير ضرب من الحماقة..ستخلصين، فلن تري من الطّريق غير الّذي يسلكون، لكنّهم يحيون في كلّ طريق يُفتح لهم.. لن تكوني غير اسم مكتوب على قائمة الإنتظار، تحترقين ولا أحد ينتبه لما يحدث معك..

فاجأني أنّها قرأت في عيوني، وتفاصيل جسدي المتعب أهم محطات حياتي، فتلك حقا كانت حياتي،لكنّي سألتها:

ـ ماذا أفعل إذن؟

نهضت تريد الإبتعاد، ثمّ قالت:

ـ كوني أنت..لكن ليس أنت الآن..اختاري ما يريحك وتمسكي به.. لا تسمحي للآخرين بالإستثمار في مساحاتك الفارغة..الفضاء الخالي يغري الإنتهازيين..

إبتعدت تاركة إيّاي أبتسم في داخلي..قلت في نفسي:

ـ فات أواني..لولا سمعتها بنتاي..

تنهّدت وخاطبت ذلك الكيان الّذي يسكن بين جوانحي:

ـ ما أشقاك يا قلبي..يا من ضيّعت موعدك..أخلفته..شغلتك عنه معارك وأشباح..هل ندمت؟ما أتعبك! وأنت تتعلّق بجناحي حلم تلوّنهما بشتّى الأماني..تلهث باحثا عن ذات لم تكن ملكك يوما في أزقّة الضّياع..تكتب عنها بين صحوك وإغفائك..تهذي بها فلا تتنعّم بالكرى كبعض النّاس ولا أنت تمارس اليقظة كهؤلاء الّذين يدركون الصّبح..يسابقون الشّمس وهي ماضية إلى مخدعها..يضعون نقطة النّهاية عند آخر يوم كان كلّه حياة..

حديث حبّي إليك لو بدأته ذو شجون، يا صديقة عمري..!

هل يُسمع الرّجاء وفي القلب تخفق لك ذكرى لا تزول حتّى ينتهي عزف قيثارة العمر..؟

لو أخلصوا لي ما أخلصوا لي مثلك..لو نصحوني ما نصحوني مثلك..تنتظرين معي نهايتي..أشفق عليك.. فأنت لا تحتجّين، ولا ترسلينها ولو إشارة بأنّ **هذا كثير عليّ يا منال توقّفي فأنت تعذّبينني معك..** لن أضعف ولن أتوسّد الرّماد ما دمت معي يا بئري العميق.

يعرف **جواد** أنّك تنافسينه في حبّك لي..أشعر أحيانا أنّه يغار منك..لم أخبره أنّي أخفيته حتّى عنك.. غضبت منه مرّة فكتبت له قائلة:

ـ خداع..! كلّ مافيك خداع..سراب على طريق صحراوي طويل من غير التواءات..يعانق الأفق مثلما تعانق ثوبك ذاك،

أكتب ما شئت من القصائد ثمّ ادّع أنّي الملهمة.. لن أصدّقك!

كتب لي رسالة قصيرة قائلا:

ـ هذا اتّهام خطير سيّدتي..صديقتك تلك تظلمني..تتقصّدني في كلّ حديث يدور بينكما تسرقك منّي..هي لا تعرف أنّك لي وأنّي لا أخدعك لكنّها تحسن زرع الشّكّ في بستان علاقتنا.

كتبت له:

ـ صديقتي مرآة لا تكذبني أبدا..رأتني عندما تطلّعت إليها ،واكتشفت من تقاطيع وجهي كم أنّك تحزنني..!

طبعا لم يكن هذا فقط مضمون رسالتي. يوما ما سأرسل لك بعضا ممّا كنت أخطّه له.

سأتوقّف عند هذا السّطر حبيبتي ، فالعيون أتعبها السّهد، والرّوح أنهكها الوجع..تتعلّق بقنديلك المضيئ يلوّح لها من بعيد أن **اِستمرّي**.تصبحين على خير **نوريّتي**.

صديقتك

منال

بدونك..أنا أرض بلا عشب..قاحلة..أنهكها الجدب.

بدونك..أنا سماء نامت عنها الشمس..اِنطفأت قناديلها

أطبقت عليها ظلمة الليل..فلا قمر ولا نجم.

بدونك..تائهة عيناي في الفراغ وكل ما حولي سراب..وهم.

أحبك يا مهجتي.. يا ضحكة القلب.. فلا حبيب ينافسك

محرّم في حضرتك الحب.

العيد والرّسائل

مرّت أصباحات الشّهر الفضيل الباقيات من غير أخبار عن **منال**..حلّ العيد وحلّت معه الأمنيات بأن تكون صديقتي على ما يرام..لم أصغ إلى نبض قلبي الّذي حدّثني:

ـ ربّما رحلت منالك إلى الجهة الأخرى..مع تباشير العيد..؟

بعد أسبوع عدت إلى ركني المفضّل، وفي يدي رسالتها..قبّلتها بشغف بعد أن اطمأنّت نفسي إلى أنّها مازالت مقيمة على ضفّة حياة ،ربّما أكون أنا القريبة فيها منها.

كتبت لي صديقتي في رسالتها:

نوريّتي حبيبتي..أكتب إليك كي أعايدك ،وأشرح لك، وأصف أحوال العيد عندي.

العيد عندي شتاء..هل تعرفين كيف يكون الشّتاء..؟

وقعت في ورطة يا صديقتي..لم أعد أحسن التّحضير له ،ولم أعد أقوى على ذلك أيضا.

كنت من قبل أخزّن الضّحكات، والقبلات، والتّحيّات، وقبلها أعدّ صدري للأحضان، ثمّ من بعد ذلك أجدّد الحياة في عشّي، فأغسل تلك الجدران ،وألمّع الزّجاج، والمرايا..أعيد ترتيب وتلميع كلّ الأثاث في الأخير..أصنع لكلّ حبيب في عشّي حلواه المفضّلة..شمعة العيد انطفأت عندي يا صديقتي ، فلم يبق منه سوى الصّلاة..من بعدها فطور الصّباح..وجبة الغداء، ونوم طويل لا يوقظنا منه غير العشاء.

آه نسيت..أتّصل بأمّي، فتمرّر لي الإخوة والأخوات، من بعدها تسكن الرّنّات، وتموت الكلمات فنصبح على غد آخر،هو نسخة من الغد الّذي قبل العيد الماضي.

عدت من رحلتي قبل العيد بأربعة أيّام..لم يعد لديّ جلد على جرعات الكيمياوي المعتادة وعلى غسيل الكلى..كنت منهكة، ولكنّي أحسبني محظوظة أيضا إذ كان الإياب هذه المرّة بالطّائرة.. وجدت الفتاة المدلّلة الّتي تركت ورائي قد أصبحت مدبّرة منزل بامتياز، فاطمأنّت نفسي أخيرا إلى أنّ رحيلي عنهم لن يضرّ بهم كثيرا كما خشيت في أوّل الأمر. نسيت أن أخبرك أنّي لأوّل مرّة أنسى صندوق مجوهراتي.. بقي في خزانتي، فلم أتذكّره إلاّ بعد أن أقلعت الحافلة.. كنت قلقة من أن تمتدّ يد أحدهم، فيفتحه بطريقة ما.. حينها لن يجد فيه غير رسائل جواد لأنّي أودعت مجوهراتي لدى أختي أمانة تحافظ عليها لغاية موعد زواج البنتين ، فتقسّم ما تركتُه بالتّساوي بينهما.

لم أظنّ يوما أنّ الفضول المستحكم فينا كبشر، سيجعل يد ابنتي تمتدّ إلى أغراضي تفتّشها.

احتطت طيلة عمري، وعلّمت الأولاد أن يحترموا خصوصيتي، إلاّ هذه المرّة ياصديقتي، فقد وجدتها اقتحمت أسراري وقرأت رسائلي كلّها، ثمّ كانت في انتظاري لأشرح لها كيف أنّي خنت والدها كلّ هذه السّنين.. لم تقرأ الرّسائل جيّدا صديقتي.. لم تر العذاب ممدّدا على السّطور.. لم تقرأ تلك القصائد، ولا هالها عدد الأعوام المرسوم على الورق..لم تنظر إليّ ولو مرّة عندما كنت أشرح لها كيف أنّي أُرغمت على الزّواج بوالدها..كنت أسألها في كلّ مرّة:

ـ هل قصّرت معكم حبيبتي..؟ هذا قلبي لا سلطان لأحد عليه..

صدمتها أكثر عندما اعترفت لها أنّه الرّجل الّذي أحببت طوال عمري: **حانت ساعة الحقيقة..فلا مجال لحفظ الأسرار والغموض.**

هكذا حدّثت نفسي ، فأخبرتها كيف أنّي لولا المرض لكنت استعدت حياتي بعدما كبرت هي والآخرين كفاية ليتفهّموا رحيلي عن والدهم..كانت جالسة بقربي على حافّة السّرير، وكنت أمرّر أناملي على شعرها برفق وحنوّ بينما، أتحدّث إليها أنشد السّلام معها..أمسكت بيدي، ورمت بها بعيدا، وقامت منتصبة.. لم تكن ترى فيّ غير تلك الخائنة.. لم يهمّها شريط حياتي

الّذي حفظته، فقد كانت خيانتي لوالدها كلّ ما يشغلها ساعتها ،وكلّما حدّقت في وجهي الهادئ المستسلم لواقع اللّحظة حقدت عليّ أكثر..هل كان عليّ أن أخجل..؟ أم أنّني أخطأت عندما لم أرحل وأتركهم دون أن يدركوا الحقيقة..؟ كانوا سيتّهمونني بالإهمال وبخداعهم حينها..ليلتها تحوّلت إلى نجمتها الآفلة..تناست أنّي أحتضر، وعاملتني بكلّ ما تملك من قسوة..من جهتي، على قدر ألمي كان يقيني أنّها لن تحزن يوم أغادر هذه الدنيا، ستكون مشغولة بالحقد على أمّها الخائنة.

يؤلمني حزنها يا صديقتي، لكنّني خدمتها من حيث لا تدري..حدّقت فيّ بعينيها الملوّنتين، وقلت في نفسي:

ـ يا لإتّساعهما..!

قالت لي:

ـ ألست أنت من نصحتني ألاّ أحبّ؟ فكيف سمحت لنفسك به في الخفاء؟ أتذكرين ذلك اليوم الّذي أخذتني فيه بين ذراعيك بعد أن كنت أمسح دمعك الّذي امتزج يومها بدموعي الغزيرة لمّا شاهدته ينهال عليك بالصّفعات..؟ **ألم تقولي لي حين يغيب الاحترام والخوف على المشاعر استعدّي للنّهاية فلا ودّ يدوم من غير حرص وحذر وصدق..ستعشّش الغربان داخلك من غير حبّ أحدهم، لكنّ ذلك أهون من أن تخسري كبرياءك واحترامك لنفسك.. اكتبي عن الحبّ لا ضير..أحبّي الشّجر والحجر وكلّ جمال ترينه في هذا الوجود فهو فعلا يستحقّ ، وإن شعرت بالحاجة لذلك تخيّليه كما تفعلين في كلّ مرّة ملاكك الحارس ،ونامي بعدها لعلّ الغد يأتي بملاكك الحارس فعلا..؟** استوعبت درسك يومها يا أمّي..! فزرعت الطّريق إلى قلبي أشواكا حتّى لا يلامسه أحد..لم أكره ولم أحبّ ،بل لم أعد أرى غير دراستي ومستقبلي..هل عليّ أن أسامحك الآن؟

لم تنتظر ردّي..خرجت من الغرفة ومن يومها لم تدخلها..لا تكلّمني ولا تسأل عنّي..من جهتي

عذرتها، ولم أحاول استعادتها، فقريبا سأرحل،فلا أريدها أن تفقدني مرّتين.

لكلّ منّا يومه الّذي يحبّ فيه وقصّة ابنتي قادمة..فهي ليست استثناء..أغلب الظّن أنّني لن أشهدها..أرجو فقط أن تتذكّرني حينها..وتسامحني.

عندما قابلت **جواد** كانت أختي على وشك الزّواج، وكان عالمها يوشك على الإنهيار هي الأخرى، فنحن نعيش في مجتمعات لا يفرّقها اختلاف الدّيانات والمذاهب بقدر ما يفرّقها التّعصّب للقبيلة ويحكمها العرف،و التّقاليد، وقد فعلوا معها ما فعلوه معي قبلها. رفضت أسرتي تزويجها من الرّجل الّذي اختارته، لأنّه لم يكن منحدرا من **المرابطين**. العرف عندنا لا يسمح بأن تمتزج دماؤنا بدماء غيرنا .

عاندت وأصرّت، وأضربت عن الطّعام حتّى كادت تهلك، لكنّها استسلمت أخيرا بعد أن أيقنت أنّ ذلك الجدار لن يخترق أو يثقب.. بقيت حزينة لعدّة شهور، ثمّ لم تبد أيّة مقاومة أو اعتراض حين وافق إخوتي على أوّل من تقدّم إليها، دون مراعاة لعدم التّكافؤ الثّقافي والعلمي بينهما، فقد تخرّجت وقتها من كلّية الحقوق، بينما كان هو مقاولا توقّف تعليمه عند عتبة المستوى الإعدادي ،واستثمر في الإسمنت والبناء ..زيادة على فارق العمر الشّاسع بينهما إذ كان يكبرها بخمسة عشر عاما، لكنّه كان غنيا وهذا ما أهمّ إخوتي ..قالوا لها:

ـ ماذا يفيدك مستواه العلمي والثّقافي؟ أين المشكلة إن هو يكبرك ببضعة أعوام؟ ستكونين طفلته المدلّلة فالرّفاهية والمال سيحقّقان لك السّعادة ولن تحتاجي إلينا...

هكذا هي القسوة **يانوريّتي**، لا تحتاج لأن تكون فعلا مباشرا أو قولا جارحا..هي سلبت إرادتها في اختيار شريك حياتها، بينما لم يضطرّوا في حالتي إلى التّحجّج بأصله الّذي لا يمتّ بصلة للمرابطين، بل كان الأمر أكثر تعقيدا، فهو ليس جزائريا..لم يتوقّفوا عن تأنيبي على ذلك حتّى صرت أتجنّب الجلوس حيث يجلسون، كي لا يذكّروني بجريمتي.

أعود إلى أختي، لأتذكّر عندما استسلمت ليلة عرسها للكرى بعد أن غنّت طويلا معنا..لديها

يا صديقتي صوت شجيّ، ونفس طويل يليق بلون **الصّراوي** أو **الشّاوي**، ستسحرك حتما بحنجرتها الذهبية لو أسعفنا الوقت ،واجتمعنا ثلاثتنا يوما ما..استسلمت للكرى وعيناها لا تغادران الفستان الأبيض الأنيق الّذي أرسله عريسها قبلها بيومين..كان معلّقا على باب الخزانة الّتي تركناها مفتوحة لأجله..بدأت تحتقر زوجها ،وتقلّل من شأنه منذ ليلتها الأولى معه، ولم تتوقّف عن ذلك لحدّ اليوم..من جهته، هو يدلّلها ويتغاضى عن قسوتها معه..لعلّه يحبّها حقا..

أشعر بالخواء داخلي فجأة ،لعلّ هذا إشارة للتوقّف عن الكتابة اللّيلة، والتّرحيب بنعاس بدأ يداعب جفني..هو يعبث بي كما اعتاد لأنّني ما أن أخضع لسلطانه حتّى يبتعد سريعا. أتخيّله يضحك وهو يقول لي هازئا:

ـ ها قد سخرت منك اللّيلة أيضا..! فأنا كالزّئبق ما إن تتصوّريني بين يديك حتّى أفلت..

لا تنسيني بالدّعاء **نوريّتي.**

أنا لا أخشى ظلمة اللّيل يا ربُّ.. ينجلي سواده بقنديلكَ الّذي يسبق خطوي..إنّ صفاء روحي وحبّي لكَ ينثران النّور داخلي وحولي.

صديقتك

منال

تخيّلوا كيف أنّنا صرنا ننسى أسماءنا وأسماء الآخرين..

تخيلوا كيف أنّ الوقت يمضي بنا بينما نكتب كلمات مكرّرة..نقصد بها معاني مختلفة.

تخيلوا كيف أنّنا لم نعد نلقي بالا لكلّ الرّكام الّذي كان لوقت قريب يجثم على أنفاسنا..نحن فقط نحاول أن نكون بخير..هذا كل شيء.

قناديل النسيان

أحدثت رسائل **منال** تغييرا كبيرا في نفسي، واستولت صاحبتها على حيّز مهم من اهتمامي..صرت أرتّب مواعيدي آخذة بعين الإعتبار وجودها في حياتي، فلا يمكن أن أمضي أكثر من أسبوع في مكان أزوره حتّى وإن كان بيت أهلي..يشتدّ توجّسي كلّما طال انتظاري لها.

كتبت لها:

تأخّرت مكاتيبك فاستولت عليّ الهواجس والظّنون يا صديقتي.. ليتني أظلمك على أن يصيبك مكروه، فأنت نسيمي العليل الّذي يداعب خدّي كلّ صباح..أتصوّره قبلاتك الدّافئة عليه..أنت الشّمس الّتي لا تشرق ولا تغيب،دائمة الحضور في عالمي تزاحمين الجميع. سأعاتب الغياب ولن أعاتبك أنت، فلا تبخلي عليّ بهدوء بال أحظى به ساعة أطمئنّ عليك.

أنتظرت لأسابيع، مرّت ثقيلة في صيف ألهبتنا حرارته الّتي صارت تمتدّ لأكثر من ثّلاثة أشهر، لكنّي لم أصيّف على الشّاطئ مثلما دأبنا عليه منذ أعوام، فقد خشيت إن غادرت إلى المصيف أن تصلني رسالة **منال** فلا تجدني..استولى طيفها على كياني..لا يغادرني طيلة اليوم حتّى صرت أحدّثها، فيسألني أولادي:

ـ ما بك ماما؟ صرت غريبة الأطوار مؤخّرا..!

أكتفي بالقول:

ـ أنا قلقة على صديقتي..أنتظر رسالتها الّتي لا تأتي..

بعد شهر تناولت بوح صديقتي من يد ساعي البريد، وأنزلته منزل الحبيب على صدري، ونسيت الجميع في تلك الصبيحة لأسارع إلى ركني المفضّل،فتحت الظّرف بشغف أنهكه الانتظار.

كتبت لي صديقتي في رسالتها:

أنسج جمالا ساحرا برأسي الأصلع يا **نوريّتي** ،لا أضع شعرا مستعارا ،ولا أرسم حواجبي، تعرفينني أكره الغشّ حتّى في الّذي يؤذي صورتي، فلطالما كنت مختلفة في لباسي وطريقة ظهوري أمام الآخرين ، ولعلّ هذا ما استرعى انتباه **جواد** يومها، وجعله يقترب منّي ..كنت منذ قليل أتجوّل أسفل الوادي.. وأعجبت قبلها بانعكاس صورتي على صفحة ماء الغدير الّذي يجتاز جنّة أسرتي..أنا أستمتع بهمس الرّيح وحفيف أوراق الأشجار في أذني..عايشت هناك وحيدة جنون طفولتي ومراهقتي..أضحك بصوتي القوي الّذي تعرفين حين أتذكّر حبّة التّين الّتي وجدتها قد نضجت على شجرتنا العجوز ذات خريف..لم أقو على أكلها من فرط سعادتي ،فبقيت أحملها على راحة يدي كجوهرة، وأصرخ بأعلى صوتي كي تسمعني أمّي وأخواتي الجالسات حول قهوة المساء في السّاحة الخلفية لبيتنا الجبلي..لم أشعر بنفسي حين كنت أسابق ظلّي إلى أعلى التّلّة حيث كنّ.لم يفهمن ما كنت أقوم به من إشارات وكلّي يهتف:

ـ وجدت حبّة تين...أنظرن!

ضحكن كثيرا عندما وصلت ورحت أعرض عليهن حبّة التين بفرح، وسألتني أمّي مازحة:

ـ لماذا لم تأكليها، وتحمّلت عناء إبلاغنا بهذا الاكتشاف العجيب المدهش..؟

حينها شعرت بالحمق، وقلت في نفسي:

ـ إي والله صحيح...لماذا لم أتناولها مباشرة بعد قطفها..؟

أتعرفين **نوريّتي**؟ لو خُيّرت بين أن أكون أنا أو شجرة ،لاخترت أن أكون تلك الصّفصافة الّتي عانقتها قضبان داليتنا،فزيّنتها كعروس بعناقيد العنب الأخضر حتّى قنّتها..محظوظ من تذوّقها..هي في الحقيقة مصدر للتّأريخ في أسرتنا، فصرنا نقول ولد عمّي الأصغر عام

الصّفصافة، وسافر عمّي الأوسط عام الصّفصافة، فقد كانت سببا في بتر ذراع هذا الأخير أيضا عندما سقط من أعلاها ،وهو يقطف عنقود عنب لأجل زوجة أبيه الحامل،الّتي هدّدته بالمبيت دون عشاء إذا لم يأتها بالعنقود ،الّذي توحّمت عليه..أكلت العنب ممزوجا بدماء ،وألم عمّي.. بعدها بشهور أنجبت وليدها، وبترت ذراع عمّي الّذي لم ينتظر طويلا، فغادر البيت والوطن مختبئا في مستودع شحن إحدى السّفن التّجارية إلى فرنسا.. كان عمره آنذاك سبعة عشر عاما، ثمّ لم نره إلاّ بعد عقدين من الزّمن،ولم تكن الصّفصافة هي المذنبة طبعا.

اتّفق الجميع على مهادنة **منال** الثّائرة يا صديقتي . حتّى على خوفها من الموت كنهاية محتومة . بعد أن فشلوا في اقناعي بإجراء عمليتي الثّانية، لذا صارت كلّ أحلامي ممكنة على بساطتها بعد أن صاحبني المستحيل منذ كنت أسند ظهري إلى جذع شجرة الخرّوب بساحة مدرستي، وأطلق العنان لخيال الطّفلة الّتي كنت..سأعود إلى ذلك الزّمن في رسالة أخرى.. يهمّني الآن أن تعرفي أنّني لا أهدر الوقت ما أمكنني..أغتنم الهدوء الّذي تمنحه السّماء، وهذه الطّبيعة الخلاّبة لأواصل كتابة ما تبقّى من روايتي..أو يزورني النّعاس أحيانا فأتوسّد ذراعي وأفترش وشاحي،وأسافر إلى حلم على عزف خرير الماء، وزقزقة العصافير ،وهديل الحمام ،ونقيق الضّفادع.

أكتب كلّ يوم وأجدّ في ذلك، وكلّما تصوّرت أنّي شارفت على اِتمام روايتي تظهر لي أفكار جديدة ويشطح بي خيالي مع مواقف أشتهي ذكرها ووصفها ،فلا يتوقّف القلم..قلمي ثائر مثلي تماما يا صديقتي..أعلم أنّي لن أنشرها مثلما حدث مع غيرها،ستبقى حبيسة درجي،وسأرحل ربّما قبل أن أضع لها نهايتها، رغم ذلك هي هديّتي لك..خذيها ،واكتبي اسمك عليها،سيشرّفني ذلك،ويسعدني أنّ طفلتي الرّابعة ستكون بين يدي من تقدّرها.

أليس عجيبا حالي صديقتي..؟

إستسلمت لدغدغة سرت في القلب،أسعدته أياما،ثمّ بتّ على ذكراها ما تبقّى لي من

العمر،نسيت نفسي وفقدت الشّعور بالوقت، طردت كلّ البهاء والضّياء رغم أنّي لم أرهما سوى في الخيال، ثمّ لم أعد أرى غير ذلك الغامض الأناني..نعم غامض أناني..! لم يكتب لي منذ شهور..وعمري أنا؛محسوب بالشّهور أيضا. لقد شارفت على عتبة موتي،فماذا أفعل..؟ ربّما يصلني منه خطاب فيجدني حينها قد مت. كيف لي أن أبحث عن مجهول تأتيني مكاتيبه من كلّ مكان في العالم ،وأنا لا أملك غير عنوان واحد أرسل إليه في الشام منذ أعوام..؟ كيف يا ترى تصله الرّسائل أو من يوصلها إليه..؟باتت أختي تأسف لأجلي كلّما سألتها:

ـ هل من بريد..؟

فتجيبني :

ـ لا بريد.. ليتك تنسينه..وتهتمّين بصحّتك حبيبتي..

استسلمت ليأسي أمام إلحاحها ،وعملت جاهدة على مسح ذكراه من كلّ تفاصيل حياتي، فصرت مهووسة بوضع المحاذير في وجه أيّ شعور يخالجني ناحيته..أحبس دموعي، كلّما زارني طيفه يعاتبني قائلا:

ـ هل حقا نسيتني..؟

كم كانت اللّيلة الماضية عاصفة بي..لم ترحمني أوجاعي،ولم يرحمني ظلّه الّذي ما إن يبتعد حتّى يعود ليلامس روحي فيعذّبها،ويذكّرني أنّه أوّل وأقسى حرماني.. كنت سأمزّق رسائله لكنّي تراجعت..أعدتها إلى مخبئها الجديد معتذرة له في قرارة نفسي عن جريمتي.

ودّعت ذكراه على وسادتي، ونمت ،وعندما أدركت وجه الصّباح كان عاديا أو خيّل لي..وما إن اِنتصف النّهار حتّى سارعت إلى الاِتّصال بأختي..جاءني صوتها قلقا،لكنّني قلت لها بلهفة قاطعة عليها سبيل السّؤال:

ـ هل تصدّقين حبيبتي أنّني قبّلت وجه الشمس اليوم وكلّي بهجة وحبور لأنّي نسيته تماما..؟

اِنمحى من خيالي..فما عادت روحه تلامس روحي..أنا أحدّث روحي من شدّة فرحي: **هاقد نسيناه..!**

آليت على نفسي عدم الخضوع لضعفي، فأعددت فطور الصّباح ،وقلت لها:

سنستمتع بالقهوة اليوم فقد نسيناه..! وضعت شريطي المفضّل..جاهدت نفسي وقمت إلى غدائي..أعددته لكنّني فقدت شهيّتي منذ مدّة..ما أن أقرب صحني حتّى أصاب بالغثيان لكنّي حدّثت روحي: **نسيناه..!**ألا ترين أخيّة كم كان سهلا اجتثاثه من أعماقي..؟ ها انا الآن أهاتفك سعيدة على غير عادتي..أترين كم أنّ النّسيان نعمة..؟

اِنتظرت هنيهة كي أسمع أختي تتكلّم، ثمّ أتاني صوتها ساخرا :

ـ فعلا ،نسيت يا حبيبتي أن تنسيه هذا اليوم أيضا..أنا وحدي من تتحمّل هذيانك..! أظنّ طيفا بمثل جنونه لن ننساه..عبقري..عرف كيف يأسرك ببضع كلمات كنت كما قال ملهمته فيها..

ثمّ أردفت بنبرة راشحة بالأسف لأجلي:

ـ الفصول تتعاقب يا أختي..تمضي ولا تلتفت وراءها..كذلك أنت..لقد توالت فصول العمر لديك ولم تشعري، فلا تضيّعي القليل الّذي تبقّى بالاِنتظار..سابقي الزّمن واخطفي من النّور بعض البريق فلا تعودي إلى حيث كنت فيلفّك النّسيان..تخيّلي نفسك تحاربين ذاكرتك..تمنّين نفسك أنّ النّسيان صديقك وتكرّرين يوميا أنّك من غير هذا الرجل أسعد..فلو كنت فعلا نسيته..لماذا تتحدّثين لنفسك عنه وتشغلين به عقلك..!؟

هناك قصص تروى، وهناك أخرى يعجز عن حكيها الكلام..هذا ما يحدث لي في قصّتي مع **الشّاعر**..كنت أحاول منذ رسالتي الأولى أن أحدّثك عن هذا الحبّ الغريب الّذي جمعني بهذا الرّجل الغامض، فأنا لا أعرف عنه غير ما أخبرنا به يوم اللّقاء..نقشت صورته في عقلي،لا تغادر مخيالي..الباقي لا علم لي به..عاد إلى عالمه، وعدت إليك ،وإلى عالمنا بعد أن

تمكّن من كلّ حواسي، فصرت أحمل الأسرار في قلبي..أحسن لغة الأرواح في جوف اللّيل،وأخاطب طيفه،وأناجيه ما إن أخلو إلى نفسي..صرت أحبّ غرفتي، فكأنّها معبدي الّذي أؤدّي فيه صلوات عشقي..لقاءان قصيران معه كانا كفيلين بنفيي إلى عوالم أخرى،سلبتني راحتي، وأقصتني عن أسرتي.كنت في العشرين ربيعا.تلك السّن الّتي تؤلمها المحاذير والحرمان. عندما رفضه أهلي صارت مكاتيبه ترياقي الّذي يداوي خيبة الأمل وحرقة الاشتياق..ملأ دنياي فلم أعد أشعر بمن حولي..حملت لهم الضّغينة في قلبي طويلا، ولم يخطر ببالي أن أسأل نفسي يوما:

ـ هل أنا أعيش الوهم أم هي لعبة نلعبها أنا وهو لنكتب أكثر..؟ إذ في العشق كنوز لا يقوى على استخراجها سوى المعذّبون فيه..

كتبت له ذات يوم بلغتي البسيطة مسافرة في خيالي رسالة.قلت له فيها:

بعد التّحية والسّلام من الحبيبة الّتي تنتظرك بالجزائر

سأحكي لك يا قلبي قبل أن أسافر بأجفاني نحو عالمي الثّاني..فأنا ما تعوّدت الإغماض والقمر باد، والنّجوم تداعب أحداقي..سأحكي لك عن جنون أحلامي ،وعواصف أفكاري

وموج عات أحدثه اعترافك.. ليتك ما أخبرتني..فمن يومها وكلّ أشيائي لا تشبهني..تغيّرت

فلم أعد أعرفني..هل أحبّك تعني أنّك تملكني..؟ أم من انفصامي أنت تحرّرني..في الحقيقة

كنت أرجو أنّك فعلا أحببتني..متى..؟ نسيت..ربّما حين تهيّأت لي طيفا بعد حكايتي الأولى:

أذكر أنّها كانت عن الجازية وذياب في سيرة بني هلال ،وجمال سيّدة القوم الّذي سلب الألباب..أو ربّما قبلها..حين سرح بي الخيال عند شجرة الخرّوب في ساحة المدرسة..وكيف أنّ الأمير تزوّج الأميرة الّتي أحبّت أباها الملك أكثر ممّا يحبّ الملح الطّعام..سأحبّك ربّما أكثر ممّا يحبّ الملح الطّعامَ.. إشتهيت لقياك على تلك التّلال وأنت

في رحلة البحث عنّي..مثلما سعى الظّاهر بيبرس وراء فتاته.. هل تعلم يا قلبي أنّه أخذ عطلة مرضيّة من التّاج،وخاض الصّعاب ،وتعبت قدماه لأجل طفلة أحبّها في صباه..؟ أخبرني:

كيف قدماك..؟ حتّى تطمئنّ نفسي فلسنا ندري ، ربّما إليهما سنحتاج..شاهدتك رؤيا القلب على صفحات تاريخ الطّبري مترجمة للغة موليير.. لغة الحبّ والجمال، فتخيّلتني أميرة عبّاسية يتذلّل عند بابها الملوك والأمراء..أو سيدة الحسن عند نحرها ينتحر الكبرياء..

تمنّيتك بين صفحات ابن خلدون فتمثّلتني أميرة أندلسية يسعى لقربها كلّ ذي شأن..ليس لأجل

الرّفعة والمكانة، لكنّها مثل ولاّدةَ..جمعت بين العقل ،والبهاء ،فصارت كلّ الحاشية لها عشّاقا.

تبعتك طيفا مسافرا بين طيّات كتاب كنت أملكه...تربّع فيه الفحول من الشّعراء.

والآن أخبرني..هل فعلا أحببتك وأحببتني أم أنّنا فقط نلعب لعبة العشّاق؟ !

كان هذا جزءا ممّا كتبته له يومها.

كان الخوف من اكتشاف رسائل **جواد** إليّ هو أكبر هواجسي، لذا كنت أبدع في خلق المكان السّرّي الآمن في كلّ مرّة بعدما فشلت ذات يوم في إخفاء كتاب **ألف ليلة و ليلة**..عثر أخي عليه تحت فراشي، وواجهني به موبّخا:

ـ كيف تقرئين كتابا يثير غرائزك الجنسية..؟

خجلت من فعلتي، وتبدّد السّحر حول **شهرزاد الحكاية** لديّ، وبقيت حكايات **ألف ليلة وليلة** مرتبطة في ذاكرتي بالجنس.

نسيت أن أخبرك أنّي اصطحبت الأولاد معي هذه المرّة إلى منزلنا الجبلي، بما أنّ الدّراسة لم تبدأ بعد جدّيا في منطقتنا الصّحراويّة..طبعا، طفلتي الحبيبة ما زالت تقاطعني.

جميل أن يهتمّ الجميع بك، ويسهروا على راحتك، لكنّني أحدّق في الوجوه من حين لآخر فأشعر بالضّيق، ولا أجدني أستعذب اهتمامهم المبالغ فيه، فتجذبني عزلتي، وأنكفئ على ذاتي لأنّي أدرك أنّهم يترقّبون نهايتي مع كلّ اشراقة شمس أو غروبها.

نوريتي..نور القنديل الّذي أكتب عليه بدأ يخفت، لذا صار ضروريا أن أنهي رسالة اللّيلة رغم شلاّل كلماتي الّذي لا ينضب..لا تستغربي استغنائي عن نور توفّره الكهرباء فهي أمنيات بسيطة أحقّقها ،فلطالما عذّبني الحنين في غربتي لسنين طفولتي حيث كنت مأخوذة بسحر الشّموع، وقناديل الغاز الّتي أنارت وقتها ظلمتنا في هذه المنطقة الغائصة في عمق التّاريخ..القرية عندنا بيوت يعانق بعضها بعضا على مرتفع، تخترقها ممرّات ضيّقة لا يمكن عبورها إلاّ مشيا،أو على ظهر دابّة..يوشّح القرميد الأحمر كلّ الأسطح.هناك الخضرة وما يتخلّلها من ألوان للزّهور البرّية ،وفاكهة الموسم المتدليّة من أشجار سقيت بينابيع الجبل العذبة..كلّ بيت فيها قطعة أثرية نادرة من زمن الحبّ والحرب، فقريتي مبنية بالحجارة الّتي جلبها أصحابها من أطلال رومانية مجاورة ،حتّى الأبواب الخشبية الضّخمة استغنينا فيها عن المفتاح،واكتفينا بمزلاج كبير نحكم إغلاقها به،كلّ ما فيها يستحقّ عناء الزّيارة والتأمّل..يجدر بي أن أخبرك أنّ كلّ شبر من منطقتنا يتحدّث، فيحدث الصّدى، ويهمس فيرجف القلب.

صديقتي..إنّهم يحبّون حيواناتهم لدرجة التعايش معها في بيوتهم..عندما كنت طفلة لم أكن أنام اللّيل بينما أنفاس الماشية الهاجعة وشخيرها يملأ المكان. يرعبني زفير البقرة الّتي تنام مع بعلها وعجلها فأتوجّس قفزتها إلى حيث ننام إذ لم يكن يفصل بيننا جدار، بل هما درجتان وتصير فوقي..هذا ما كنت أخشى حدوثه.

يا إلهي! كم كنت أذعر من أيّ شيء ،ومن كلّ شيء ،رغم كوني ابنة القرية والجبل..لم يكن خوفي طبيعيا البتّة..لعلّني كنت مصابة بنوع من أنواع الرّهاب لا أعرف له تسمية، لأنّ الخوف عندي كان من كلّ ما لا يشبهني، والغريب أنّه لم يشعر بي أحد، وعندما أقول أحد؛ أعني بالخصوص والديّ..لن أتحدّث عن البقيّة مادام هذان المخلوقان الرّائعان لم ينتبها لوضعي غير المألوف،بمرور الأعوام تجاوزت تلك المرحلة ولم يبق منها غير الكثير من الحنين لقنديل الغاز ،ولمسكن عشقته بعد أن طردت أشباح الماضي منه.

تعبت **نوريتي** سأنام..لعلّي أستيقظ غدا فأكتب لك مرّة أخرى..لا تنسي أنّي أحبّك.

صديقتك

منال

كم كنت يا قلب وحيدا..وكم آلمتك الأماني المستحيلة.

كم كنت ترجو حبيبا..لقاء..وكلمات من كتاب العشق ولو كانت قليلة.

كم كنت يا قلب وحيدا.أوجعك الجمال وعذّبتك زواياك الخالية ومخاديدك.

آدم الجميل

بعد أيام تسلّمت بشغف رسالتها:

تخيّليني يا صديقتي أطلّ عليك بوجهي الضّحوك من على سور حديقتك..ألوّح لك بيدي أنِ افتحي الباب نوريّتي ! فتهرعين إليّ فرحة، مستبشرة..تسارعين إلى الخروج لجذبي إليك، تمسكين بمعصمي فأتبعك بجسدي المتهالك ،بعد أن كنت أنا المبادرة بالقدوم..

هكذا أحببت أن تكون مقدّمة رسالتي إليك اللّيلة، فاقرئي حين تصلك وتصوّريني قبالتك أقصّ عليك ذكرياتي وأشكو آلامي.

كيف أصف لك ما يعتريني من حين لآخر ؟ من أيّ نهر أو بحر أستقي المعاني الّتي تشرح ما يعتلج داخلي من مشاعر متناقضة..؟ أنا أحيانا في منتهى السّعادة مرحّبة بما تأتيني به الأيّام الباقية لي، فالموت في النّهاية حتمي سواء وافانا الأجل اليوم أو غدا..ثمّ إنّي أعاني سحائب هواجس يضيق بها صدري في بعض الأوقات، تعكّر مزاجي، فتقبرني في صمتي فلا أكلّم أحدا لأيّام..أقضي السّاعات أغتسل بدموعي عند كلّ خاطر يطوف بي.

صدّقي أو لا تصدّقي هذا ما يحدث معي..ربّما ستقولين لي:

ـ أنت مقصّرة في آداء العبادات..

الله يسكنني يا عزيزتي، وما العبادات سوى طريق نسلكها إليه أكثر تبسيطا لمحبّته وخشيته، على صعوبة التزام بعضنا بآدائها بوجهها الصّحيح..لولا يرحمني الله، فيجعلني خالصة له، وبالتّالي ينزع من قلبي كلّ لذّة في الدّنيا ومحبّة لغيره. يا إلهي كم أتعذّب، وكم أحسد الدّراويش..عرفت أحدهم وأنا طفلة..كان يلفّ نفسه ببرنوسه حين يغلبه النّعاس، فيتمدّد على العشب النديّ مستترا تحت إحدى الأشجار في غابة البلّوط والصّنوبر المطلّة

على القرية، وعندما يشتدّ البرد، وتجيش السماء بما يعتلج داخلها يلجأ إلى قبر الوليّ،يلوذ إليه فينام. ظننته لوقت طويل رجلا مجنونا إلى أن شاهدته في يوم من الأيّام يتوسّط الجماعة وبيده الحلّ والرّبط، فلا كلام يقال بعد كلامه..ينفضّ الجمع من حوله، وهم راضخون لقراره راضون بحكمه..يقبّلون رأسه ويديه.

ـ تبّا.. هل سيتزوّج آدم فعلا؟

ـ ولمَ لا ؟ أليس إنسانا مثلنا ؟

على وقع هذا الحوار البسيط المحفور في عقلي استيقظت فجرا..لست أدري كيف أنّه أوّل ما قفز إلى واجهة فكري عندما فتحت عينيّ ،وسعدت بفرصة حياة يوم آخر..لعلّني كنت أعيش حلما كان **آدم** موجودا فيه..أي نعم **نوريّتي**..ربّما صرت أعاقر الجنون في الفترة الأخيرة ،إذ تزورني ظلال الماضي.. تغمرني بأستارها،فأندمج في دراما تلك الأيّام الغابرة بيد أنّه لو نظرت إلى الأمر،وحقّقت جيّدا، سأجدني معذورة..الموت يحوم حيث أضع أحمالي..توفّيت بالأمس زوجة **آدم** ابن العمّ..هو في الحقيقة ليس ابن عمّي، لكنّنا في القرية كلّنا نعتبر أنفسنا أبناء عمومة ،فنحن نحمل نفس الإسم .

الأكيد أنّك تتساءلين الآن من **آدم؟** ومن وزوجته الرّاحلة؟

حسنا..بما أنّه أتيح لي يوم آخر للحياة ؛سأنسج لك من خيوط النّجوم أقاصيص إلى أن أتعب كالعادة فأقوم لأجاري،وألاعب النّعاس بعدها ،لعلّني أتمكّن منه في النّهاية؟

للأمانة..الموضوع يدعو إلى التّوقّف عنده طويلا لتأمّله كحالة فريدة..سأصف لك ابن العمّ الّذي لا يغادر الإسطبل حيث **الزّايلة** أي **البغلة** رَكوبته المفضّلة، وبقراته وعجوله والحمار، إلاّ إن كانت وجهته إلى المرعى بصحبة بهائمه أيضا..يظهر تخلّفا شديدا في النّطق. يحكى أنّه لم يتكلّم حتّى سنّ الرّابعة، وهنا أيضا آخذ وقتي لأحكي لك كيف أنّهم اتّهموا والدته بالتّسبّب في إعاقته هاته ،بعد أن جمعت الماء من سبع طواحين ماء ،وجعلته يشربه

فانطلق لسانه،ولم يتوقّف من حينها عن الكلام، هكذا بعد أن كان أبكمَ، صار يصدر أصواتا وحروفا مثل تلك الاسطوانة الّتي شرخت في موضع ما، فأخذت الكلمات والنّغم يتكرّران فيها بصورة قويّة ومزعجة، ممّا يضطرّنا إلى اِيقافها..هو لا يتأتئ لكنّ الكلام عنده كالماء الّذي تكرّره الطّاحونة..يأتي بطيئا قويّا باِيقاع..ولسبب غير معلوم تمكّن من المشي متأخّرا عن أترابه، ممّا جعل مشيته مميّزة لا يشبهه فيها أحد..تنطلق ساقاه وسط الحقل أو الدّروب المؤدّية إلى نبع الماء خبط عشواء..ربّما ستجدين العبارة قاسية، لكنّي لم أجد لمشيته وصفا آخر حتّى أكون دقيقة،فقد صادف ذات غروب أن أرعب فتيات كنّ بصدد جلب الماء من المنهل..رمين بالقِرب والأسطل أرضا، وعدون مذعورات يكرّرن لكلّ من حاول تهدئتهنّ:

ـ شاهدنا عفريتا يشبه **آدم**..!

لم يكن العفريت سوى هذا المسكين بعد أن أرعبتهن مشيته وسط الأشجار والظّلام..إختلط السّواد بالبياض في إحدى عينيه..يحكى أيضا أنّ عمّه هو من تسبّب في عماه بعد أن لطمه على وجهه ذات يوم، وكان وقتها مايزال صبيا طريّا..ترى هل لهذه اللّطمة أيضا علاقة بنقص السّمع لديه..؟الله أعلم يا صديقتي..عدا ما ذكرته لك؛آدم شاب طويل القامة ،قويّ البنية،عينه السّليمة سوداء،الأكيد أنّه أبيض البشرة لكنّ لفح الشّمس جعلها أقرب إلى الإسمرار،لا يعاني تأخّرا في عقله لكنّه يعاني من قسوة المحيطين به، فقد جعلوا منه نادرتهم الّتي تتجدّد في كلّ مناسبة..صنع خبر زواجه الحدث الأهمّ في القرية، فمن هذه الّتي رضيت به..؟المؤكّد حسبهم أنّها تعاني خطبا ما..نعتوها بالهبل قبل أن يعرفوها وبالبشاعة قبل أن يروها.

كان العرس بالنّسبة لي قطعة من حلم، فالطّبلة والمزمار عندنا هو ما يصنع الفرجة، و**آدم** كغيره من العرسان حظي بليلة الحنّاء، الّتي لم أحظ بها أنا نفسي ليلة زواجي ،فرُبطت يده عليها وأُثقلت شاشية برنوسه النّاصع البياض بالأوراق النّقدية،

بينما نُثرت قطع الحلوى والمكسّرات على رؤوس المهنّئين، وبلغت زغاريد النّساء عنان السّماء فألهبت النّجوم. أقبلت العروس في اليوم التالي بكامل زينتها وبفستانها الأبيض الّذي لم أنل شرف ارتدائه أنا **منال** صديقتك وابنة المدينة ،على عكس ما توقّع لي **جواد**..كانت فتاة لم يتعدّ عمرها سبعة عشر عاما..لم يشكُ جمالها من نقص أو عيب..اِمتزج سمار بشرتها بخضرة عينيها ، ليجعل منها أمازيغية فريدة وسط بنات جنسها..اِرتدى **آدم** البدلة السّوداء والقميص الأبيض اللّذين جلبهما له شقيقه المغترب من فرنسا، بينما رفض وضع ربطة العنق بحجّة أنّها تخنقه. تعطّر واستعدّ لاِستقبال عروسه، كان كمن سيرى الشّمس لأوّل مرّة في حياته ،وعندما توقّف موكب العروس، ونودي عليه ليتسلّم فتاته، سارع الخطو وقلبه يكاد يسبقه إليها،لكنّ الفرح أفقده اِتّزانه لدقائق فأخطأ الطّريق، وخانته رجلاه كالعادة، فوجد نفسه وسط قطيع الماعز في الزّريبة.داس المسكين على عنق أحد الجديان من غير أن يشعر، فتعالت أصوات التّحذير ،وأكثرهم كان ضاحكا ساخرا منه بينما ردّد هو متأسّفا:

ـ الله لا تربَّحني..قْريبْ قْتَلتْ الجْدَيْ..

إنعقدت الألسن من فرط الذّهول ،وبات الجميع نساء ورجالا ليلتهم يصيخون السمع لعل أصوات اِستغاثة ستصدر من غرفة العروسين، لكنّ أغلبهم ناموا أخيرا مستسلمين للمعجزة الّتي حدثت بين ظهرانيهم،وأبلج الصّبح عن **آدم** آخر أشرقت حياته بالحبّ ،وعن زوج اِستثنائية أهدته إيّاها الأقدار..بها اِكتملت رجولته، وخلقت له الهيبة والاِحترام بين أولاد عمومته..رمّمت كلّ ما تداعى في أعماقه بفعل الشّعور بالنّقص، فكانت سمعه وبصره ولسانه..تعمل معه في كلّ مكان يقصده بخطواته المضطربة..أنجبت له الولد بعد الولد حتّى صاروا سبعة ثمّ أنجبت الثلاث بنات..كلّهم سليمو البنية ماعدا واحدا ؛ورث عنه عاهته في النّطق..لم يكن الحبّ عاديا بين هذين الاثنين، فسبحان من ألقى الألفة بينهما ومن علّم **آدم** الحبّ في عالم يؤمن بالغيبيات ،

وكرامات الصّالحين،حتّى وإن كانوا تحت التّراب أكثر ممّا يؤمن بأنّ الحبّ موجود،

وإلاّ لما حرصوا على أن يجعلوها منطقة خالصة للمرابطين لا يدخلها غريب.كانت العروس أمازيغية من **المرابطين** أيضا..تخيّلي.. لو لم تكن كذلك فهل كان الله سيرسل له غيرها..؟ توفّيت أمس في الحقل من غير أن ينتبه لها أحد..ظنّوها مغشيا عليها، بالنّسبة لي كانت موتتها بهية، فهي لم تنتظرها مثلما أفعل أنا. توقّف قلبها المعطاء فجأة فكانت النّهاية..جلس بجانب جسدها الملفوف في الكفن،ومدّ رجليه ينتحب كالنّساء،وقد غزاه الشّيب فجأة، وصار أشدّ حاجة إليها..قال له أحد أبناء العمومة:

ـ تماسك يا رجل..سنزوّجك بأخرى تنسيك عروسك.

نظر إليه بتلك العين السّوداء ،الحزينة، النّاضحة،و قال له:

ـ وهل هناك من ترضى بآدم غير **القبايلية..؟**

ثمّ قام ،وابتعد مترنّحا يشهق كطفل صغير تخلّت عنه أمّه.

إسترجعت السّماء هديّتها،ليعود **آدم** وحيدا من جديد..سيجد العزاء والرّعاية ربّما بين أولاده الّذين أحسنت أمّهم تربيتهم، فزرعت فيهم الحبّ والإعتزاز بأبيهم. كانت تردّد دائما لمن يسخر منها من نسوة القرية: **ـ آدم هو الشّاذلي نتاعي..**

تقصد به رئيس البلاد أيّامها.تغيّر رؤساء البلاد ،ولم يتغيّر رئيس السّمراء الأمازيغية.

بعيدا عن حكاية **آدم** يا صديقتي..بدأ العدّ التّنازليّ معي وبدأت أحسب ما تبقّى لي من الأيّام.

صار الشّهر بالنّسبة لي أسبوعا، وازدادت لوعتي ولهفتي على تلقّي رسالة لعلّها الأخيرة من **جواد**، ثمّ إنّي اكتشفت أنّ البقاء عند نافذة الإنتظار سيسرق الكثير من مهلتي للإستعداد لموتة تليق بي..صرت أقنع نفسي أنّ خبرا منه لن يقدّم أو يؤخّر من مجرى حياتي شيئا..هو لا

يعلم شيئا عن مرضي..يتصوّرني أنتظره، واثقا كلّ الثّقة في حبّ أحمله له بين جوانحي لا يموت إلاّ بموتي بهذا الدّاء الحقير الّذي يتسلّل خلسة إلى أجسادنا ونحن عنه غافلون.

كتب لي مرّة مازحا في ذيل اِحدى رسائله مازحا: **تقبريني بنت عمّي..!**

كتبت له نفس الجملة من غير أن أعي معناها: . **تقبرني ابن عمّي..!**

لكنّي سألته عن مغزاها لاحقا، وعرفت بعد ردّه أنّه تمنّى أن أمشي على قبره ،أي أن يتوفّى قبلي..لم أكن أملك حياة لأحرص على اِسترجاعها ماعدا بعض أمنية، لكم وددت تحقيقها..غير هذا؛ لديّ قلب متلهّب مع اكتئاب رافقني لأعوام طويلة،خلق لدي شغفا بالقراءة والكتابة ،وخيالا واسعا سمح لي بالإبحار والتّحليق خلف كلّ حلم أرسمه على أوراقي كلّ ليلة..اِعتدت على تلك الحياة، لذا وددت استرجاعها زمنا،ثمّ زالت رغبتي تلك، لأنّي ولجت عالما آخر افتتنت به رغم نقطة النّهاية الّتي تنتظرني عند آخر السّطر. هل فهمت شيئا ممّا كتبته لك اللّيلة **نوريتي**..؟

لا تؤاخذيني فقد تناولت من غير نتيجة تُرجى مزيجا من مسكّنات الألم والمهدّئ يجعلان الثّور يخرّ صريعا ،أتلوّى في مقعدي ألما فلا أنام..أنت مؤنستي لذا أتحرّر من قيودي معك،وأهذي بما يخطر على بالي..تصوّري يا صديقتي قبل أن ترحل زوجة **آدم**؛ كانت أمّي قد خضّبت يديّ ورجليّ بالحنّاء الّتي أعشقها، وتنعشني رائحتها..يداهم التّعب أمي منذ فترة، فيرتفع ضغطها من حين لآخر. هذا كلّ ما يتعبها كما تقول..هي قويّة النّفس لا يعجزها شيء،حتّى وجع المفاصل الّذي لا يفارقها..سهرت معي منذ ليال وعجنت الحنّاء الّتي فاح أريجها في الأرجاء ممتزجا برائحة اللّيمون الّذي أضافته لعجينتها حتّى أحصل على لون أفضل،سألتني كيف أريد رسمتها على يدي..؟ حينئذ تذكّرت **حكيمة** ، تلك العروس الّتي غطست كلتا يديها في إناء الفخّار العميق الطّافح بالحنّاء..كان هذا هو العرف السّائد وقتها..آه..لو شاهدت كم صارت فاتنة بعدها بزيّها،وبيديها المخضّبتين حتّى المعصمين..هكذا من غير رسم أو شكل معيّن..هل لأنّني كنت وقتها في التّاسعة من عمري، ما جعلني مسحورة،

أم أنّها فعلا كانت مذهلة كحورية في إحدى القصص الّتي نمت عليها ذات ليلة بصوت ذات الوجه الحسن أمّي..؟ كنت سأطلب منها أن تخضّبني مثل حكيمة، لكنّني لسبب ما تراجعت..لعلّها حاسّتي السّادسة الّتي تصيب في أغلب الأحيان، فاكتفيت بتخضيب باطن كفّي من غير أن أعطيها شكلا معيّنا..نمت بصعوبة ليلتها فقد واجهت آلامي بالإضافة للوضع غير المريح الّذي كانت عليه يداي وقدماي..بقيت أمّي إلى جانبي تسترجع حكايات شبابها، وتغنّي لي من حين لآخر بصوتها الدّافئ وبحّته المميّزة..وحين توفّيت زوجة آدم لبست الجوارب،وعملت جاهدة على إخفاء يديّ حتّى لا أثير الإنتباه ،فمن غير اللاّئق عندنا أن يلتقي الفرح والحزن في مكان واحد. إنزويت بعيدا عن الأنظار في السّاحة الفسيحة،حيث تجمّع أكبر عدد من النّساء بعد أن ضاقت بهنّ غرف الدّار..أحدّق في تلك الأفواه الّتي لا تتوقّف عن الكلام، وإيماءات الوجوه الّتي وإن أبدت الحزن في أغلب الأحيان..ضحكت بإحتشام أيضا أحيانا..إستغرقت في التّفكير في جنازتي متسائلة:

ـ هل ستشهد روحي المحلّقة من فوق هذا الجمع الغفير من المعزّين؟ أم أنّ حياتي بعيدا لسنوات طويلة عن النّاس الّذين عرفوني طفلة كانت كفيلة بجعلهم ينسونني فلا يتأثّرون بوفاتي..؟

ربّما ،سيحضرون جنازتي من باب العزاء لأبي الّذي يعدّ كبيرهم. ستثرثر ألسنتهم يومها كثيرا عن هذه الّتي عاشت بينهم أيّامها الأخيرة ،وكيف أنّها كانت تودّع الحياة من غير أن يشعروا.. لم يكونوا يرونني إلاّ من بعيد ،في الواقع، لم يتشجّع أيّ من أبناء وبنات العمومة على الإقتراب منّي والحديث إليّ إلاّ نادرا، لعلّ شكلي الغريب هو ما جعلهم يحجمون عن الإنسجام في حوار طبيعي معي..بيني وبينك يا صديقتي أسعدني ذلك كثيرا.

يأبى قلمي التّوقّف عن الكتابة، لعلّه هو أيضا يشعر بنهايتي القريبة، فيعمل على كتابة أكبر عدد من الكلمات،حتّى وإن لم تؤدّ في الأخير إلى معنى.سأتركه يوما ما وحيدا في درجي حزينا..ربّما سيحتفظ به الأولاد كتذكار من أمّهم ،أو ربّما سيهدونه بدورهم لعزيز آخر على

قلوبهم..هو من الذّهب الخالص كلّما فرغ منه الحبر أعدت ملأه..محفور عليه حرف **الجيم** باللاّتينية، فقد كان هدية من جواد،أرسله لي منذ عامين مع أحد أصدقائه ،وتمنّى عليّ أن أكتب به، ولا أغيّره..ليس مهمّا كيف وصل إليّ. المهمّ أنّه لم يفارق يسراي من يومها..أنا عسراء لو تذكرين..ضوء القنديل من جهته يشجّعني على اِلاسترخاء على فراشي، سأطيع قنديلي، فقد غلبني التّعب، واشتاقت إليّ وساداتي..لا تعرفين أنّي أملك ستّا من هذه الأخيرة وكلّها ضروريّة لراحتي..يا الهي نوريتي بلغ بي الهذيان إلى أن صارت المخاديد من ضمن أحاديثي إليك .سأتوقّف هنا وأعود إليك، إن طال بي العمر.

صديقتك

منال

حمّام المطر

قيّدتني **منال** إلى عالمها عن طريق رسائلها..صرت أعاني الكوابيس الليليّة، وأعيش يومياتي بهواجس سكنت مخيّلتي، فما أن يحلّ الأسبوع الثّاني بعد آخر رسالة منها حتّى أقع فريسة وساوسي ،ثمّ تعاتبني نفسي عن الرّضى بهذا الوضع..لمَ لا أهاتفها على رقم ترسله لي ،حتّى أطمئنّ على الأقلّ أنّها ما تزال على قيد الحياة..؟ لماذا ألتزم بلعبتها ؟ فإن كان هذا يسلّيها فهو يعذّبني..عقدت العزم على زيارتها،أعجبها أم لم يعجبها بعد آخر رسالة وصلتني منها.

كتبت لي صديقتي :

أرجو أن تكوني بخير، **نوريّتي**..تأخّرت في الكتابة إليك، وأعلم أنّ التّأخير ليس في صالحي لكن شاءت الأقدار أن تتوفّى والدتي لأبقى أعاني فقدها، وأخوض معركتي.

ذات **الوجه الحسن**..كيف هنت عليها؟ أجهدت نفسها متناسية وعدها لي بأن تبقى شمسها تنير ما تبقّى من وجودي على هذا الكوكب،فوقعت على سجّادتها مثلما وقعت زوجة **آدم** في حقلها..أطالت السّجود حتّى ظنّوها تكثر من الدّعاء، ولعلّها كانت تفعل ذلك قبل أن ترحل.. كيف أصف لك ما أمرّ به من صدمة وذهول..؟

حلّقت تلك الرّوح الطّيبة إلى بارئها، واتّخذ الجسد المتفاني في الحب والعطاء من التّربة النّدية مسكنا له..هل بقي لي الكثير على الجنون؟ أم أنّني فقدت عقلي حقا منذ زمن ولا أشعر؟ ألم يكن من المناسب أن أموت قبلها..؟هي توفّيت منذ أيّام، بينما مهلتي للحياة نفدت قبلها بأيّام..كنت أرقب أن تخرج روحي كلّ ليلة في نزهتها المعهودة ،ولا تعود، ثمّ أفاجأ مع كلّ صبح باستيقاظة جديدة تدهشني..فما كنت لأعيش لأكثر من ستّة أشهر، وإذا بها تنقضي، فيزور ملك الموت أمّي بدلا عنّي.

كنت قبل قليل أجفّف نفسي من البلل، وأزيل بعضا من آثار حزني..

فقد جذبني شذى التّربة المشبعة بماء المطر،وأطربني صوت الرّعد في الخارج..صار الجوّ غضوبا هذه الأيّام الأخيرة من فصل الخريف، لكنّه أثلج صدري وأمتع نظري..كما خفّف من آلام روحي..لم أقاوم رغبتي..تبعت عطر الأرض الأصيل وهو يشدّني إليه كأنّه يقول لي:

تعالي ..ضعي عنك ثوب التّعاسة..ابتسمي..لا يليق بك العبوس..ارقصي كما تحبّين فها هو المطر أتاك يعزف لأجلك تحت شرفتك..انزلي إليه ورحّبي به أيتها الطفلة..

سحبت نفسي بصعوبة بالغة من فراشي..تجعل مسكّنات الألم جسدي خدرا من غير أن أنام بعد أن اعتدت عليها.. تمسّكت بالجدار المحاذي لسريري ، وتدثّرت بوشاح أمّي المنسوج من الوبر، إذ لم يغادرني منذ غادرتني هي.. بذلت كلّ طاقتي في كلّ خطوة كنت أخطوها لأتوقّف برهة من الزّمن مستندة على كلّ جدار يقابلني..لم أخرج إلى شرفة الحجر والخشب القديمة..وصلت أخيرا إلى السّلّم فنزلت درجاته الخشبية هو الآخرَ درجة درجة، ممنّية نفسي بعد كلّ عناء أنّني سأصل أخيرا فأفتح الباب وأخرج..هكذا نفحتني الرّيح الباردة، وقبّلني المطر.. كانت صلعتي تلمع بذلك البلل المستحبّ.. تذكّرت فجأة اليوم الّذي دخلنا فيه على ذلك الجمع فألقينا عليهم بسحرنا..ترانا كنّا غوايتهم المحبّبة ساعتها؟ بدأت أضحك..ضحكت بشكل هستيري حتّى انقلب ضحكي إلى بكاء ونحيب.. أيتها السّماء الغاضبة الحزينة ماذا جنيت؟ هل لأنّي أحببت فعاقبتني؟ ما حيلتي مع قلب آمره فيعصيني..؟ وأنصحه فلا ينصت لي..؟ امتزجت دموعي بالغيث.. نسيت آلام جسدي والبرد والبلل، وتخلّيت عن حذري فصحّتي لا تسمح بهكذا مجازفة..الكلّ نيام، لكأنّ هدير الرّعد، وهطول المطر قد زادهم نعاسا، فغاصوا في سبات عميق..أمّا أنا فقد ثملت واقفة وسط تلك السّاحة المقفرة، لا يؤنسني فيها سوى حفيف أوراق شجر اللّوز والزّيتون المحيط بي.. يلمع البرق فتضيئ السّماء ،ويظهر معها القرميد أحمرا ناصعا يزيّن أسطح البيوت..تنساب مياه المطر هاربة مع المنحدر لتستقرّ في أسفل الوادي،

حيث البساتين والصّفصافة الّتي ستؤرّخ ربّما لموتي.

يقال: **إنّ الموت يعطي الرّاحة**

ربّما سأشعر بالتّحسّن، فأسلك المنحدر كعادتي في نزهة على طرف الوادي..أقطف التّوت، وآكل منه بشراهة المودّع للحياة..لأنّني سبق وشاهدت مقبلين على الموت أكلوا حتّى الإنتفاخ ،وبعدها بيوم أو أقلّ من يوم رحلوا..أنا أيضا سأفعل مثلهم ،ولا يهمّ إن كان التّوت أسود أو أحمر حامضا، ثمّ ألجأ إلى الصّفصافة، أستلقي تحتها كعادتي حالمة في حضن النور. سيقرّر ملك الموت حينها أنّني صرت مستعدّة لعبور الجسر حيث تنتظرني أميّ، وتقلق بشأني..ماذا كنت أقول قبل أن أتحدّث عن الصّفصافة؟ تذكّرت الآن أنّي كنت واقفة.

تراني نسيت أنّي ضعيفة واهنة فلم أتداع على الأرض..؟ خرجت عن مدارك الزّمن منتصبة هناك..أخاطب السّماء، لعلّها تسمعني، فتلقي بالسّكينة داخلي، فيكون القدير بهذا قد رحمني..تذكّرت محبوبتي.. فانكمشت داخل وشاحها الّذي أغناني منذ وفاتها عن كلّ حضن يُفتح لي..استسلمت بعدها لقدري حين شاهدت كيف أنّ الموت يصطفي من بيننا من نحتاجه أكثر ،ونبقى نحن الّذين نعانيه كلّ ليلة ننتظره ممدّدين تحت الغطاء، نتخيّل الصورة الّتي سيأتينا عليها، ونقبّل اسمه كي يرأف بنا، فيأخذنا بهدوء من غير ألم أو ضوضاء. فاجأني حين تجنّبني واختطف أمّي ليتركني من غير حضن، ولا غطاء، ولا دثار،هي أمّي الّتي كانت كلّ هذه الأشياء..ندمت أيّما ندامة على الوقت الّذي أسرفته بعيدا عنها، فلم أتشبّع كفاية بعطرها،وأمرّغ رأسي في حضنها..انشغلت بتحسّس مرضي،وساعة نهايتي..كم كنت حمقاء..! ألم يكن جديرا بي ملازمتها فأكتفي بحبّها واهتمامها؟ يلازمني عذاب الضّمير الآن والندامة من موقف ما؛ كنت شرّيرة فيه مع أمّي.

هل حدث وأن قفزت إليك صور الطّفولة البعيدة صديقتي؟ ثمّ تساءلتِ إن كانت حقيقة أم مجرّد حلم عاشت فيه روحك بينما كانت تتجوّل خارج جسدك النّاعس؟ ولأنّك صدّقته ثمّ تقدّم بك العمر، ورسخ في الذّاكرة تمنّيت أن تتأكّدي لكن لا تستطيعين..؟بالنّسبة لي،

لديّ الكثير من هذه الصّور..فلم تكن الغرفة الّتي سكنّاها نحن الإخوة السّبعة، والوالدان، والضّيوف مجرّد محطّة عادية توقّفنا فيها لسنوات قليلة بعد أن غادرنا القرية، بل كانت تجربة أخرى أضيفت إلى قاموس تجاربي من خلال طفولة مرتبكة جاورني فيها الخطر ليل نهار..لم أكن أعيه ولأكون منصفة لست أدري إن كانت عناية السماء معي أم مع أمّي الغافلة عمّا يحوم من خطر حولي..؟ ولكلّ طفل أسراره..لا يبوح بها إلاّ بينه وبين نفسه.

كيف لم يقبض ملك الموت روحي ،وقد كنت جسدا غضا طريا يكافح يد **جويدة** الجارة الطّويلة وهي تغوص في بطني بكامل ثقلها..تجلس على حافّة السّرير حيث كنت نائمة مستلقية على ظهري بينما وضعت يدها على بطني مستندة عليها في جلستها المريحة،من غير أن تنتبه أمّي إلى أنّ جويدة توشك على قتلي؟

كانت أمّي مشغولة بخبز كسرتها الّتي نعشقها وكلّ الجيران، بينما كانت الجارة الطّويلة مشغولة بخنق أنفاسي..هل كانت حقا تنوي قتلي أم خيّل لي..؟ لأنّني ما أن توقّفت عن مقاومتها محاولة التّملّص من قبضتها، واستسلمت لها حتّى رفعت يدها وقامت مغادرة..لم تتناول الكسرة، ونجوت أنا. أتساءل لليوم: **هل كان ما تعرّضت له حقيقيا ؟ أم كابوسا صدّقته؟ لماذا لم أخبر أمّي..؟**

لست أنسى ذلك اليوم الّذي مسحت فيه شفتيّ من أحمر الشّفاه بقميص أبي..لك أن تتصوّري كيف كانت حالة أمّي عندما اكتشفته..خضعنا أنا وأخواتي لساعات من الاستنطاق المعمّق. إلتزمت أثناءها بالنّفي..لماذا فعلتها؟ إذ كيف أوسّخ قميص أبي؟ فضّلت أن تتوسّخ صورة أبي في عيني أمّي الّتي ظنّته خانها لسنوات على أن أعترف بفعلتي..خوفا من العقاب..ولكي أصدّق كذبتي لم أعد أقبّل والدي عندما يعود إلى البيت بعد يوم عمل شاق وطويل.

نجتاز الطّفولة كحلم مزعج أو جميل، فلا نصدّق بعدها أنّنا ودّعناه.. تتزاحم الصّور في عقلي قادمة من ماض سحيق ،كأنّني أحاول طبعها على ذاكرة ،ستموت بمجرّد موتي، ولا

أصدّق ذلك..أتعلّق بفرضيات واهية، **فلربّما** ،**ولربّما** أحدّث نفسي..أضحك الآن عندما تهيّأ لي صورة الأستاذ **محمود** جارنا في الحيّ،رجل غامق السّمرة بدين،لا أستحضر من تفاصيله سوى شاربه الدّقيق، وشفتيه الغليظتين..كنّا أطفالا نركض نحوه لإلقاء التّحيّة عليه كلّما شاهدناه مقبلا من بعيد..كيف لا نتجمّع،ونتدافع حوله إناثا وذكورا وهو الجار الأنيق؟ الأستاذ صاحب المحفظة الأنيقة..هدأت حماستنا للقائه مع مرور الأيام،وتناقصت أعداد المسارعين لتحيّته ،بل صرنا نتحاشاه حتّى أصبح ذات يوم وهو يسير وحيدا متّجها إلى مدرسته..لم نعد نحفل بمروره بيننا، ولا نردّ على سلامه،لكأنّنا اتّفقنا جميعا على تفاديه. لم نتحدّث عنه فيما بيننا، وعدنا إلى ألعابنا، وبقي سرّنا محفوظا إلى أن شاهدناه مقبلا ذات يوم نحونا ونحن منغمسون في لهونا، يحمله الحنين إلى لمّتنا حوله..اِنطلق صوت إحدى أخواتي كجرس إنذار :

ـ أهربوا..الأستاذ صاحب الشّفتين الغليظتين قادم..سيلتهم أفواهنا ويتذوّق ألسنتنا..

نظر بعضنا إلى بعض مشدوهين وكأنّ لسان حال كلّ واحد فينا يقول للآخر:

ـ هل أنت أيضا فعل معك مثل الّذي تقول هذه المجنونة؟

تفرّق الجمع إلى أن مرّ الأستاذ المنحرف إلى حال سبيله، وانتشر خبر صاحب الشّفاه الغليظة في مجتمعنا الطّفولي،بل صار النّكتة الّتي تجعلنا نتمرّغ في الأرض من فرط الضّحك، فالكلّ أعطى شفتيه ولسانه للأستاذ ،وشعر بالغثيان والقرف من غير أن يبدي مقاومة، أو يخبر الّذي بعده ظنّا منه أنّه ضحيّته الوحيدة..توطّدت علاقتنا كأصدقاء وصديقات في الحيّ لأنّنا تشاركنا هذا السّرّ.

علينا يا **نوريتي** أن نتعلّم من الصّغار كيف نحافظ على أسرارنا..مهما كانت قاسية،وقبيحة، ومؤذية.

لعلّ عقدة الذّنب والشّعور بالمسؤولية عن حدوث ذلك الأمر أو ذلك الفعل هو ما يدفعنا إلى التّقوقع داخل ذواتنا ،فلا يرى الآخرون منّا غير طفولتنا البريئة،

ولا يسترعي انتباههم ذلك الهدوء الغريب الّذي نتّسم به بعدها لسنوات، فيرجعوه إلى نضوج مبكّر ودماثة في الأخلاق، فلو غامروا بعقولهم الكبيرة، واقتحموا عالمنا ساعتها لأصيبوا بالذّهول والصّدمة اللّذان يتملّكان طفلا بين يدي معتد جنسي؛ يسلبه براءته وأحلامه من غير أن يحرّك ساكنا وكأنّه منوّم مغناطيسيا..يتفرّج من بعيد على جسده الغضّ تشوّهه، وتضع بصمتها عليه يد قذرة مريضة، فلا يهمّه لحظتها غير حساب الدّقائق الّتي يشعر بها أعواما ساعتها،ومن بعدها يتوقّف الزّمن لديه عند ذلك الحدث فيبني عليه كلّ الآتي..عن نفسي كنت أعيش طفولتي كمن يبحث عن طريقه في ليلة دهماء، واتّخذت من الحلم مطيّتي في الحياة ،وأراني أفعلها لحدّ الآن..تشهد على تحليقي في تلك المرحلة المبكّرة من عمري شجرة الخرّوب في مدرستي..أحبّ فاكهة الخرّوب وما زلت..على قدر ما كنت أتناول منها، كنت أرسم الصّور لمستقبلي مستندة إلى جذع الشّجرة الّتي كانت قريبة من مكتب مديرنا الضّرير أو بالأحرى البصير ثمّ أعود وأمحوها في الغد لأنّي عثرت على ماهو أجمل بين صفحات تصوّراتي..لماذا لم أكن ألعب مع الزّملاء والزّميلات؟

الحالمون يفتقدون إلى التّركيز صديقتي..هذا ما أعتقده، فالرّياضيات كانت مشكلتي على الرّغم من تفوّقي فقد كنت الأولى دائما على صفّي ،والخانة الوحيدة الضّعيفة هي مادّة الحساب، أمّا اللّغة فقد كانت جناحي الّذي يحلّق بي في السماء بالكلمات.

بدأت أفقد حبل أفكاري بعد أن نال التّعب منّي اللّيلة..عندي الكثير من البوح لك ،لكنّي أتشوّش ما أن تتصاعد وتيرة الأوجاع فلا أعود أعي ما أقول،وسأهذر بأشياء لا معنى لها. ها هو حدث آخر زاحم ذكرياتي المتأجّجة، وتوسّلني أن أحرّره من خانة التّأريخ في عقلي لأخلّده على الورق بعدما حدّثتك عن التّنويم المغناطيسي، فالكلمات مفاتيح لكلّ البدايات والمغاليق صديقتي..كلمة واحدة كفيلة بإشعال فتيل ذكرى سعيدة أو حزينة لدينا..نخفي

الحدث المخجل بعيدا حتّى لنكاد ننكره مع مرور الزّمن..نتناساه لكي ننساه، أو كما نعتقد ،وإن ندّ منه النّدر البسيط سيبدو لنا وهما أو حلما مزعجا من أحلامنا البعيدة كما أخبرتك من قبل..فأنا أكرّر أحيانا بعض الأفكار عند الكتابة إليك.

حين تقع المرأة في معضلة الحرمان ؛تكتمه حياء، وحماية للّذين يتعلّق مصيرهم بمصيرها ،ولأنّ المجتمع أيضا لا يرحم المرأة الّتي تعلن عن احتياجها،يقضّ هذا الأخير مضجعها لكنّها لا تشكو وحدتها كأنثى لأحد.. ستدفن رغباتها وعواطفها تحت طبقات سميكة من الصّمت واليأس ، لتبقى هذه المدفونة تغلي كماء القدر..تغطّيها باللاّمبالات المصطنعة ،وعلى عكس الماء المغلي فإنّها لا تجفّ في نهاية الأمر،بل ستنفجر في وجهها بطريقة ما ،لتقود إحداهنّ إلى الإنحراف،والفعل المرضي،وستتحوّل أخرى إلى صوفية،تتلذّذ بالحبّ السّرمدي، بينما تسعى من كانت أمّا وراء الكمال والفضيلة عبر التّضحية لتسمو بنفسها عن كلّ رغبة..هكذا تتعدّد الإتّجاهات والخيارات، وكلّها شكل من أشكال ردّة الفعل على واقع مفروض تحياه الكثير من النّساء..في الواقع.. لا أعلم لماذا لا أتمالك نفسي من الضّحك، أو على الأقلّ الإبتسام كلّما زارتني صور تلك الأيّام..على وجع جرحها الّذي لم يندمل بعد.
السّتة عشر ربيعا الّتي كنت أعاني ثورتها بشكل عنيف، وبيت جدّتي الزّاخر بالحياة وزوجة عمّي الحنون فوق الحدّ الّذي يقتضيه الحنان،وأخواتي.

توفّيت جدّتي فجأة في ليلة عاصفة..ممّا أحدث لي صدمة لم أشف من آثارها لأعوام،وبقيت لحدّ الآن تشعرني بالضّيق ،ووخز الضّمير كلّما تذكّرت أنّني نمت ليلتها بعد أن خاصمتها.

كان صدام أجيال بريء، لكنّ نتائجه على نفسيتي كانت قاسية..كلّ الآلام تبدأ صامتة..تزحف نحوك بهدوء حتّى تسكن روحك..ماعدا ألما ترتّب عن صدمة.. يصيبك كطلقة من فوهّة بندقية..تجانب قلبك..تزلزل كيانك..لا تقتلك ولكنّها تعذّبك ولا تغادرك.

غمرتني زوج عمّي في تلك اللّيلة المشؤومة بوابل من الحبّ..سآتي إلى الحديث عنه بعد أن أعرّفك عليها..كانت سيّدة خمسينية،جميلة ،لم تتزوّج مبكّرا وعندما حصلت على فرصتها

طلّقها بعلها بعد أشهر من الزّواج، ممّا جعل أسرته تلومه وتؤنّبه على طيشه، فلم يكونوا يرونها تستحق ذلك..بعد أعوام تقدّم لها عمّي الأرمل،تزوجا،وانتقلا للعيش مع جدّتي بعد أن غادر كلّ الأعمام المنزل،وتركوها وحيدة..لم ينجب عمّي أولادا قطّ.

كان يسافر أغلب أيّام الشّهر..يقطع الطّريق الصّحراوي بشاحنته المعبّأة بالسّلع..يجتاز بها الحدود الجزائرية إلى مالي والنّيجر.حكى لنا عن مغامراته في ذلك الطّريق وعن الأعاجيب الّتي صادفها هناك وعن الجنّية الّتي كانت تغازله،وتنتظره ليلا،عند نقطة معيّنة من الطّريق معترضة سبيله، وكيف أنّه لم يكن يرهب رؤيتها..لعلّ عمّي أحبّ الإثارة فاخترع مثل هذه القصص..؟

تطوّعت لمؤانسة زوجه أثناء غيابه بعد أن رفضت إحدى أخواتي المبيت معها مجدّدا في غرفتها..بل لم تعد تطيق مجرد النّظر في وجهها.

سألت أختي عن سبب كراهيتها المفاجئة لها فصمتت، وتهرّبت من الخوض في أي حديث يشير إلى هذه الحنون الطّيبة..توفّيت جدّتي، واكتظ البيت سريعا بالمعزّين، وبتّ ليلة غيابها الأولى مع الحنون الطّيبة..كان الفصل صيفا، ولم أتوقّف عن النّحيب.

أنّبني ضميري يا صديقتي، وعذّبني ، ولم يدعني أرتاح للحظة ،وعينا جدّتي كانتا تتبعانني تحدّقان فيّ بانكسار وعتاب أينما التفتّ ،أو وجّهت بصري.

أفقدتني الفاجعة تركيزي ،وكان من الطّبيعي أن تعانقني وتقبّلني زوجة عمّي ،وتغدق عليّ بالوافر من الحبّ والاهتمام ،لكنّني في لحظة ما تفطّنت لما يحدث معي حين سمعت صخب أنفاس تزفر وتشهق في أذني،ويد تمتدّ لحميميتي تتلمّسها،وشفاه تطبق على شفاهي منعت عنّي الهواء، ذكّرتني بجارنا الأستاذ المنحرف في طفولتي.جحظت عيناي، وتوقف الوقت فجأة..خرجت من جلدي لأتفرّج على الفتاة والمرأة الّتي تحوّلت فجأة إلى مخبولة تحاول سرقة براءتها..

لم أشعر إلاّ وأنا أدفعها بعيدا عنّي، وأقفز خارج السّرير متّجهة صوب باب الغرفة لأفتحه وأخرج.. بيد أنّها سبقتني ووقفت حائلا بيني وبينه ،ثمّ أجهشت بالبكاء تتوسّلني أن أحفظ سرّها،وأغفر لها..عقدت الصّدمة لساني فتراجعت خطوات للوراء محذّرة إيّاها من الإِقتراب منّي مجدّدا.. أخذت وسادتي، وافترشت غطاء السّرير على الأرض..لم أنم وبقيت أرقب طلوع الصّبح هادئة ،بينما عادت هي إلى سريرها، ولم تنبس ببنت شفة حتّى فتحت الباب أخيرا عندما سمعت صوت أمّي والنساء يحضّرن للجنازة..خرجت، ونزلت درجات السّلم مهرولة أرتمي في أحضان أمّي الّتي لم تفهم حينها شيئا.

لن أطيل عند حكايتي هاته لكنّي أردت أن أخبرك كيف تعلّمت منها أنّ الصّداقة بين الأخوات ضروريّة..دعيني أكمل أوّلا:

طلع النّهار حزينا، وبكينا فراق الجدّة غير أنّ أختي الكبرى أصيبت بنوبة هستيرية أدّت إلى تشنّجها وعجزها عن الكلام، ممّا استدعى نقلها إلى المستشفى على جناح السّرعة..هناك أخذت حقنة **فاليوم**..قال الأطبّاء أنّها ستهدّئ أعصابها وتجعلها تتحسّن.. نسيت ما حدث مع زوجة العمّ الحنون لساعات، وتمدّدت أختي مستسلمة للمخدّر في غرفة جانبية بعيدا عن الضّوضاء..تكمن خاصّية **الفاليوم** في أنّه يجعلك ترتخين، فتعجزين عن الحركة،لكنّه لا يفقدك الشّعور بما يدور حولك. إنشغلنا لساعة من الزّمن ،كانت خلالها أختي وحيدة ،وعندما عدنا إليها وجدنا المرأة عند رأسها تهمس لها بشيء في أذنها..سرعان ما وقفت مبتعدة عنها عند رؤيتنا..عندها أخبرت أمّي بما حصل معي ،ويا لهول الصّدمة أيضا عندما نطقت الأخت تروي بتقزّز كيف كانت ليلتها مع زوجة عمّنا.

صدّقيني، ضحكنا بشدّة بعدها عندما صحت الأخت الكبرى ،وزال مفعول المخدّر، وبدأت تصف لنا كيف كانت أصابع زوجة عمّي تتسلّل إلى مناطق جسدها الحميمة ،وهي تصرخ من غير أن يخرج صوتها.

لا يذهب توقّعك بعيدا **نوريّتي**، إذ أنّ والدتي أبعدتنا عنها ،وأصرّت على كتمان أمرها،

ولليوم لا أحد يعرف عن ميول زوجة العمّ الحنون ربّما، سوى الّذين احتكّت بهنّ بعدنا.

مضى وقت طويل على الحادثة ولم يبق منها غير الذّكريات الممزوجة بألم فقدان جدّتي الّتي أرجو

أن أنال فرصة الإعتذار منها يوم ألقاها ،فأنا أعتذر منها كلّما زرت قبرها، وأتوسّل منها المغفرة على حماقتي.

توقّف المطر منذ ساعة تقريبا ،وانقشع الغيم عن سماء مذهلة بنجوم تلمع على صفحتها ،لكأنّها اغتسلت هي الأخرى مثلي بمياهه.

لن أختم رسالتي، وأطفئ قنديلي قبل أن أخبرك بأنّي ما زلت أنتظر مكتوبا من **جواد**..تراه نسيني هو الآخر كما نسيني الموت هذه الايّام..؟يا لغبائي..!كيف أنساق وأنا بهذا العمر ،وهذه الحال من المرض وراء حلم يلازمني أطمع في تحقيقه حتّى آخر لحظة من حياتي..!؟ أرجو صديقتي أن أستيقظ غدا أو أكثره بعد غد، فأجدني ألغيته من قائمة أمنياتي،لأنّ الأمنية في وضعي هذا أصبحت حماقة أيضا.

كانت أمي تكرّر على مسمعي من دون توقّف نفس الكلمات،لا تملّها كلّما زارتني، تجول ببصرها في شقّتي،وتتفحّص كلّ زاوية من زواياها ثمّ تقول لي متنهّدة :

ـ تبقى سعادتك مرهونة يا ابنتي بما يتقبّله عقلك، وتستكين إليه نفسك.. فلو رضيت بالّذي تستيقظين عليه في يومك، أو أغمضت عليه جفنك ليلتك.. لشعرت بالارتياح، ولأقبلت على الحياة حتّى وإن كانت مساحة المسموح منها لا تتعدّى البضعة أمتار، فالقبيح يزاحم الجميل دائما..أنشري الفرح حولك بنغم..أنثري الياسمين في عينيك ودوسي على الزّهر..تخيّليه تحت قدميك.. فالأمر مرهون بك وحدك، ولا نجاة لتلك الرّوح الّتي تملكين إلاّ بك فلا مفاتيح لراحة بالك سوى الّتي بيديك..

كنت أسمع لكن لا أصغي..لأنّها حسب ما فهمته من كلامها تدعوني للرّضوخ، وهذا ما لا

أتقبّله..كنت من قبل أتمتّع بالعافية الّتي مكّنتني من المقاومة بصمت، ولكنّني صرت مؤخّرا كورقة تتلاعب بها ريح الخريف..ستسقط لا محالة ما أن تشحب وتيبس ،فلا رحمة تُرجى حين تهبّ رياح الخريف.وهنا يكمن الفرق.

سأقوم من جلستي هذه صديقتي، وأطفئ قنديلي لأنشد بعض السّكينة بين وساداتي وتحت غطائي الّذي أهدتني إياه أمّي رحمها الله يوم عرسي..لونه أبيض ناصع من الصّوف المنسوج بالنّول، تزيّنه خطوط حمراء بلون الحنّاء..لم يبل لأنّ مثله لا يبلى، فقد نسجته أيادي حرائر الجبل الأمازيغ.

محبّتك منال

فصل جديد من الصّداقة

ستقول لي صديقتي أشياء وأشياء عندما نلتقي أخيرا

هو السّفر إلى الحنين...

السفر إلى الحنين

احتويت رسالة **منال** الأخيرة بكلّ الاِهتمام الّذي تستحقه، وقرأت كلّ كلمة كتبتها بلهفتي المعتادة. تعجّبت كيف أنّ عطر التّراب الّذي تحدّثت عنه ينفذ إلى أنفي..حتّى أنّي تحيّرت، فلعلّ روحها تسكن بين طيّات هذا المكتوب، وكلّ ما سبقه، وألامس،وأستشعر نبضها في كلّ حديث تبوح به إليّ.هي تحدّثني ولا تكتب لي،فلو طاوعت خيالي بينما يدي تتحسّس، وتعدّ الصفحات الّتي ضمّها الظّرف لتهيّأت لي واقفة قبالتي تسحرني بابتسامتها، تخطفني من واقعي بجمال حدقتيها..لقد تلوّن العشب في عينيها أوّلا ثمّ سرت الخضرة سريان الرّوح في الجسد عند الميلاد الأوّل في الأرض،ها أنا أصابتني عدوى أحلامها لذا صار من الضّروري أن أرتّب أعمالي في مكتبي، وآخذ الاِذن من أسرتي الصّغيرة لأتركهم لأوّل مرّة، وأسافر وحيدة من أجل لقائها..لن أتوه عن موطنها الأوّل كما تسمّيه، فالتّلال والسّهول الّتي شهدت ميلادها وطفولتها غنيّة عن التّعريف، ولقد تأكّدت من خلال رسالتها الأخيرة أنّها مازالت تقيم في **الدشرة** حيث دارهم القديمة.. لذا وجب عليّ الإسراع حتّى لا أصل متأخّرة، فأجدها غادرت إلى شقّتها في الجنوب،وربّما غادرت الحياة.

السّفر شاق بالنّسبة لي بالسّيارة من **وهران** الى مدينة **سطيف**..رغم ذلك حرصت على السّفر بسيارتي حتّى أتمكّن من أخذ **منال** في جولات طويلة أرفّه بها عنها..نتشارك الفرح ونعيد لصداقتنا أيام مجدها.

بتّ ليلتي أعدّ حقيبتي، أرتّب ثيابي وأغراضي المهمة فيها، وأكتب قائمة للأماكن الّتي تمنّينا في يوم من الأيام زيارتها معا. رسمت خططا لأجلها، وحرصت على استحضار كلّ تفصيل أحبّه في شخصيتها من ذاكرتي لأجعله يبرز من جديد..أردت لها انطلاقة أخرى للحياة. عانقني زوجي ليلتها طويلا موشوشا في أذني:

ـ كم ستغيبين لأبدأ حساب ساعات الفراق من الآن؟ كيف هنت عليك والأولاد لتتركينا وحدنا كاليتامى..؟

ضحكت من اِبتزازه العاطفي لي، ثمّ وشوشت له بدوري في أذنه:

ـ أشتاق اِليكم من الآن لكنّها صديقتي وهي تحتضر..هل أتخلّى عنها؟

قبّلني كما لم يقبّلني من قبل، وهمس لي قبل أن يأخذنا الكرى كعاشقين:

ـ أعرفك..لن تتخلّي عنها.. وأنا أحبّك لأجل هذا ولأجل أشياء أخرى..

كان الظّلام مايزال جاثما، يلفّ الأفق عندما اقتلعني منبّه هاتفي من كابوس كلّ ليلة منذ بدأت أستقبل رسائل صديقتي:

أنا ومنال والضّباب وصرخاتها تزلزل كياني، وترعبني، بينما تتدحرج وتسقط في واد سحيق، فلا أقوى على اللّحاق بها مهما سارعت الخطو، كأنّ يدا تمتدّ إليّ من الخلف لتجذبني، وتعيدني إلى حيث كنت، ثمّ يحجبها الضّباب في آخر المشهد، فلا أعود أراها بعد أن غاصت في قاعه.

جلست على حافّة سريري حتّى تهدأ نبضات قلبي المتسارعة ،ثمّ قمت بعد أن هدأتُ، وتوارت صور الكابوس، لتحلّ محلّها صور اليقظة..تفقّدت زوجي، فوجدت مكانه خاليا. اِستيقظ شريك حياتي قبلي، أعدّ لي فطوري ولوازم الطّريق كما تفعل الأمّ عندما يتأهّب أحد أولادها للمغادرة..وقفت عند باب المطبخ أحدّق فيه ولم يبرح النّعاس جفني عندما رفع بصره نحوي، وهمس لي خشية أن يستيقظ الأولاد:

ـ صباح الخير حبيبتي..ألم تجهزي بعد..؟ لا تقلقي..لن ينقصك شيء أثناء الرّحلة فلقد حرصت على ذلك..لا تضيّعي الوقت..

بعد ساعة كنت في سيّارتي ،وكان يودّعني بقبلته الحانية من غير أن يخفي بعض القلق،فالمشوار طويل،ولم نفترق هكذا منذ تزوّجنا.

شعرت بدغدغة في القلب من فرط سعادتي؛عندما شاهدت نفس الوجه الملهوف والحريص عليّ لم يتغيّر منذ عرفته..كنت أودّ تقبيل الأولاد قبل المغادرة ،لكنّي استسلمت لرجائه أن أتركهم حتّى لا أفسد عليهم نومتهم،وكنت مطمئنة لأنّ الآنسة الّتي تركتها خلفي ستساعد أباها في الإعتناء بهم في غيابي عندما يتسنّى لها ذلك.

لا أخفيكم سرّا..ساورني بعض الخوف أنا أيضا..أخشى وحشة الطّريق في الظّلام، لكن شيئا فشيئا انقشع السّواد، ولاحت شمس الخريف من وراء الشّفق..قلت في نفسي:

هل لكلّ فصل شمس..؟الأكيد أنّه مستحيل..إذن هل للشّمس حلل مثلنا نحن البشر..تستقبل بها فصولها كما نستقبل نحن ضيوفنا..؟

هنا أيضا طرق ذاكرتي وصف صديقتي للسّماء وللشّمس في مدينتها بالجنوب، وكيف أنّهما تبدوان مختلفتين عنهما في أي مكان آخر.

ما أجمل أن تجد الرّوح الّتي تشبهك، و**منال** تشبهني، رغم أنّها تختلف عنّي في بعض التّفاصيل الّتي لم تكن في يوم من الأيّام عائقا أمام استمرار صداقتنا ،فمثلا..هي تتّخذ من الصّمت ملجأ وسلاحا لتعلن رفضها لما لا يناسبها ويتعبها عندما تسوء الأمور ، ينما أرفع صوتي من جهتي معبّرة عن كلّ ما يناسبني أو لا يناسبني لأنّ الصّمت برأيي لا ينفع صاحبه دائما،ولا يعني أنّه حكمة في جميع الأوضاع الّتي نواجهها.

أسافر كثيرا بحكم عملي كمحامية، لكنّني غالبا ما أكون صحبة زوجي الّذي يدعمني ويساعدني،رغم أنّه كان أحد زبائني ولا علاقة لعمله بالمحاماة .

إنقشعت الظلمة، ولبست الطّبيعة أثواب النّور ،وصارت التّضاريس أكثر وضوحا ،غير أنّي لست مثل **منال** في هذه أيضا، فأنا لا أدقّق سوى في ملفّاتي وقضاياي..أمّا التّضاريس الّتي تمرّ سريعة كمشاهد مخبّأة في دفتر الصّور ؛فلم تكن تعني لي الكثير لإنشغالي في غالب الوقت بالحديث مع زوجي،

لا أشعر بالمسافات الّتي نقطعها حتّى نجد أنفسنا قد وصلنا إلى غايتنا، فنقوم بمهمّتنا،ونعود أدراجنا مع المساء وكلّ همّنا لقاء الأولاد، وقضاء باقي ساعات اليوم صحبتهم.

يؤخذ المحروم بكلّ ما تقع عليه عيناه من جمال..كانت **منال** تقول لي دائما :
ـ أن تحرمي أحدهم من مشاهدة الشّمس وهي تشرق أو تغرب يعدّ عقابا حقيقيا **نوريّتي**..ثقي بذلك وأن تمنعي أحدهم من ممارسة رياضة المشي في الفضاء الفسيح،من غير حسيب ،ولا رقيب يعدّ أيضا عقابا شديدا..فما الحياة سوى ومضة ،سريعا ما تنقضي قبل أن ننتبه إليها..فما بالك لو عانينا الحرمان بسبب أحدهم من غير ذنب اقترفناه..؟ سنغادر الحياة يوما ما محترقين ببؤسنا..

اِستغرقت رحلتي تسع ساعات ،كي أجد نفسي بمدينة **سطيف** أخيرا، وأتّخذ منعطفا آخر إلى البلدة المنشودة..لا داعي لذكر الأسماء؛ فلا أهمّية لها عندما تتشابه التّضاريس في الشّرق والشمال ،وتسحرك الطّبيعة بكلّ صورها أينما ألقيت البصر..حتّى النّاس هنا يتشابهون من حيث الملبس ،وقصّات الشّعر وطريقة الحديث..تلك اللّكنة الّتي تميّز **الأمازيغي** الّذي لا يمانع في استعمال العربية سائر يومه إذا ما وجد نفسه مع من لا يحسن لغته الأمّ.

بعد ساعة أخرى من السّفر دخلت البلدة الّتي لا توجد فيها سوى ساحة واحدة ،وصادف أنّه يوم السّوق الأسبوعي..إنّه **الخميس**..تغيّرت ملامحها كثيرا منذ زرتها آخر مرّة، فلم تكن بها أعمدة إنارة، ولا مدرسة ،ولا ثانوية ،ولا دار للبلدية.. أصبحت على صغرها كيانا قائما بذاته بما وصلت إليه من تطوّر في المرافق..بقيت أغلب البيوت على حالها؛ دلالة على أنّ أهلها هجروها إلى المدينة، أو أنّهم اتّخذوا لهم منازل أخرى أقرب إلى الحضارة حسبهم..لعلّ السّبب الرّئيسي في ذلك أيضا هو العشرية السّوداء الّتي حوّلت قرانا وبلداتنا إلى خرائب، ومساكن للبوم والغربان، فرغم عودة الأمان إليها لم يرجع أغلب النّاس لسائر عهدهم.. كانوا قد تعوّدوا على حياة المدينة وصخبها..

تركوا حياة الجنان لينصهروا في عالم فقد أغلب مزايا الحياة السّليمة..خرجت من البلدة متّخذة منعطفا عبر طريق جبلي، بدأت تتّضح معالمه شيئا فشيئا..كنت في البداية أخشى على سيّارتي منه لعلمي بوعورته، وإذا بي أجده طريقا سالكا معبّدا..تلك هي قرية **منال** تلوح لي من بعيد في المنحدر..مهما ارتفعت هذه الأخيرة تبقى محاطة بجبال تحرسها مثل لؤلؤة تلقى أمانها في حضن صدفة..هكذا نجت هذه الدّشرة من قصف الطّائرات الفرنسية أثناء حرب التّحرير عندما لم تجد إليها سبيلا بعد عدّة محاولات،جعلت طائراتها تتعرّض لحوادث اصطدام بقمّة ذاك الجبل أو ذاك..فما كان على ضبّاطها آنذاك إلاّ اقتحامها بعسكرهم مشيا على الأقدام ،وبآلياتهم الّتي أثبتت فعاليتها في أماكن أخرى، وهنا أيضا وجدوا صعوبات جمّة، لتتحوّل في الأخير إلى معقل لجنودنا الّذين كانوا ينشدون الراحة ،وتطبيب جراحهم بعد خوض معاركهم.

لم يكن من السّهل العثور عليها..كان من المفروض أن أكتفي بقراءة اللاّفتات، وأستغني عن السّؤال لكنّي خشيت أن أجدني أسلك طريقا يؤدّي بي إلى المجهول ،خاصّة أنّ الوقت تجاوز الظّهيرة..بقي عليّ التوقف بسيارتي، والسؤال عن بيت صديقتي بعد وصولي إلى مدخل القرية .

كان المسلك عبارة عن منحدر بالسّيارة.. وجدت نفسي بعد أن ركنتها وتأكّدت من فراملي ووضعها الصّحيح أستسلم لقدميّ تتدحرجان مع المنحدر أيضا، واكتشفت أنّ الحذاء الّذي ألبسه لا يناسب وعورة هذا الدّرب..صرت أحاذر ما استطعت مخافة السّقوط.

حتّى الحجارة رائعة في هذا المكان وكأنّها موضوعة عمدا على هذه الصّورة.

ستتخيّلون **نوريّة** تنزل من قمّة جبل إلى السّفح..صدّقوا خيالكم لأنّ هذا فعلا ما حدث تقريبا فالبيوت متراصّة في سلسلة..ما أن تصل إلى آخرها حتّى تجد السّفح ما زال بعيدا بعض الشّيء..هي الجزائر العميقة حيث كنت، فكان لزاما عليّ طلب النّجدة لأنّي نسيت موضع بيت **منال**..رحّب بي كلّ من قابلتهم في طريقي إلى هناك،

وتبعني بعضهم معبّرين عن سعادتهم بي حتّى لقيت نفسي وجها لوجه مع والدها الجالس على مصطبة حجرية بجانب بيتهم..أبسطت أسارير الشّيخ الوسيم ما أن عرف أنّي صديقة ابنته **الوهرانية**، فسارع إلى التّرحيب بي،وفتح الباب الضّخم ذي المزلاج الكبير الّذي وصفته لي منال في إحدى رسائلها على مصراعيه مناديا على الجميع:

ـ أخبروا منال..! جَاءت صديقتها **الوهرانية..**

ثمّ التفت إليّ قائلا ببهجة:

ـ زارتنا البركة يا ابنتي..أدخلي..أنت في بيتك..

للعيون رسائل صديقتي ، فهل وصلتك رسائلي؟

أنا أشتاق إلى الزّهر..أشتاق إلى تغريدات الصّبح..أشتاق إلى الأمس.

أشتاق إلى اليوم..أشتاق إلى الغد..أشتاق إلى الشّتاء والدّفء.

أشتاق إلى الصّيف والشّمس والبحر..أشتاق إلى كلامك وهمسك.

أنا باختصار أشتاق إليك..فهل وصلتك رسائلي..؟ أنظري إلي..

ولجت عالما حفظت زواياه من خلال رسائل صديقتي ،بعد أن كنت نسيته منذ أوّل وآخر زيارة لها قبل زواجها حيث أمضينا أجمل صيف معا..حينها فقط تذكّرت الأسطر الغامضة الّتي تركتها لي وقرأتها بعد كلّ تلك الأعوام.. كان الشّريان الّذي قطعته هو ما وصلت إليه علاقتها ب**جواد** والباقي أنتظر أن تشرحه لي بنفسها.

كانت صورتها راسخة في ذهني، لكنّي كنت مرتبكة أيضا وسط هؤلاء النّاس الفرحين بمقدمي.. بحثت عن وجهها بينهم، وهاهي إِحداهنّ تسحبني من يدي لنصعد الدّرج الّذي بتّ أعرفه تماما ،فنعبر شرفة من الحجر والخشب، تصطفّ على جنباتها أربع غرف كتلك الّتي نراها في أفلام الغرب الأمريكي ..هل يا ترى كان الأجداد قد شاهدوا عيّنة من هذه الأخيرة كي يبنوا بيتا تحفة على شاكلتها..؟ كانت حجرة **منال** هي الخامسة في الزاوية.

دقّت أختها باب غرفتها برفق، كأنّها خشيت أن تؤذي الخشب القديم المصنوع منه.

كان مصبوغا بالأخضر،وكنت كمن تقف عند باب أحد الأضرحة . ترجو الرّضى والبركة . ثمّ فتحَته، وابتعدت لتدعوني للدّخول أوّلا. ما أن واجهتني النّافذة الصّغيرة في الجهة المقابلة مفتوحة حتّى أدركت أنّها سمعت كلّ شيئ، وتأجّج الألم في صدري عندما وقع بصري عليها ،بينما نكّست عينيها عندما عرفتني، فلم تكن تتوقّع أنّ **نوريّتها** ستقطع أخيرا كلّ تلك المسافة لتزورها..لعلّها ظنّتني خيالا تمثّل لها عبر إحدى هلوساتها الّتي تستولي على عقلها ما أن يبلغ بها الوجع مداه ،فلا تعود تتحمّله ،وتتخطّى الواقع لتستأنس بالأطياف..لكن هل ستكذّب أذنيها أيضا ؟

اِنهمر خيطان من الدّمع على خدّيها،واتّخذا سبيلهما إلى جيدها ثمّ إلى صدرها..انفجر الغدير المالح في عيني صديقتي وفاض..غطّت رأسها بملاءة سريرها ،ففهمت أنّها حزينة لأنّني أراها الآن على حقيقتها، وليس كما كانت تصف لي نفسها،غلبني التّأثّر،

وواجهت صعوبة بالغة في السّيطرة على نفسي.دنوت منها وجلست على حافّة الفراش للحظات ،ثم ارتميت عليها أعانقها، وأقبّلها والملاءة باقية تمنعها منّي..كنت أعلم أنّ القبلة تصل إلى الجبين والخدّ وكلّ الوجه ،رغم الحاجز الّذي يغطّيها من رأسها حتّى أخمص قدميها.

همست لها:

ـ أنت يا حوريّة الشّعراء..! يا ملهمة العاشق الولهان..! أنت ياصديقتي لم تتغيّري..أزيحي السّتار يا **عشتار..!** أريد أن أملأ عينيّ المتعطّشتين إلى النّور والبهاء بكلّ ما فيك من نور وبهاء ..أفصحي عن وجهك ياجاذبية الأرض..! هذه أنا **نوريّتك** إلى جانبك فعانقيني واشمليني بالرّعاية يا ملكة الحبّ والصّداقة..

سمعت شهقاتها المكتومة، وشعرت برعشة جسدها تحت الغطاء..اِنبعث صوتها متقطّعا بفعل النّحيب قائلة:

ـ صرت بشعة **نوريّتي** فهل صدّقت رسائلي وآمنت بي..عندما كنت أجمّل نفسي على الورق فأحوّلني إلى أميرة تجلّت فتنة بعد المرض..؟ أوّاااه **نوريّتي**..هدّني المرض فلا جمال.. ولا أمنيات..ولا حبّ أرجوه بعد الّذي حدث معي..

تماسكت كي لا يبدو تأثّري بما كنت أسمعه منها، وقلت لها:

ـ في أعماقك جمال يسع الكون **منال**..ما الجسد سوى مادّة والرّوح جوهرها..أزيلي الغطاء عن وجهك ودعي السّعادة باللّقاء تغمرنا..دعينا لا نضيّع زمنا وهبنا الله إيّاه لنكون معا من جديد..انهضي فالحياة تنتظرنا..أستمتع بحكاياتك مكتوبة..لكنّي أطمح الآن إلى اِعادة المجد لصداقتنا..

سحبت الغطاء، وكشفت عن وجه غمرته الدّموع، واعتصره الألم ،واكتساه الشّحوب، فلا أثر للحمرة عليه.

قالت لي بصوت ضعيف :

ـ هل حقا أعجبتك حكاياتي الغريبة..؟

قلت لها بحماسة:

ـ أجل يا صديقتي..بل أكثر ممّا تتصوّرين..أنت فعلا مذهلة يا مذهلة..

أضافت باهتمام وهي تحاول السّيطرة على نوبة بكائها ،وتجفّف دموعها:

ـ لابدّ أنّ اِحدى حكاياتي نالت اِعجابك أكثر من الأخريات...قولي..!

قلت :ضحكت،وقلت لها:

ـ أي نعم..استمتعت بحكاية الأستاذ صاحب الشّفاه الغليظة..

اِنتزعت منها الضّحكة أخيرا، وها هي انطلقت من جديد تقصّ عليّ ما حدث، بينما خرجت أختها وأغلقت الباب علينا في صمت.

لعلّكم لن تصدّقوني لو أخبرتكم أنّي وجدتها جذّابة وساحرة ،رغم ما أعمله المرض فيها من أذى وتغيير..نحن فعلا محاطون بهالة تنبعث منها كوامن قلوبنا وأرواحنا ،فبقدر ما ملكنا من النّقاء يحوطنا النّور..هي معادلة بسيطة: **كن طاهرا تجمُل.**

إنتظرت أيّاما حتّى تتحسّن فتتمكّن من الخروج. تأتي عليها ساعات كنت أشاهدها تحتضر، وما بين المستشفى وفراشها كنّا نمضي الوقت كلّه معا..ثمّ تتبدّد الغيوم، وتصفو سماؤها، فيخفّ الأنين لتبتسم مجدّدا، فأبتسم بدوري من خلالها.كنّا نقضي معظم الوقت مستلقيتين على سريرها، بينما تتلقّى العناية الطّبّية، أو تحت ظلّ شجرة اللّوز في ساحة البيت الكبير.

تمهّلت حتّى تسترجع بعض قوّتها بعد أزمتها الصّحيّة الأخيرة لآخذها إلى مفاجأتها الأولى.

دهشت للطّريقة الّتي كانت تنتهجها في العيش، فهي رغم نحافتها الشديدة لم تكن تتناول غير الخضر والفواكه..أخبرتني أنّها أكلت لحم حيوان الضّربان ذي الرّائحة النّتنة عندما نصحتها بأكله إِحدى مريضات المستشفى حيث كانت تأخذ جلسة العلاج بالكيميائي، لأنّه حسبها يوقف تطوّر المرض. ضحكنا كثيرا يومها،وأصبت بالغثيان طيلة اليوم..كانت في كلّ مرّة تذكّرني أنّ لحمه لم يكن نتنا، ولكنّ الضربان يطلق تلك الرّائحة كوسيلة للدّفاع عن نفسه عندما يداهمه الخطر، فيعاودني الشّعور بالغثيان بينما تستمتع هي عندما تراني أقاومه..رغم ذلك كنت سعيدة بكلّ ما يدخل على قلبها الغبطة.

لم تكن ترتدي من الثّياب غير اللّون الأبيض، وأغلبها قمصان واسعة،وبناطيل فضفاضة،بينما لا يفارقها وشاح أمّها، ومظلّتها أينما ارتحلت..كنت أراها لا تعيش على الأرض،تطأها قدماها بينما تحلّق روحها إلى السّماء في رحلة استباقية في الزّمن المنتظر.

تزايد تقلّب الجوّ، وبدأ البرد يزحف إلى تلك المنطقة الجبلية..وجدت أولاد صديقتي قد غادروا إلى الجنوب لأجل مزاولة دراستهم..ودّعوا أمّهم مرغمين، وعادوا إلى البيت حيث والدهم بعد أن فضّلت منال البقاء لأيّام أخرى. أخبرتني أنّها لم تعد تطيق العيش في الأماكن المغلقة ،إذ تشعر بالاختناق ممّا يفاقم حالتها، لكنّهم حسبها لا يتفهّمون أو هم معذورون لحاجتهم لوجودها بينهم، ثمّ تعود وتتساءل:

ـ ما فائدة أن أكون معهم ما دمت لا أقوى على خدمتهم..؟وأحيانا لا أغادر فراشي لعدّة أيام..؟

قلت لها:

ـ وجودك بينهم يا صديقتي هو المهمّ ..وليس الأشياء الّتي تتحدّثين عنها...

كان اللّيل أصعب أوقاتي، فقد كنت أقاوم النّوم في انتظار أن تستسلم هي له. كم أعجب أنّ الأوجاع والأسقام لا تشتدّ إلاّ خلاله..

لشدّ ما يؤذيني صوتها حين تتأوّه لحدّ الآن كلّما تذكّرت تلك السّاعات الطّويلة الّتي حاولت أن أجعلها تسافر بخيالها أثناءها بعيدا عمّا كانت تعانيه ،لكنّها لم تكن تقوى على الكلام، ولا تفتأ تكرّر اسم أمّها على شفتيها..فهمت حينها لماذا كانت تكتب لي، وتفضّل الرّكون إلى زاوية وحدتها بعيدا عن الضّوضاء.

ها هو ضوء الصّبح يتسلّل من خلال شبّاك الغرفة، فقد تجلّت أخيرا شمس الخريف المضطربة من غير خجل..أشرقت مبدّدة الغيم الخفيف في ذلك الصّباح اللّطيف.

فتحت عينيّ على صوتها يغنّي في أذني، ويستدعيني للنّهوض سريعا حتّى نتمكّن من الخروج للنّزهة مخافة أن يتقلّب الجوّ..تساءلت بعد أن استوعبت استيقاظتي:

ـ متى هجعنا حتّى نصحو..؟

لكنّني هلّلت لها، وقمت من ساعتي حتّى لا أجعلها تنتظرني..أعتقد أنّني كنت أسعد منها لحظتها، وبعد ساعة كنّا ننزل المنحدر إلى منهل الماء ،ومنه اتّخذنا طريقنا إلى حيث البساتين ،بينما كانت لا تتوقّف عن الحديث،كأنّها تعوّض ساعات صمتها أثناء نوبات الألم.

قفزت على لحظة صمت سادت بيننا وقلت لها بحذر:

ـ لم تذكري لي شيئا عن زوجك منذ بدأت الكتابة لي إلاّ مرّة واحدة أعتقد يا صديقتي! ألهذه الدّرجة يزعجك الحديث عنه..؟ أم أنّ تفكيري القاصر معك غالبا أخذني هذه المرّة بعيدا وليس الموضوع كما ظننت..؟

قالت لي صديقتي:

ـ هل سبق وتناولت طعاما.. أظنّه كان شهيا في نظر هؤلاء الجالسين قبالتك حول المائدة

بينما تتدفّق الدموع من عينيك مدرارا..؟ تبتلعين اللّقمة وراء اللّقمة من دون توقّف وسط غصّة وشهقات لا سلطان لك عليها..؟

لا تُحترم الإختيارات والرّغبات والإشتهاءات في بيئة ترغمك على ابتلاع طعام تلفظه كلّ ذاتك..لعلّني حينها كنت أجترّ قيئي، فما أن تعود اللّقمة إلى حنجرتي حتّى أضغط على نفسي أكثر..فتعود، وتأخذ طريقها إلى معدتي وسط نظرات تلذّذ بمعاناتي كان يبديها أخي بكر أمّي وأبي..فهذه كانت إحدى انتصاراته **نوريّتي..** بُرمجنا على الاستسلام والتّقبّل منذ الصّغر..وإن تمرّدنا ذات عمر فإنّ الاختيارات ستكون حينها حتما خاطئة..

لم أتمالك نفسي ساعتها فقبّلت وجنتها.لا أعلم..ربّما لأعتذر لها بدلا عن الآخرين الّذين آذوها..أشاحت بوجهها عنّي ورفعت بصرها نحو الشّمس محاولة التّحديق فيها، ثمّ أغمضت عينيها مستسلمة لفشل المحاولة.

قالت لي صديقتي:

ـ هل ترين كم حاولت الصّمود من أجل النّظر في عين الشّمس..وكم فشلت؟ هكذا هو الحديث عن أب أولادي..كلّما حاولت الكتابة لك عنه وجدتني أخوض في مواضيع أخرى هي أكثر أهمّية عندي..لم أعد أقوى على ذكره حتّى بيني وبين نفسي..أنا لا أكرهه..أنا أحترمه لذا لا أتحدّث عنه..ولو كنت أحبّه كنت ذكرته في بداية ونهاية كلّ ما كتبته لك أو ربّما سأكتبه لك لاحقا..

ثمّ أردفت قائلة وأنا أنصت باهتمام:

ـ على فكرة **نوريّتي**..التّحديق في عين الشّمس يضعف البصر..والحديث عن أب أولادي يعرّضني للهمّ والكدر..ذكّريني بما شئت.. واسألّيني عمّا تشائين إلاّ عنه ،فإنّي طويت صفحته قبل أن أنظر فيها منذ عرفته..وحرصت على الابتعاد عنه ما استطعت بعد أن أصابني المرض..أنت صديقتي وقطعت المسافات البعيدة من غير أن تحملي عنوانا يدلّك عليّ، وتحمّلت قبلها هذيانا ضمّنتُه رسائلي..قولي لي بربّك! ما حاجتي للحديث عن شخص عذّبني بإهماله لي قبل وبعد مرضي..؟

دعك منه وتعالي نواصل نزهتنا ونقطف آخر حبّات توت بقيت عالقة بأشجارها..سهوت عنها أو كانت حينها لم تنضج بعد..

أنظري كيف أعدمني شوكها لكنّها تستحقّ أن تدمى يديّ لأجل متعة تذوّقها..

حدّقت فيها محاولة إخفاء تأثّري، وقلت في نفسي:

ـ كم أنت مدهشة يا صديقتي..! أنت الحياة فكيف أتقبّل أن يسارع إليك الموت..؟

إتّخذنا سبيلنا على طرف الوادي المحاذي لبستانهم، حيث تحصّنت أشجار التّوت البرّي، وانغمسنا في محاولة الوصول إلى تلك الحبّات اللّواتي استترن بعيدا عن الأيدي..كنّا يومها الطّفلتين **منال** و**نوريّة**..صار الوقت ظهرا..لجأنا إلى الصّفصافة لنستريح عند ظلّها والظّلال الّتي تصنعها كرمة العنب..غمرتني السّعادة وأنا أراني أقاسم صديقتي غداء: **فواكه الخريف** كما تسمّيها **منال**.

قالت لي مبتهجة:

ـ التّين غوايتي المشتهاة..

إستسلمت بعدها لتعبها، فتمدّدت واضعة رأسها على فخذي..شعرت حينها أنّي لست صديقتها فقط بل أمّها.كنت أحسّ بضربات قلبها المتسارعة ،وباضطراب أنفاسها.

بعد برهة رفعت بصرها إليّ،وقالت بصوت طروب :

ـ أريد أن أثمل..هل يوجد شيء آخر يجعلنا نسكر ونتخدّر غير الخمرة **نوريّتي**..؟ ففي العربدة متعة تجعل عقلك الباطن يخرج مكامنه.. فتقال الكلمات الخجلى ،وتخرج المواهب من مكمنها ساعتها..نغنّي فلا نكترث للمقام عندما نخطئه ،وللصّوت إن لم يكن جميلا.. نرقص كما نشاء ،فلا نحرص على اتّزان الخطوات..سيتبدّد معنى الجمال والرّوعة لدينا ساعتها ،فلا نعود نهتمّ لأي شيء..!

لم أصدّق ما تسمعه أذناي..داهمتني نوبة الضّحك المجنون..بالكاد فهمتني وأنا أقول لها:

ـ ما رأيك بالحشيش..؟ سنزور الآخرة..ندخل الجنّة، فنتحسّس أخبار المقيمين فيها ومن ثمّة نعود، ونغوص في نوم عميق.. لنصحو بعده بدوار خفيف ولكننا سنكون فرحتين..؟

إنطلقت بدورها تضحك ببراءة الرّوح الفتية الّتي أعرف، وهتفت :

ـ أنظري حولك..لدينا الكثير من أنواع الأعشاب فلتبحثي بينها عمّا يُسكر..لكنّني شاهدت أمّي ونساء **الدّشرة** يتناولن بعضها خضراء بعد أن ينفضن عنها التّراب النّديّ أو يغسلنها في مياه الغدير..ولم يتغيّر في سلوكهنّ شيئ،بل تطهو لنا أمّي عليها الكسكس فيأتي شهيا..

قلت لها مازحة:

ـ أيّتها المجنونة..! أنت تتخدّرين بالمورفين..ماذا تريدين أكثر من ذلك..؟

أجابتني بمرح أنعش روحي الحانية عليها:

ـ لكنّها لا تجعلني سعيدة ولا تحملني إلى الجنّة كما كنت تقولين..

ثمّ حدّقت فيّ بحبّ شعرت به يخدش قلبي بسكّينة الخوف من الفراق.قالت:

ـ لا عليك **نوريّتي**..أنا أمزح..هل ينقصني شيء وأنت خمرتي، وأنت عشبتي المسكرة..؟رويتني باهتمامك وصبرك عليّ..وأحطتني بالحبّ..ماذا أبغي أكثر من كلّ ذلك..؟

خيّم الصّمت بيننا لدقائق ونحن نتأمّل مشاهد الحياة الّتي تجري تحت أعيننا..كلّ شيء ينبض بالحب والتّناغم حولنا..فتحت عينيها ،وقالت لي فجأة :

ـ لقد سافر مخيالي منذ قليل إلى عالم الوهم **نوريتي**، وعاد بحكاية حقيقية كانت مهملة في جيوب ذاكرتي..حرّكها حديثنا عن السّفر إلى عالم الهذيان ،فصعدت إلى السّطح تطالب بحقّها في التمدّد على سطور دفتر ذكرياتك مع صديقتك..هل رويت لك ما حدث لعمّتي حين تناولت العشبة المسكرة..؟

قلت لها:

ـ نبعك فياض لا ينضب يا صديقتي..هات ما عندك يا شهرزادي..

اِعتدلت في جلستها، وراحت تنظر حولها كمن يبحث عن غرض مهم،ثم قالت لي:

ـ أحاول أن أجد تلك العشبة لأعرّفك عليها..نسمّيها بالقرية **السِّكران**..رغم ذلك نقدّمها لبقراتنا كغذاء مدرّ للحليب..هل تفقد بقراتنا توازنها بعد التهامها لتلك الأوراق السّميكة الطّرية والكبيرة المستديرة على شكل قلب..؟ لست أدري حقا..

كان الفضول يتنامى عندي كالعادة،قلت لها:

ـ وما علاقتها بعمّتك حبيبتي..؟

قالت لي:

ـ أنجبت عمّتي بنتيها بعد أعوام من الاِنتظار..وحاولت على مدار أعوام أخرى الإنجاب مجدّدا لعلّ الوليد القادم يكون ذكرا، فتسعد زوجها الّذي صبر عليها لكنّها لم تفلح في ذلك..ممّا جعلها عرضة لسخرية واحتقار نساء ورجال أسرة زوجها،الّذين كانت تعيش بينهم في دار كبيرة كدار جارتنا أمّ **الزّهرة** الّتي حدّثتك عنها..حاول المحيطون بها مرارا التّأثير على بعلها ليطلّقها أو يتّخذ زوجا ثانية عليها..ممّا جعل العمّة تفعل ما بوسعها لتنجب له الولد..هو أيضا لم يقصّر معها فقد أخذها إلى الأطباء بالمدينة..وباتت لليال ب **القرّابة** عند مقام الولي الصّالح..ربطت الشّريط وقدّمت القرابين في حضرته وكلّ ذلك كان من غير جدوى..جرّبت كلّ الوصفات التّقليدية، وتناولت كلّ ما حضّرته لها أمّها لعلّها تفلح في الحمل أوّلا ،وبعدها ستتمنّى أن يكون المولود ذكرا.كان آخر ما جرّبته هو مشروب **السِّكران** السّاخن..لك أن تتخيّلي إلى أين يحملنا اليأس من وضع لا يطاق، وحين يجرم الآخرون عندما يقحمون أنفسهم في شؤوننا الخاصّة..والاِصرار في نفس الوقت على النّجاح في ما يمكن أن نسمّيه تحدّي الأقدار..

قلّدت عمّتي البقرة وبدلا من أن تلتهم العشبة العصيّة على المضغ قامت بغليها وشربها كما تحتسي قهوتها في كلّ وقت..لك أن تتصوّري كيف أنّها فقدت عقلها لساعات ودخلت عالم الهذيان..ورغم ذلك حاولت أن تقوم بعملها المعتاد أمام ذهول وسخرية كلّ من صادفته يومها ورآها تضع ابنتها على ظهر البغلة قبل أن تضيف البردعة من فوقها لينهرها زوجها..وينقذ الصّغيرة في آخر لحظة..حلبت البقرة الّتي ألهمتها بهكذا فكرة ،فراح الحليب يغسل ظهر الإناء بسخاء وكان يجب أن يصب في قاعه فيملأه.. لكأنّ عمّتي أصيبت بلوثة في عقلها يومها..وكلّ ذلك لأنّها كانت مصرّة على أن تحقق مرغوب زوجها فتنجب له الولد..

إغتنمت فرصة أنّها توقّفت لتلتقط أنفاسها ،وسألتها:

ـ ألا ترين يا عزيزتي أنّك تتحدّثين عن عمّتك على أنّها المسؤولة الوحيدة عن هكذا حالة من العقم..؟ ربّما كان زوجها يعاني مشكلة ما منعته من الإنجاب مجدّدا..فلماذا تحمّلت المسكينة وحدها ثقل هكذا معاناة..؟

تمدّدت مجدّدا بقربي، ووضعت رأسها على فخذي . تبحث عن أمّها في **نورية** الحنون . وأسدلت جفنيها على شعور حزين غائص في ذكريات بعيدة ،وقالت:

ـ تنسين أحيانا الزّمان والجغرافيا حيث نعيش **نوريتي**..

يمر الوقت بسرعة..كما أنّه لا يرحم..ولا ينتظر أحدا.

لا تؤجلي يا صديقتي قراراتك الصائبة ،والمصيرية.

الياسمين والأمنيات

في هدأة اللّيل ،وبينما تركن **منال** إلى هدوئها ،وفي غمرة فرحتنا بيوم قضيناه معا سألتها:

ـ هل أنت بخير صديقتي..؟

نظرت إليّ تريد أن تستفسر بدورها، لكنّي سبقتها ممسكة بيدها المحمومة:

ـ أقصد..ألا تشعرين بالإعياء لأنّي أجد بك سخونة..؟أودّ أن أصحبك إلى مفاجأتك الّتي أعددت لك غدا..إن سمح وضعك الصحي بذلك..ما رأيك؟

همست لي وكلّ مافيها ينطق بالإمتنان:

ـ سأكون بخير ..مجرّد التّفكير في ساعات البهجة الّتي سأقضيها معك سيجعلني أتحسّن..ثمّ واصلت..تصوّري نوريّتي..! قلبي ليس صرحا فخيما يقيم فيه كلّ البشر ،ويتنعّمون في خمائله،لكنّني لم أكره يوما أحدا من هؤلاء الّذين تسبّبوا في شقائي، ومنهم أب أولادي..الغفران في حدّ ذاته انعتاق وحرّية..ألا تتّفقين معي..؟ سأغفر لجواد أيضا نسيانه لي..

قلت لها:

ـ كلّ الأشخاص الّذين نعيش معهم أو نقابلهم دروس في الحياة..سواء آذونا أم أحسنوا إلينا أنا سعيدة لأجلك يا صديقتي،فلقد أثبتّ لي أنّك تتعلّمين من غير أن تكرهي أو تحقدي وهذا في حدّ ذاته الدّرس الأهمّ..أنت إنسان بحق..حاولي النّوم الآن حتّى تستعيدي قوّتك لأجل غد آخر أعدك سيكون أجمل بإذن الله..من الضّروري أن نؤمن بالغد عزيزتي..بل من المهمّ أن نؤمن بشيء ما لنجتاز الزّمن الممنوح لنا بسلام ..

قالت لي صديقتي:

ـ الوساوس هي الّتي ستقتلني لو نعست عيناي من غير أن أبوح بكلّ ما يجول في خاطري أو يخيّم في ذاكرتي لحدّ الآن.. فلعلّني أموت في نومتي، ويبقى الكلام حبيس صدري..كنت من قبل أكتب لك،لكن ها أنت الآن معي..أتعذّب لأنّي متعبة هكذا، فتضيع فرصتي في ليلة أخرى أسامرك فيها..أخبريني: هل يبلغك صوتي فتسمعينه وتفهمين..؟

كان صوت صديقتي خافتا ،لكنّني سارعت أؤكّد لها:

ـ نعم حبيبتي بالتّأكيد أسمعك جيّدا..

تأوّهت فاخترقت آهاتها جدار صدري، وزلزلت كياني..وعرفت أنّ الألم عاودها، فلم أدر ما أفعل. كنت سأقوم لأستنجد بأحدهم، لكنّها بقيت متشبّثة بيدي ، وطفت كلماتها إلى السطح تقطر وجعا:

ـ أنا معتادة على هذا..لا تزعجيهم فأنت معي الآن..أطفئي نور الكهرباء، وأنيري القنديل كالعادة..دعينا ننعم بساعات عذبة، وجوّ دافئ بالمحبّة..الألم ينهك الجسد، ولا يطال الرّوح مهما شكوت لك من تعب..أنا في الفردوس الآن ما دمت معي تمسكين بيدي ،سنسبق القدر إن اغتنمنا الثّواني والدّقائق بحديث قلوبنا..اِخفضي رأسك وانظري..في أسفل سريري درج اِفتحيه..

اِمتثلت وفتحت الدّرج..فقالت:

ـ الآن..استخرجي الصّندوق الموجود فيه..

أخذته وناولتها إيّاه..كان قديما من الخشب الأحمر..الأكيد أنّه كان لأمّها،لكنّني لم أشأ أن أسألها خشية الحزن الّذي سوف يحدثه سؤالي. فتحته وأعادته لي قائلة:

ـ تلك هي رسائل **جواد** لي..لن أحرقها..وددت ذلك لكنّ الاِقدام خانني..

سأجعل منها آخر ذكرياتي وعناوين تعاستي..سأودّعه قبل أن أعبر إلى هناك..أريدك أن تحمليها معك عندما تعودين..فلم أعد أتحمّل رائحة الياسمين الّتي تفوح من الصّندوق..تصوّري! غيّرت مكانه مرّات ومرّات من دون جدوى..فكّرت وقلت في نفسي: لعلّ وجوده في درج سريري هو ما يجعل تلك الرّائحة قويّة تقتحم أنفي وتغزو أعماقي؟ أخفيته في خزانة ملابسي ويا لخطئي الفادح..وجدتني أرتدي الياسمين..وضعته في خزانة كتبي.. فتحوّلت كلّ أوراقي ودفاتري ورواياتي الّتي أحبّ لأشجار من ياسمين..

أصابني الهلع وأنا أسمعها تقول لي:

ـ أنظري حولك..ألا ترين أنّ حجرتي أصبحت كلّها ياسمينا..؟أتنشّقه مع هوائي،وأرشفه مع قهوتي وأتناوله مع دوائي..أبعديه عنّي لو أمكنك من الآن..ألقى في ذكراه عذوبة تحرّرني وتمضي بي بعيدا عن عالمي.. ومرارة تزيد من علّتي..فالعذوبة والمرارة ندّان تضارعا في العذاب عندي..لم أعد أنتظره بل لم أعد أطمع،فالحاضر والمستقبل تساويا لدي..كنت كتبت له رسالة..أنظري ستجدينها تحت فراشي..أخفي بعضا ممّا أكتب تحت وسادتي أيضا عندما أكون على عجلة من أمري أو يغلبني النّعاس..

قمت ورفعت الفراش قليلا، وسحبت الأوراق الموجودة تحته. ضحكت عندما تذكّرت حكايتها مع كتاب ألف ليلة وليلة ،وقلت لها مازحة:

ـ هل عدت تخفين أشياءك الثّمينة حيث يسهل على أخيك أو أحدهم اكتشافها؟

خيّل لي أنّها ضحكت بدورها ،أو هي فعلا ضحكت..اتّكأت على مخدّتي بجانبها بينما مالت عليّ، وأسدلت رأسها على صدري وكأنّها تلوذ إلي، لكنّها سرعان ما استغرقت في النّوم بينما كنت أقرأ ما كتبته..طابت نفسي أنّها أخيرا ستنال قسطا من الرّاحة..لذا تسمّرت في مكاني كي لا أزعجها ولو بتردّد أنفاسي،فقد استرحت لراحتها.

وددت حينها أن أقرأ بعضا ممّا كتبه لها ثمّ تراجعت،

ورحت ألوم نفسي على فضولي فقد طلبت منّي الإحتفاظ برسائله كأمانة لا أن أطّلع عليها..

لا أجد وصفا لما قرأته سوى أنّها كانت كلمات كتبتها يد فتاة مراهقة، لا علاقة لها بعمر السّيدة الهاجعة على صدري..كانت روحها الفتية تنطق على تلك الأوراق..تكتب سابحة كالطّير حين يصفو الجوّ، وتشرق الشّمس، فيحتلّ بأجنحته صفحة السّماء.

كتبت تقول لجواد:

عزيزي جواد

كنت تمنّيتَ حين كتبتَ لي منذ زمن لو خلقنا في عصر الانسان القديم ..ما أجملها من أمنية بدأت بها آنذاك رسالتك،من جهتي وددت لو خلقنا في عصر ليس فيه حجر ،ولا نار ،ولا معادن ،ولا فرائس نطاردها،وددت لو خلقنا في الزّمان سرمديين، فلا يوجد غيرنا والنّور. عالمنا كلّه نور وحيثما التفتّ لن ترى سواي، وحيثما استدرت لن أرى سواك.. مارأيك ؟ أليس جميلا أن تكون السّماء من نور،والأرض من نور..حتّى البحر والمحيط من نور؟ تهديني باقة ورد من نور، وتقبّلني فيشعّ وجهي بالنّور، وتضمّني إلى صدرك فأشرق وأضيء بالنّور..يا لجمال الصّدف عندما أكون على طريق تلاقيني فيه من دون سابق ترتيب..سأتزين من الآن، وأستعيد اِهتمامي بنظارتي ،بعد أن أهملت نفسي منذ وقت طويل. سأتوقّعني في كلّ يوم ألتقيك في كلّ زاوية حيث تقودني قدماي..تجلس بقربي على مقعدي في تلك الحديقة الّتي أرتاد..أقرأ كتابي فتمتدّ يدك الحنون تقلب صفحتي الّتي أطالع..أحتجّ لكنّني أحدّق فيها كأنّي أعرفها..أرجوها هي في أعماقي لكي أسارع اِليها فأقبّلها..ألتفت اِليك بحذر وقلبي يخفق وكلّي رجاء..لأجدك أنت..

فأقفز من مقعدي ولعلّني أطير..؟لا أعلم..لكنّي سوف أجنّ من فرحي، وربّما سأقبّلك وأعانقك تحت أعين تلك الجموع الّتي تشهد على لقاءنا يومها..ستحتار هذه الأخيرة في التّفسير... مازال للرّسالة بقية

●●●●●●●

لم أشأ التّوقّف عن القراءة، لكنّي أصبت بالتّيبّس في أطرافي ،فقد مرّت أكثر من ساعة و**منال** مستغرقة كطفلة في نومها العميق على صدري..نظرت إليها،وأشفقت عليها،لكن كان لابدّ لي من بعض الرّاحة استعدادا لسفرة الغد برفقتها..كم كان وجهها يوحي بالسّكينة والرّضا..سحبت نفسي بخفة وهدوء..في الواقع، لم تشعر بي مطلقا.لعلّ ما تتناوله من مضادّات الألم والمهدّئ يجعل النّوم يتمكّن منها أخيرا،فتغوص في العالم الآخر كما تقول بذلك العمق..قمت فأطفأت ضوء القنديل، وعدت لأخلد للنّوم بجانبها ،وعكس ما تصوّرته وقعت فريسة الأرق..انقشعت غيمة النّعاس عن جفني كحمامة أرعبها فحيح حيّة فحلّقت بعيدا عن عشّها..أمّا أنا فقد اجتاحتني الهواجس ،وأسلمتني للسّهد للسّاعات الباقية من تلك اللّيلة..تشبّثت بي **منال**، واستعارت قلبي المفعم بالحبّ نحوها منذ شهور.. خبّأت فيه أسرارها. .سأقضي ما تبقّى لي من العمر معتلّة ما أن أفتقد وجودها.

لم يبق الكثير على طلوع الشمس ،وأنا ما زلت مستيقظة متسمّرة عند النّافذة أتطلّع إلى السّماء، بينما تنعكس شعلة القنديل الّذي عدت وأشعلته على زجاج النّافذة. فعلا ،صديقتي ملهمة تجيد خلق السّحر في الأنحاء، فكلّ ما في حجرتها باذخ منشّط للخيال.

عدت لأتمدّد بجانبها ،ولم أشعر إلاّ ويد أختها تربّت على كتفي، تقول لي:

ـ انهضي **نوريّة** صار الوقت فجرا..

فتحت عينيّ كأنّني لم أحتج للنّوم مطلقا..ربّما تحمّسا لرحلتي المرتقبة مع **منال.**

جلت بنظري في أرجاء الغرفة أبحث عنها. قالت لي أختها:

ـ هي تحتسي قهوتها في الأسفل..

استيقظت منذ أكثر من ساعة وتبدو في أحسن حالاتها..صديقتك تنتظرك بعد أن تجهّزت للرّحلة..إلى أين ستمضيان يا عزيزتي في هذا الصّباح الباكر..؟

تفاجأت بها تدمع عيناها بعد أن أخبرتها. قالت لي بصوت يغلب عليه التّأثّر:

ـ كان ذلك اليوم أتعس أيّام حياتها، لكنّنا بنات وفي وقتنا ذاك محظوظات من درسن وتزوّجن بعد ذلك من اختاره القلب..لم تتوقّف **منال** يومها عن النّحيب واضطررنا إلى تزيينها عدّة مرّات ،حاولنا اِقناعها بالإستسلام للمكتوب بينما كانت تصرخ فينا بهستيريا:

ـ كان من المفروض أن أكون مع **نوريّة** الآن..هي لم تحضر زفافي لأنّها لم تكن لتتحمّل أن تراني أساق إلى رجل لم أختره..

فغرت فاهي مذهولة، وقلت ساخطة:

ـ هل ظنّتني ذهبت إلى الرّحلة يومها..؟ لقد أفسد زواجها علي حياتي لأنّي كنت أعلمها حزينة.. لزمت حجرتي لأيّام بينما كانت أمّي تلحّ علي أن أسأل عنها ،وأزورها بدل هذا الإعتكاف الّذي لا معنى له.. لم ألتقها من يوم أن افترقنا بعد إعلان موعد زواجها..كتبت لي خطابا لم أفتحه خشية أن أغتمّ أكثر، ونسيته بين أوراقي إلى أن اِطّلعت على ما كتبته لي منذ أشهر..لم أحظ بأي متعة بعد فراقها لزمن طويل..

كنّا نتحدّث بينما ننزل درجات السّلم إلى السّاحة، ومن ثمّ الولوج إلى المطبخ..قابلتني **منال** بوجه مستبشر شغوف بمعرفة الوجهة، وكانت عيناها تشعّان سعادة.

للفرح وقع السّحر على الوجوه..يحوّل القبح إلى جمال، والذّبول إلى إشراقة وحياة.. يحوّل الرّماد إلى سماد فينبت ورودا وأزاهيرا..هكذا انبلج الفجر على محيا صديقتي.

قالت لي صديقتي:

ها أنا بجانبك الآن...أضع حزام الأمان

تملكينني

إلى أين الوجهة يا سيدة الزّمكان ؟

كنت أستلذّ بكلّ نظرة شغف في عيني صديقتي، وبكلّ نبرة في صوتها تنمّ عن اللّهفة والدّهشة .شعرت بالفخر وأنا أراني أوقظ فيها مشاعر نسيتها منذ زمن..قلت لها بينما انطلقنا في رحلتنا، وبينما سيّارتي تسير من جديد على ذلك الطّريق الّذي كان في البداية طريقا شديد الانحدار، وتحوّل إلى عملية صعود للجبل، تعاني منها فرامل سيّارتي:

ـ سنلعب لعبة السّؤال والجواب يا **منالي** ما رأيك..؟

اِبتسمت وقالت في هدوء بعد أن أتعبها الإلحاح وتكتّمي الشّديد:

ـ أراك **نوريّتي** تستمتعين بلهفتي وشغفي لمعرفة المفاجأة..هذا تعذيب رقيق ماكر تمارسينه على صديقتك..إسأليني...

سألتها قائلة:

ـ أخبريني..ماهي أحبّ المتع اِليك ..أقصد الأمنيات صديقتي..؟ كوني دقيقة في الجواب حتّى لا نطيل الغموض..

قالت تسألني:

ـ هل تقصدين سعادة أخرى أرتجيها غير تلك الّتي أجنيها حين أرى أولادي ناجحين، وأتمنّاهم سعداء رغم ذلك الجفاف الّذي نعانيه في محيطنا لكأنّ بيتنا هو الصحراء بعينها..؟

لم أشأ التوقف عند ما سمعته منها، فقلت:

ـ أخبريني عن كلّ ما تحبين وتتمنّين عزيزتي..

قالت منال:

ـ أمنياتي.. فنجان قهوة أحتسيه في هدوء، وهذه سأبقى أحقّقها كلّ يوم حتّى أموت،

ونغم جميل يرافق خيالي السابح في الملكوت،

وهذا أيضا في متناول يدي كلّما حصلت على فرصة جديدة لحياة يوم آخر..وكتاب تطأ من خلاله قدماي أماكن ساحرة لم يمكّنني القدر من زيارتها ،أو أنّ الزّمن صار غير الزّمان، فمن الأحلام ما يعدّ ضربا من الجنون أحيانا.. كأن تتمنّي العيش فعلا في مكان كان موجودا، ولم يعد كذلك منذ مئات السّنين..أو قولي آلاف السّنين.. تستشعرين حلاوة الحياة فيه من خلال ما تقرئينه عنه، وتداعب عينيك الحالمتين صور أطلاله، وتدغدغ قلبك حكايات عن أناس صالوا وجالوا فيه..كانت أمنيتي أن أكون سبب السعادة لغيري..أخيرا أمنية تخلّيت عنها منذ وقت قصير..

عند أبواب كويكول..جميلة العتيقة

تورق الأماني ،وتزهر الأحلام.

زوجة ياخوس

تقلّب ذلك اليوم الخريفي، وتقلّبت معه حالة صديقتي..توقّفت عن الحديث، وصرت أسمع بدل الكلمات زفيرها المضطرب.كانت منهكة ،وقد أوشكنا على الوصول إلى وجهتنا قلت آسفة:

ـ لم يبق الكثير عزيزتي..لمَ لا تنامين أثناء الزّمن المتبقّي على الوصول..؟ستحتاجين لطاقة كبيرة اليوم كي تعيشي حلمك..دلّلي حواسك ببعض الهدوء قبل أن يبعثرها ضجيج مخيّلتك..

إبتسمت ،وقالت لي :

ـ أنت تعذّبينني عذابا جميلا **نوريّتي**..سأغمض جفني أراقص أمنياتي في انتظار مفاجأتك..فالفضول في حدّ ذاته متعب أحيانا..

وصلنا إلى مدخل المدينة على وقع رذاذ المطر الخجل..هي في الواقع بلدة جبلية هادئة، يرتادها قوافل من السّائحين والحالمين.. إنّها **كويكول** المدينة الآسرة. تقع على سلسلة جبال من التّلال، ومحاطة بالوديان. مكان استراتيجي يربط بين الشّمال، والجنوب، والشرق، والغرب..هكذا أرادها مؤسّسوها، وحظينا نحن بعد مئات السّنين بملامسة السّحر الّذي سكن حجارتها، واستنشاق عطر الماضي والحضارة الّتي بنيت عليها.

أخذت سنة من النّوم **منال..** أيقظتها قائلة :

ـ افتحي عينيك أيتها الفراشة..حان وقت التّحليق.

توغّلت داخل **جميلة الجديدة** باحثة عن جميلة القديمة بينما **منال** تحاول اِستيعاب اللّحظة.

كنت من الحيلة بمكان حيث حوّلت اِنتباهها عن كلّ لافتة صادفناها أثناء رحلتنا. كنت أسعى إلى الصّدمة الّتي تسعدها إن جاز لي هذا التعبير..ركنت سيّارتي حيث طابور طويل لسيارات سبقتنا إلى المكان ،ونزلنا نتحسّس طريقنا نحو وجهتنا بينما حدّقت صديقتي في المارّة،في البيوت، والمحلاّت..حتّى المدينة الجديدة فيها ما يقال ولكنّي سأكتفي بالقول أنّها بلدة جميلة بسيطة.

اِلتفتّ إليها وهي في أوج ذهولها،وقلت لها :

ـ بدأنا اليوم يا صديقتي حيث انتهينا آخر مرّة.. تخيّلينا ركبنا حافلة الجامعة، ووصلنا للتّو بعد ساعات قضيناها في المرح والغناء...

توقّف المطر بمجرّد أن بدأ، لكنّ دموع **منال** انهمرت هادئة من غير صوت. قلت لها:

ـ ماذا يحدث لك حبيبتي..؟ ألم تكن أمنيتك الّتي حرمك منها عرسك ذات يوم..؟ حتّى أنا لم ألتحق بالرّحلة لأنّك لم تكوني فيها معي..دعينا الآن ندخل البلدة الرّومانية دخول الفاتحين.. فالحرّية هي الجنّة..هي الاِنتصار الحقيقي..ها هي **كويكول** تفتح لك ذراعيها فعانقيها..هل أنت مستعدّة للعودة بروحك مئات السّنين للوراء..؟ ربّما كنت ابنة أحد أشرافها أو أحد قادة جيشها..لا تنسي أنّها شيّدت لأجل قدامى محاربي الجيش الرّوماني..ستجدين مرسوما على كلّ بيت من بيوتها اسم صاحبه أنظري معي..لعلّك كنت زوجة **ياخوس** مثلا..؟

كنت أضحك وأنا أقولها لها:

ـ سنلقي نظرة على ما آل عليه حال منزلك يا زوجة ياخوس!

أبسطت أساريرها قليلا . فأضفت بينما كنا نسير بهدوء جنبا إلى جنب نحو عمق المدينة:

ـ سندخل المدينة، ونلقي التّحية على الأرواح الّتي ما تزال تسكنها..لن نضع خطّة..سنبدأ فقط من البداية ونتبع خطواتنا..لن نغفل تفصيلا..

أتعرفين أنّك تقفين الآن فوق ممرّات تستطيعين السّير فيها واقفة..؟ ربّما كانت قنوات صرف للمياه،

أو مسالك سرّية للدّخول والخروج من وإلى **كويكول** خفية وبسلام عند الحاجة..لا أعلم..لا تنظري إليّ هكذا فأنا فعلا لم يسبق لي أن زرتها..سمعت عنها من الصّديقات بعد الرّحلة..ثمّ إنّي قرأت عنها بعدها كثيرا..

لست هنا بصدد وصف **جميلة العتيقة** بقدر ما أنا مهتمّة بما أحدثه وجود **منال** في هذه المدينة القديمة من أثر في حياتها بعدها ،إذ لم تكن المفاجأة بالأمر الهيّن عليها..دخلتْ التّاريخ كمن يدخل الميلاد..طفنا في زواياها طواف الحجّاج إلى زمن خلّدته حجارة، وتماثيل، ورسومات،وأسماء لأناس منحوتة على جدران المنازل تخبر عن ساكنيها ،ومكانتهم في ذلك الزمان .

المسرح الرّوماني..الكابيتول مأوى الآلهة **جونو** ،و**منيرفا** ،و**جوبيتر**..ذلك المعبد الكبير الّذي شيّد تكريما لأسرة **سيفي روسو** ،و**قوس النّصر** الّذي أقيم تكريما وتمجيدا للإمبراطور **كركلا**.

طفنا بالحمّامات منبهرتين بالذّكاء الفذّ الّذي كان عليه المهندسون في مدينة كانت تطلّ على التّلال عروسا شامخة، تخاطب وتتعامل مع ما حولها بكبرياء..تخيّلنا أنفسنا نتجوّل بين بيوتها،ودكاكينها وفي أرجاء سوقها،وكيف أنّ الأماكن وقتها كانت تعجّ بأصحابها، وتضجّ بأصوات الباعة والمشترين في نفس الوقت.

قالت لي صديقتي:

ـ ليتني عشت في هذا المكان منذ مئات السّنين..لكنت استمتعت بالحياة تنبض في داخلي وأنا أشاهد إشراقة الشمس كلّ يوم من فوق هذه التّلة أو تلك..ألامس النّجوم عندما تهبط في كفّي تواسيني وتزيل ثقل الوقت عن كاهلي..هاهو قوس النّصر!

دعيني أشعر بالقوّة وأنا أقف تحته..

اِنتصبت هناك مزيّنة الصّرح كإلهة جمال، توشّحت بالبياض، أو كعائد من زمن روما المنتشية بالنّصر، وأضافت وهي تبسط يديها نحو السّماء :

ـ تصوّريني مثل هؤلاء الّذين غادروا،وتركوا الأثر هنا..لكنت الآن أرمقك من فوق بعين الرّضا، وأشكرك على كرم الزّيارة من غير أن تشعري..لعلّي كنت سأحتويك بالمحبّة، فتغمرك البهجة حين تقفين في مكان كان يوما ما لي..

اغتمّ وجهها فجأة، وعادت تسير إلى جانبي متشبّثة بذراعي..لعلّها ذكرى **جواد** هي ما طاف بعقلها أو ربّما وجع ألمّ بها أفسد سحر اللّحظة حينها..هكذا فكّرت.

قالت بعد برهة من الصّمت المريب والمخيف:

ـ سأكتب عن كلّ ما شاهدته اليوم معك..لدي ذكريات تستحق أن تخلّد على الورق حتّى وإن خانتني القدرة على الإتيان بها بكلّ الدقة الّتي تستحقّها..أنا أحتاج دائما لقول المزيد يا صديقتي فالماضي لم يتركني يوما وشأني..يضرب داخلي بعزف منفرد لا مثيل له.. يفصلني عمّن حولي حتّى أغدو غريبة عن عالمي فأراه من فوق، وأدهش كيف أنّي أنتمي لهكذا مكان وزمان..كما أنّني أهوى العيش فوق الغيم **نوريّتي..**

ضحكت وشعرت بالمرارة تنبع من ضحكتها. كانت فسحة الغداء قد اِنقضت منذ ساعة، وواصلنا بعدها جولتنا..ربّما تتساءلون عن محتوى وجبتنا؟

لن أمرّ على الموضوع قبل أن أخبركم كي أرضي فضول بعضكم..كانت كالعادة فواكه فصلية وأخرى مجفّفة..أجهزت عليها منال بنهم، وكنا أنهينا التّجوال داخل المدينة العتيقة. لم أشأ أن أحمل معي خبزا أو أي طعام آخر،بل أردت أن أشاركها كلّ حياتها، وحتّى الوجع لو أمكنني ذلك.

كنّا عند باب المتحف الّذي ضمّ حليّ نساء ذلك الزّمن، وتماثيل المخلّدين من مشاهيره عندما شاهدت ـ فزِعة ـ أنف **منال** ينفجر كالينبوع دما. لم أستوعب ما يحدث حتّى تحوّل القميص النّاصع البياض إلى كتلة قماش حمراء. تنبّهت إلى خطورة الوضع ،وإليها تقف مشدوهة في صمت.عيناها ترشقان الأفق كأنّما تستعدّ للرّحيل. شلّ الخوف أطرافي للوهلة الأولى، واتّسمت ردّة فعلي الأولى أيضا بالفوضى، لكنّي سرعان ما تمالكت نفسي،فنزعت عنها مظلّتها ثمّ خفضت رأسها إلى الأسفل خشية من اختناقها بالدّم النّازف بقوّة من أنفها.

سارع الزّوار القريبون إلى نجدتنا أيضا، بيد أنّهم تملّكتهم الدّهشة ،أو ربّما الفضول أمام مشهد رأس سيّدة لا توجد عليه ولا شعرة واحدة.

تلاطمتني المخاوف ، فكيف لم أحسن التّقدير، وحمّلت **منال** كلّ تلك المشقّة. أهملت لساعات **صديقها** اللّدود المخادع..هاقد برز لنا من مكمنه ليفسد علينا خاتمة الرّحلة.. هي بالأسقام وأنا بجزعي عليها وحيرتي.تزاحمت الأيدي لحملها إلى سيّارتي، وتطوّع مسؤول المتحف لمرافقتي، فقد كنت كمن ضيّع بوصلته وسط الصّحراء.

نظرت إلى صديقتي المستلقية في المقعد الخلفي، فوجدت وجهها الّذي كان منذ ساعات مشعّا كمصباح أنار ليلة ظلماء قد استحال لونه أخضر قاتما. كنت أقود كالمجنونة لولا أن نبّهني الرّجل إلى التّركيز على اِنقاذها ،وطمأنني إلى أنّ كلّ شيئ سيكون على ما يرام بينما كنت لا أتوقّف عن البكاء بل عن النّحيب.

تبعد مدينة **جميلة** عن **سطيف** مقرّ الولاية بخمسين كيلومترا، لذا سارعت بها أوّلا إلى المستشفى المحلّي..اضطرب الطّبيب عندما أخبرته أنّها مصابة بالسّرطان، لذا حرص على نقلها على جناح السّرعة إلى المستشفى المختصّ بالأورام وأمراض السّرطان بـ**سطيف** بعد الإسعافات الأوّلية لوقف النّزيف، ووضعها تحت جهاز التّنفس لأنّها أصيبت بنوبة اختناق.

أكفهرّ الجوّ خارجا، واكفهرّت سماء عالمي..هاهو رجْع المطر ينقر على زجاج نافذة الغرفة حيث ترقد **منال**..قضينا ليلتنا بمدينة الهضاب العليا ،وغابت صديقتي عن وعيها حتّى بعد أن حصلت على دم أحدهم، وأوكسجين نقي، ومصل مغذّي..كانوا وجبة المساء بدل الفواكه الطّازجة والمجفّفة.

اتّصلت بوالدها، وادّعيت أنّنا لن نعود قبل أيّام لأنّنا نستمتع بوقتنا، فلم أكن أفهم ما يحدث مع صديقتي.أخذني الكرى على كرسي بجنبها، ويدي تمسك بيدها كصمّام أمان يطمئنها حين تفتح عينيها.

دغدغ صوتها أذنيّ كهاتف يهمس لي:

ـ تصوّري **نوريّتي**..كنت سألتحق بزوجي **ياخوس** لولا أنّك أسعفتني..كانت الأيدي تلوّح لي في السّماء أن هلمّي نحن في انتظارك..

رقص خافقي بين أضلعي غبطة بهذه الاستيقاظة الحيّة لصديقتي.. فتحت عينيّ على وجه باسم رغم مظاهر التّعب الّتي اكتسته ،وسعدت أكثر أنّها وجدت فيما حدث معها شيئا من الطّرافة فضحكت ملء جوارحها.

ما أجملك منال لمّا تضحكين..!

هكذا كنت أقول لها بعينيّ المحبّتين.همست لها بحبّ:

ـ الحمد لله على السّلامة عزيزتي..خشيت أن أفقدك..

قالت لي مطمئنة:

ـ الظّاهر أنّه ما يزال في العمر بقية **نوريّتي**..البارحة حلمت..أي نعم حلمت صديقتي..

سارعت إلى القول:

ـ خير إن شاء الله.. ماذا رأيت؟

واصلت تقول:

ـ رأيتني في حقلي تحوطني أشيائي الجميلة: عصفور الكناري الّذي مات ذات صباح فجأة وتركني وحيدة، وأمضيت بفراقه أيّاما حزينة..كان حيا في منامي يعانق رفيقته الّتي ماتت بعد يومين من الحداد عليه..حملت لي الرّيح أوراقي ودفاتري الّتي أحرقت..قبّلتني، وعانقتني حروفي القديمة..همست لي الرّيح بأغنية حبّي الأوّلى وأسعدتني بأنغام طفولتي البريئة..حتّى أنّني قطفت زهورا من ياسمينة كنت زرعتها وسقيتها بحبّ، لكنّها ذبلت، وودّعتني هي الأخرى بعد أن عبثت بها يد غريبة..هل خدعتني عيناي..؟سألت نفسي في منامي حين شاهدت صديقة الطّفولة مقبلة علي..تنبض بالحياة..أهدتني باقة من الزهور البرية..إن كانت هذه رفيقة لعبي..فمن تلك الّتي شهدت جنازتها ذات مساء..؟ احتضنتني وقبّلتني..ثمّ ودّعتني مبتعدة آخذة معها كلّ أشيائي الجميلة الّتي عادت حينها كما اعتقدت، وفتحت عينيّ أخيرا على ما أنا عليه الآن..مستلقية على سرير يشبه سريرا أنام عليه عادة عندما أقضي أياما في المستشفى، كما أنّني أجدها نفس الحجرة..أين نحن **نوريّتي؟**

أجبتها:

ـ نحن في مستشفى مدينة سطيف حبيبتي..

هممت أن أسألها عن الطّفلة رفيقة لعبها عندما دخل الطّبيب المداوم تتبعه الممرّضة..

أسفر وجه صديقتي عن اِبتسامة عريضة ممزوجة ببعض الأسى عندما رأته ،وقالت:

ـ ألم أقل لك أنّني في مكان أعرفه..؟هاهو الحكيم صديقنا..

لا أمان لمرض صديقتي كما أكرّر دائما تماما كسماء الخريف..مكثنا لأيّام في تلك الحجرة الّتي تحوّلت فجأة إلى مكان حميم، تلتقي فيه الصّديقات ،ويحلو فيه الحديث والسّمر، ينشج فيه ويالعجب الأنين وتردّد الآهات ،فقد أنهك المرض الخبيث أجسادهنّ، ويكاد يهزم أرواحهنّ..خضعت **منال** خلال الأسبوع لكافة التّحاليل، وذهلت كيف أنّ الجميع يعرفها ،تلقّت العناية الّتي كما علمت من طبيبها لن تهدّئ إلاّ بعضا من مظاهر المرض المستشري فيها ،لكنّه بالمقابل استغرب كيف أنّها مازالت تقاوم، وكيف أنّ وضعها الصّحيّ مستقرّ على حاله بعد آخر زيارة لها منذ شهور، كان إلى مدّة قريبة يتوقّع وفاتها،رفضت جرعة الكيمياوي بشكل قاطع ،فلا مجال لإعادة النظر من جديد في طريقة التّعاطي مع المرض.

هل يمكن للحياة أن تنساب رقراقة هانئة في مكان تعطّره روائح المرض، والدّواء، والبنج؟

وتصاحب هجعاته واستيقاظاته الأوجاع، والصّرخات، والأنّات..؟ أجل، لمَ لا..؟ما دام عامرا بالإنسانية والدّفء..ها أنا أظفر بأيّام هانئة لدرجة جعلتني أنسى أحيانا أنّي أمكث حيث يحوم الموت فوق رؤوس النّزيلات، فأهمل السّؤال عن زوجي وأولادي، فقد أخذتني **منال** إلى عالمها طوعا ،وحبّا.

ليلة السّمر الأخيرة بالمستشفى

منال سليلة الغيلان

بقيت ليلة واحدة ونغادر المستشفى عائدتين إلى القرية، بعد أن إستحسن الطبيب خروجها طالبا منها الإعتناء أكثر، وتجنّب الإجهاد ،مؤكّدا لي على جنب أنّ فرصها في الحياة معدودة رغم استقرار حالتها.

هنّأتها قائلة:

ـ أنت بطلة صديقتي..تقاومين هذا الدّاء بشراسة..

ردّت بشموخ:

ـ أنا سليلة الغيلان **نوريّتي**..فكيف لا أهزمه وقوّتي تتعدّى حدود البشر؟!

قلت لها مندهشة:

ـ بالله..؟! أليست الغيلان وحوشا ،ومجرّد خرافات تحكى للأطفال فيخافوا، فيناموا..؟

إغرورقت عيناها بالدّمع لأنّها تذكّرت أمّها ،لكن سرعان ما تمالكت نفسها ،وقالت:

ـ أخبرتني أمّي ذات يوم أنّ جدّي الأوّل جلب زوجته الجميلة من قرية اِسمها **تنيري**..لا أعلم أين تقع بالضّبط ولم أدرِ عنها شيئا..مرّت الشّهور الأولى من زواجهما بلا غيوم، ولا كدر،وعندما حملت طلبت منه أن يشتري لها أغراضا بالعدد سبعة..يعني..مثلا: سبع محارم، وسبعة فساتين، وسبع أساور..إلى ما هنالك فلم أعد أذكر باقي الأغراض..حكت لي أمّي رحمها الله أنّه عندما داهمها المخاض اتّخذت لها غرفة قصيّة في الدّار، وأغلقت على نفسها فيها ،محذّرة إيّاه من أن يتبعها، أو يستنجد بإحداهنّ لتحضر ولادتها ممّا جعله يستغرب الأمر،دفعه الفضول لمعرفة ما تخفيه ،فصعد على سطح الدّار وأزال قرميدة ليرى ما يحدث..لكنّ ضوء الشّمس المتسلّل للغرفة جعلها تتفطّن له ،وقد كانت وضعت سبعة توائم..سارعت إلى اِلتهامهم الواحد تلو الآخر، فلم تبق سوى على واحد بعد أن أقسم عليها متوسّلا أن ترحم أبوّته.. وهكذا أنقذ جدّنا نسلنا،

ولم تنجب جدّتنا **الغولة** سوى هؤلاء السّبعة..كما لم ينج سوى المحظوظ الأخير كما قالت أمّي : **بقيت البذرة..**

فغرت فاهي من الدّهشة،وقلت لها:

ـ ليست سوى أسطورة أو خرافة يا صديقتي..

اِبتسمت **منال**،وكنت أستشف ألما بالغا يكتسي وجهها،ودموعا تروي الحقل الأخضر في عينيها،قالت:

ـ أجل..ربّما هي أسطورة.. لكنّي أحبّ أن أصدّقها..لأستمدّ منها قوّتي وصمودي في وجه صديقي اللّدود..من الوهم ما ينجي **نوريّتي**..هكذا تعلّمت مؤخّرا من بين ما تعلّمت.. تمجّد الأساطير وتحقّق أحلامنا المستحيلة..نستحلي فيها الوهم والسّراب،ونخرج من كلّ أسطورة نقرأها أو نسمعها مرتاحين بحكمة تعلّمناها.. لم تكن **الأوديسا لهوميروس** مجرّد قصيدة طويلة لحكايات يمكن أن ينام عليها أطفالنا، بل كانت رسائل وملاحم في الحبّ والحرب والشّر والخير، وكلّها مواعظ لضمائرنا كبشر..

تناولت صديقتي محلولها الوريدي في يدها، وقامت مستندة بيدها الأخرى على كتفي، وقالت:

ـ ما رأيك لو نقوم، فنلقي نظرة على زميلاتي في الغرف المجاورة..لعلّ إحداهنّ مستيقظة؟ الألم عدوّ النّعاس..ولقد أسدل ملاك اللّيل أجنحته على المعذّبات في هذا الرّكن من العالم.. ولم تبق غير ساعات هي الأخيرة لي هنا..أرجو ألاّ أعود إلى هذا المكان مجدّدا...

تملك الوحشة الأماكن، لولا نسائم الرّحمة الّتي تهبّ هنا وهناك.. يحوم الموت مدقّقا في الوجوه، ولا يخفّف من وطأته غير إنسانية المحيطين بتلك الوجوه باسمين لها، ومتفائلين لأجلها..أجدني أكرّر نفسي عندما أكتب هذه الكلمات لكنّها لابدّ منها..

تقول لي **منال**:

ـ لا تفلح الحقن الوريدية أو المسكّنات في ترويض الأوجاع عندما تزمجر داخلنا..

على يسار غرفة صديقتي تغفو إحداهنّ، تصلنا أنّاتها.لعلّها تصارع الوحش الخبيث داخلها..تتجاذبها أيدي اللّواتي أجهز عليهنّ قبلها، فهي تحاول الفرار متشبّثة بالحياة.

كانتا اثنتين في الغرفة.. في السّرير المقابل للباب مباشرة تحتضر سيّدة تجاوزت الأربعين، رمى بها زوجها بعد أن أنهكها المرض، وأنهكه جيبه وحرمانه بدوره.. ثمّ نسيها أهلها منذ أشهر بعد أن اطمأنّوا إلى أنّها حصلت على مأواها المناسب..هم في الحقيقة يقيمون في قرية نائية..يتعبهم السّفر في كلّ مرّة يأتون فيها للإطمئنان عليها، لذا توصّلوا بعد التّشاور بينهم إلى أنّ الخدمات الّتي تقدّم لها في المستشفى لن تحصل عليها إن بقيت بينهم، وربّما وجدوا غيابهم عنها لا يعدّ إهمالا أو قسوة..تسربلت برداء الصّبر لعلّها تشفى فتعود، لكنّها اجتازت ما تبقّى لها من الوعي في السّؤال عن أولادها، ومناشدة كلّ من يقف قرب سريرها أن يجلب لها صغارها..مزّقها الاشتياق أكثر ممّا مزّقها المرض.

منذ الصّبيحة فقط ؛كانت ممدّدة وحيدة في العناية المركّزة، ولأنّ المحارب مجهد قرّر النّزول عن صهوة جواده والإستسلام..حينها رأى الأطبّاء إعطاء قلبها الظّامئ للدّفء موتة تليق بجسد تقاذفته الأعاصير وبروح شغلها عن الأرض المقام في العلياء، هناك حيث لا يخشى المحارب من الغفلة أو النوم.

جلست **منال** على مقعد بالقرب منها ،وفعلت بالمثل..احترمتُ دقائق الصّمت الّتي سادت حينها بل قدّستُها. كانت واجمة كمن يؤدّي صلاة، ثمّ شاخصة إلى صدر رفيقتها في المرض يعلو ويهبط ،فقد كان أنبوب الأكسجين كمن ينفخ فيها الرّوح محاولا إعادة صاحبتها للحياة ثمّ إقتربت تهمس لها وتحدّثها.. نبّهتها قائلة بصوت خافت:

ـ ألا ترين أنّها في غيبوبة يا حبيبتي..؟ ولربّما بلغت جسر العبور إلى العالم الآخر..

اِلتفتت إليّ محتجّة:

ـ لقد شاهدت عدّة أفلام حيث البطل يحدّث المستغرق في غيبوبته عن أيّ شيء،وفي كلّ شيء ،وفجأة تتحرّك أصابع يده..ومن ثمّ يستيقظ في مشهد مؤثّر يسرق دموعك.. بل إنّ تلك النّجوى تهدّئ من روعه.. فيتهيّأ له المسير إلى مصيره حلما به حدائق غنّاء، يطوف فيها غير مبال بالمجهول مسحورا..ليست كلّ القصص والأفلام مجرّد تخاريف تتسلّى بعواطفنا، وتحملنا على غيمة الدّهشة لتلقي بنا في غيابة الأكاذيب..بعضها يحمل رسائل نبيلة تعلّمنا كيف نكون إنسانيين أمام الآخر المعذّب والوحيد..

أدمس اللّيل، واشتدّت وحشة تلك السّاعة..انتابني القلق من أن يتوفّى الله السّيدة ونحن بقربها، فقد شهدت **منال** ما يكفيها من عذابات الرّحيل..دخل الطّبيب المناوب ،وبدا قلقا بعد أن اِكتشف غياب الممرّضة الّتي كلّفها بالسّهر بقربها تلك اللّيلة.. بل شعرت بالغضب يجتاحه لولا أدبه الّذي حتّم عليه اِحترام السّاعة ووجودنا..رقّ لحال السّيدة الوحيدة بعد أن تعوّد على وجودها منذ شهور بينهم، فقد تحوّل المستشفى إلى مأواها الأخير..أشار إليّ بعصبية وحزن أن نخرج ،وكان سيقول شيئا ما لصديقتي المهملة في حقّ راحتها لكنّه تسمّر في مكانه، وأنصت بتأثّر لأنين النّاي المنبعث من حنجرتها في شدو ملائكي لا تتقنه سوى صديقتي..اِنحنت كالأمّ على صغيرها تضمّ يد السيدة بكلتا راحتيها، وراحت تغنّي بصوت رقيق كرقّة روحها:

وعيونها ياطيري.. وتقول فنجان

فنجان بالقهيوة.. ممتيليه

ياعيونك سود وحلوة.. ياعيونك

وسنونها ياطيري.. وتقول مرجان

مرجانة على اللّولو.. مختليه

ياعيونك سود وحلوة.. ياعيونك

وكفوفها ياطيري تحمل فيها.. الغيم

ياغيمة عالموارس معتليّه تنزل.. الميّه

بسهلي يطلع القمح ينادي ياصبيه.. ياصبية

يا وجهها يا طيري وتقول نجم.. سهيل

ياليلة بالمشاعل.. ممتليّه

يا نجومك فوق سهلك.. تبارك لك

ويغنّي يا نجومك يا طيوفها.. فجر

بيملالي القلب فوق جبينك.. يا صبية

ياعيونك سود وحلوة.. ياعيونك

هل كنت موهومة..؟ أم هي فعلا ابتسامة أفصحت عنها تلك الشّفاه المعدمة المعذّبة..؟ لعلّ ترنيمة صديقتي، والّتي كانت تهليلة من التّراث الفلسطيني هي ما أيقظ عروس أحلامها،وجعلتها تحلّق بروح مغتبطة بالرّحيل حيث الخلود.

بقدر عذوبة الحياة تكون مرارة الموت..بقدر ما نفرح ونهلّل للميلاد سيصدمنا الموت ،ويهزّ كياننا حين نراه يقطف أرواح حتّى الّذين لا تربطنا بهم صلة ..سوى أنّ دروبنا تلاقت ذات يوم في مكان ما ،وحزنّا لأجلهم لأنّنا تعثّرنا بهم يكابدون الألم.

كان واضحا أنّ **منال** تعاني خوفا هستيريا ساعتها لذا تمهّلنا حتّى نحصل على فرصتنا فنسحبها برفق لنعيدها إلى سريرها..أزالت المحلول الوريدي من ذراعها.. تغيّر الموضوع وازداد عددنا أيضا حيث صرنا خمسة: نحن والطّبيب وممرّضتان.

حدّثت **منال** السّيدة المستسلمة لسباتها عن أمّها ،وعن زوجة آدم اللّتان سبقتاها إلى هناك، وأنّها لن تكون وحدها..لم تحدّثها عن الموت بقدر ما وصفت لها عالما أجمل وأرحم،سيرحّب بها فيه هؤلاء الأعزّاء..همست لها بكثير من الحبّ:

ـ إن صادف وقابلت صبيّة بشعر كستنائي، لكنّه استحال للحمرة ،مخضّب بالحنّاء، يبست عليه، فهي تتناثر ،وتنشر عطرها حيثما حلّت..ترتدي فستانا يزيد عن طولها مترا مرفوع،ومشدود بحميلة جدّتها، فتلك هي رفيقة اللّعب صديقة طفولتي..بلّغيها سلامي وصادقيها لأنّ روحها حلوة، فلن تشعري بالغربة هناك..عيناها ملوّنتان بألوان الحقل الّذي كنّا نتمرّغ فيه غير عابئتين بالرّطوبة،حافيتي القدمين ،لا نهاب الأشواك..

السّيدة تحتضر..كنت أسمع دائما عن مرضى ماتوا مهملين على أسرّتهم في المستشفيات ممّا جعل أهاليهم يرسلون صرخات الاحتجاج والشّكوى، لكنّي وقفت في ذلك اليوم على مشهد درامي، لا أملك اللّغة المناسبة الّتي تمكّنني من وصفه.. أبعدنا **منال** بصعوبة بالغة إلى غرفتها.. كانت تنتفض كطائر وقع من عشّه في يوم عاصف..لا يدري كيف يحمي نفسه، أو يحلّق مجدّدا..انتهى كلّ شيء فجرا،وركبنا السّيارة فجرا وغادرنا عائدتين، نحمل معنا الكثير من الحزن..نعزّي نفسينا أنّ الإنسانية أثبتت وجودها في لحظات احتضار نفس بائسة.

عندما نستطيب العيش من خلال ثقب تسلّل منه نور أتيح لنا

وندير ظهورنا لما كان ينغّص علينا حياتنا..سيحارب المستبدّ ظلّنا فهل

يتأذّى الظّلّ..أو يُقتل؟!

موسم الموت

اجتهدت في قيادة سيّارتي بشكل يريح صديقتي رغم الإجهاد الّذي نال منّي بعد ليلتنا المضطربة في المستشفى..كنت أرقبها خلسة لأطمئنّ أنّها بخير بالرّغم ما مرّ بنا.

أنيقة **منال** حتّى في نومها..تغمض عينيها فتشعرك أنّها تستمتع بحلم يقظة ليس إلاّ..سحرني وجهها المضيء ،فصاحِبتُه في الأخير تتبع قدرها بأجنحة من سلام.. تنشد حرّية انتزعتها بعد أن عبّدت طريق الرّحيل.

ليست معالم الطّريق الّذي اجتازته سيّارتي وأنا وحيدة، أو مع **منال** بالمهمّة لديّ بقدر أهمّية ما تفوّهت به ،وما كنت حريصة على الإحتفاظ به في ذاكرتي..لذا لن تجدوا في الحكاية ما تبحثون عنه، فلا اتّجاهات، ولا لافتات، ولا أسماء لمدن أو بلدات. لن تقرأوا إلاّ ما كان الأهمّ لدي وقتها، والباقي أتركه لمخيالكم ؛يسرح بكم مع كلّ سطر من أسطر حكايتي.

تململت صديقتي في مقعدها ،وفتحت حزام الأمان.. قالت لي:

ـ آلمني الحزام..فلقد أصبح كلّ ما يلامس جسدي يوجعني..حتّى المقعد الّذي يخيّل إليك أنّي أرتاح فيه يترك رضوضا على كلّ جزء منّي تهالك عليه..

سألتها بشغف:

ـ متى ستحدّثينني عن رفيقة اللّعب..فقد بدأت أغار منها منال العزيزة..؟

كنت بالطّبع ألطّف الجوّ، وأجعل من الطّريق مناسبة سعيدة..أتلذّذ فيها بكلّ ما يصدر من لسانها العذب..إستدارت إليّ محاولة التّماسك في جلستها ،وقالت لي:

ـ عندما نستطيب العيش من خلال ثقب تسلّل منه نور أتيح لنا، ونذير ظهورنا لما كان ينغّص علينا حياتنا؛ سيحارب المستبدّ ظلّنا فهل يتأذّى الظّلّ أو يُقتل..؟ أغمَضَتِ الأيّام عن تلك الذّكريات البعيدة..لم أكن تجاوزت السّادسة حينها..

كانت جارتنا الطّيبة زوجة أحد أبناء العمومة..وكم كنت أحبّها، وأتّخذ لي ألف حجّة لتسمح لي والدتي بالدّخول إليها وقت الغداء أو العشاء..فلا أحرم نفسي من لذّة تناول قطعة الكسرة..أغمسها كما يفعل أولادها في صحن زيت الزّيتون والسّكر..نضحك بين كلّ لقمة ولقمة لأنّ أيدينا الصّغيرة تتشابك حين تمتدّ في وقت واحد إلى الصّحن..فنغرف من رحيق الشّجرة المباركة.. بل إنّي كنت أترك قطعة اللّحم فوق طبق **الكسكس** المغطّى بالخضر لأعدو إليها ،قبل أن تفوتني نعمة الإلتفاف معهم حول قصعة **الكسكس** المسقي بمرق البصل ممزوجا بالحليب..كم كان شهيا كلّ ما تصنعه يداها..!

صمتت **منال** لتأخذ أنفاسها ،ثم عادت تقول لي :

ـ يجذبني الألم إلى دوّامته **نوريّتي** لكنّني أصمد ، وأشمخ بكبريائي حتّى أهزمه فهذا المرض حقير فعلا..

قلت لها :

ـ لحديثنا شجون..دعينا نؤجله إلى وقت لاحق عزيزتي..

واصلت تقول لي كأنّها لم تسمعني:

ـ لا أعلم إن كان ما أحكيه لك ذا معنى ، لكنّني أردت أن أصف لك ولو بالتّقريب الجوّ الغامر بالدّفء والّذي حظيت به بين أولاد الجارة الطّيبة..رغم العواصف الّتي كانت تهبّ على قلبها الحنون من حين لآخر..كان لديها من الأولاد الحسن والحسين..عمر، ومحمّد، والزّبير..صليحة، وخديجة ،وفاطمة، وزهرة وجميلة..لست أتذكر الباقين..إذ لا تكاد ترتاح من مرض النّفاس حتّى تحمل مجدّدا.. ستقولين لي أنّ الأمر طبيعي فهذا حال أغلب نساء تلك الحقبة عزيزتي..! سأقول لك أنّ الفريد فيها أنّهم كانوا مملكتها الّتي تتربّع على عرشها وتعيش فيها جنّتها، لكنّها بالمقابل لم تكن قادرة على المحافظة عليهم أو حمايتهم..جعلها استبداد **القبيلة** تهمل بعضهم حتّى يكفيها الوقت لخبز كسرتها لما يتجاوز الثّلاثين شخصا

يوميا، وتهتم بشؤون زوجات، وأولاد إخوة زوجها في غياب معيليهم الّذين كانوا قد قطعوا البحر المتوسّط إلى المهجر للعمل..ولأنّ القدّيسين والأنقياء هم أكثر النّاس عرضة للمصائب..فقد فقدت بعض أولادها بينما كانت تجتاز بشجاعة طريق الآلام..هل كانت أمّ الجميع..؟ لعلّها كانت كذلك حقا..؟ تلك السّاحرة العربية، صاحبة الخال على الخدّ الأيمن، والوجه الخمري الضّحوك على الدّوام، يحدث ريح أنفاسها الزّلزال حيثما حلّت وسط رجال الجبل،ولا تفارق رائحة الطّيب والعنبرصدرها..أعرف ذلك..فقد حظيت بالكثير من العناق والقبل على هذا الأخير الّذي لم يفقد من أنوثته شيئا رغم كثرة الإنجاب..

بدت **منال** أثناء سردها لماضي الطّفولة غائبة عنّي وعمّا حولنا، رغم هذا، أجزم أنّها تبصّرت في كلّ حدث قفز إلى سطح ذاكرتها..تصمت لدقائق طويلة لتلتقط أنفاسها..أدرك ما تمرّ به، فالإجهاد يحبس الكلام داخلنا ، ويفقدنا أصواتنا.. بعدها تعود إلى حيث انتهت أو تسألني أن أذكّرها لو نسيت..قالت لي صديقتي:

ـ كانت **الزّهرة** كما كان يحلو لنا أن نناديها أجمل بناتها..تخطف قلبك من أوّل نظرة..هي قطعا عروس الموت، فهذا الأخير يأخذ من الصّغار أجملهم وأحلاهم ،حتّى يترك حروقه في الفؤاد، ويمنعنا من نسيان أنّنا فقدنا أنقى وأبهى ما فينا..الحقيقة أنّ الّذين اختطفهم الموت من أولادها كانوا آية في الحسن بل وأؤكّد لك أنّهم كانوا أصحّاء..ماتوا في ظروف وحوادث تبعث على الأسى.. كانت الزّهرة تصغرني بعامين .. تشرق الشّمس علينا معا..وتغرب ،فنستبق اللّيل لنسرق المزيد من حبور الطّفولة..أقبل موسم الحصاد **نوريّتي**..وأذكر أنّنا كنّا نلعب الغمّيضة في البيدر..نختبئ بين السّنابل الّتي عانقت الشّمس فتشبّعت بضيائها، فغدت مبهجة للنّاظرين ،ثمّ عادت فخفضت رؤوسها خجلا وتواضعا مثقلة بحبّات القمح..توافد **الإيجارة** ـ كما يطلق عليهم أهل القرية ـ على بيادرنا، وتعاظمت مسؤولية النّساء حينها ككلّ المواسم..تطلّب ذلك جهدا مضاعفا لسدّ رمق هؤلاء الكادحين المتسلّحين بمناجلهم، والمحتمين بقبّعات القشّ من هجير الشّمس ولهيبها..

قدمت جدّتها لأمّها من المدينة . مسقط رأس جارتنا . ذات يوم،

وبقدومها رسمت الأقدار ل**لزّهرة** خارطة جديدة على ضفاف وادي الرّحيل والدّموع..كانت البقرة توشك على وضع عجلها، وكانت الجارة توشك على وضع وليدها..لا أذكر ترتيبه بالضّبط فالدّقة في عدهم تتطلّب منّي عدم اِهمال المتوفّين أيضا من صغارها..حسنا سأوجز لك..غادرت الزّهرة ذات صباح مع الجدّة يتبعها غبار الرّاحلين..تلاحقها العيون الحبلى..خبزت أمّها ل **الإيجارة** ،وجلبت من المنهل الكثير من الماء في أنصاف اللّيالي، وسرح الإخوة والأخوات في الحقول..لا يعودون إلاّ وقت الغروب كالدّجاج.. نجت **الزّهرة** من شمس الظّهيرة الحارقة كما ردّد والدها مرّات ومرّات.. أسلم أحد إخوتها الرّوح وحيدا في موسم الحصاد الماضي بعد أن اختنق برضّاعته..ثمّ إنّ البقرة وضعت عجلها وازدان فراش الأمّ بالوليد الجديد، وأعطوه كما درجت العادة اِسم الأخ المتوفّى لأنّه كان ذكرا هذه المرّة أيضا، ولو كانت بنتا لأعطوها اِسم أختها المتوفّاة ذات يوم بالحمّى..عادت **الزّهرة** ذات صباح إلى **الدّشرة** عروسا صغيرة ملفوفة في قطعة قماش أبيض.. اِختارها الموت ،ولم تتمكّن الجدّة من اِعطاء تفسير مقنع لسبب وفاتها..نتساءل لحدّ الآن: هل رحلت رفيقة اللّعب فعلا بالحمّى أم أنّ حادثا وقع لها..؟ لا تعرفين..حاولت أن أتلصّص وأتنصّت على كلّ الأحاديث الدّائرة حولها وقتها، لكنّي لم أفلح في كشف حقيقة المأساة.. اِنقضى موسم الحصاد الّذي أقبل بالرّخاء والنّماء آخذا معه بعضا من الحياة والهناء، وانتهت

بذلك معه طفولتي السّعيدة، فقد صرت بعده حكيمة،أساكن الصّمت..أناجي السّماء أغلب أوقاتي..أجلس بالسّاعات وحيدة تحت الصّفصافة..وهاهي هذه الأخيرة تؤرّخ لحزني، كما أرّخت للحوادث في أسرتنا.. كنت أحاول تصديق الحكاية الّتي تقول أنّ **الزّهرة** رحلت ولن تعود.. ثمّ أذهل وأفرك عينيّ بشدّة لأنّني كنت ألمحها أحيانا تركض حافية بعيدا نحو أشجار الرّمان المصطفّة على جنبات الوادي..لا تأبه للأشواك..وأقوم مسرعة ألاحقها ،وأركض بدوري خلفها..وعندما أتعب..

أتهاوى كورقة خريف حاولت التّمسّك بالغصن لكنّ الرّيح شعرت بالتّحدّي لمقاومتها لها..فصفعتها لتسقط على الأرض باكية نادبة حظّها..

لم أكن يوما محظوظة إلاّ بك **نوريّتي** فكلّ من أحببتهم تركوني وغادروا.. تفرّقت دروبنا أنا والزّهرة..دفنت هي بمكان غير بعيد عن دارهم.. نسمّي ذلك المكان **القُرّابة** لأنّه يحتضن قبر الرّجل الصالح..وغادرت أنا مع أسرتي إلى المدينة لنبدأ فيها نوعا آخر من الحياة..خالنا أهل **الدّشرة** صرنا من الذّوات، بينما غيّر أبي جلده فتخلّى عن شغفه بالأرض ،وباع ماشيته ،والأبقار، والمهرة البيضاء ليصبح مجرّد موظّف بسيط ،بالكاد يجمع مصروف الشّهر،كما أنّنا صرنا لا نرى الخريف إلاّ في المناسبات..

صمتت **منال** للحظات، ثم قالت :

ـ على فكرة **نوريّتي**..الخريف عندنا ليس مجرّد فصل يبشّر بقدوم الشّتاء..هو تسمية لباقة الفواكه الّتي تنضج خلاله كالتّين الّذي أعشقه..

خيّم الصمت مجدّدا بيننا، ولم يبق الكثير لنصل إلى حيث ديارها..اقتحمت سيّارتي نفس المسالك الّتي أصبحت تشقّها من غير عناء..تمسك صديقتي بمقاليد الإحساس لدي فتجعلني أضحك لحكاياتها، أو أذرف الدمع، وهذه المرّة مسحت دمعة،

وبالكاد سيطرت على رغبتي في البكاء بينما أخرجت هي رأسها من نافذة السّيارة، وحدّقت في السّماء ثمّ استدارت إليّ قائلة:

ـ لعلّ **الزهرة** ترمقني من فوق نوريّتي ضاحكة كما أتصوّرها..فوجهها البديع لا يُنسى..أبطئ وانظري على يمينك..تلك هي **القرّابة** حيث ندفن موتانا، وذاك هو قبر الوليّ..فلو شئت توقّفنا، فندخلها ونلقي السّلام على الأرواح الهانئة والهائمة فيها على حدّ سواء.. ثمّ نقرأ الفاتحة قبل أن نغادر..

كان اليمين من جهتي..أصابني الذّهول حين عرفت أنّ غابة الصّنوبر والبلّوط الّتي أثارت اِعجابي بأشجارها العالية العتيقة في أوّل يوم وطئت فيه قدماي هذا العالم السّحري؛ تضمّ قبور موتى القرية، ممّا أضفى عليها بعض الرّهبة في نفسي ،لكنّي بالطّبع لم أسمح لهذا الشعور السّلبي بأن يصل إلى قلب **منال** فأتعسها.

ركنت السّيارة على جانب الطّريق، وأمسكت بذراعها أسندها كي ننزل المنحدر المؤدّي إليها..كم كنت معجبة بشجاعتها ومغالبتها لضعفها، فالعناد أحيانا يتطوّر ليصبح عزيمة متينة تمكّننا من مواجهة المصاعب مهما كانت.. و**منال** تصارع أعتى وأخبث مرض على الإطلاق..اِمتزجت الوحشة والمهابة بجمال وسحر المكان المزروع في المنحدر الجبلي..لا تنسوا أنّ كلّ المنطقة عبارة عن جبال بينما برزت القرية كبنفسجة بين سفوحها، وتطلّ بدورها على ضفاف الأودية والمناهل العذبة.. اِنّها الجنّة في الدّنيا حيث يشقى أصحابها ليتنعّموا بعطايا الرّب فيها بعد ذلك.

كنت أسير على خطى **منال** بين الأعشاب البرّية والأشواك..أحاذر أن ينال منّي بعضها، فيعلق طرف بنطالي أو تقتحم إحدى الأشواك حذائي..لم أكن قروية مثل صديقتي الّتي كانت تسير بين كلّ ما أثار مخاوفي كنسمة أرسلتها بشائر الصّباح، لتطرح الطّمأنينة هنا وهناك، مبشّرة بهطول الغيث، مسبلا السّكينة على من أخذهم السّبات بين أشجار امتدّت جذورها إلى حيث هم تحت التّراب ،فتغذّت عليهم ولم تترك غير الجماجم والعظام..ولعلّها تنطق يوما،

فتقول :

ـ أنا الشّجرة فلان..فإنّي تشرّبت من روحه قبل أن تصعد إلى السّماء.. ونهلت من جسده حتّى انتشيت بالنّخاع.. ولم ينل الدّود منه شيئا.. فقد سبقته إليه..

نقابل روحا تجعل الحياة تزهر معنا.. وفجأة تذهب..ترحل..تغادر فتأخذ معها الرّبيع..

ألا يا روح رفيقة الصّبا لامسي خدّي مع النّسيم..ذكّريني بطفولتي البريئة وبأحلامي البسيطة..زوريني ليلا أو فجرا..كما تشائين..

وابسطي على قلبي وشاح الفرح..اِجعليني أبتسم ابتسامة الطّفلة الّتي ملكت السّهل والحقل والرّبوة مثلها مثل الأميرة.

مررنا بين شواهد القبور الخالية معظمها من أسماء أصحابها بعد أن تجنّت عليها تغيّرات المناخ، وأعمل الزّمن والإهمال، وربّما النّسيان لدى الأحياء من أحبّتهم فيها الكثير من التغيير..بينما توسّط مقام الوليّ ذي القبّة الخضراء المقبرة..تحيط به أجساد زارته في الأمس القريب أو البعيد طالبة البركة، متزلّفة به إلى السماء..مشت منال خطوات مبتعدة عنّي بمجرّد دخولنا إلى مخادع الموتى، ثم عادت إليّ واستندت على كتفي، بل رمت بكلّ ثقلها عليه بعدما نال منها الإجهاد ، وعدت أسمع من جديد تنفّسها المطعّم بالوجع، لكنّها **غولة** لا تستسلم..راحت تتفحّص القبور الواحد تلو الآخر باحثة عن مضجع الزّهرة كمن يحمل بوصلة تقوده إلى وجهته بينما بوصلة صديقتي في عقلها..لم تغفل أيّ تفصيل يؤدّي في الأخير إلى قبر رفيقة اللّعب..توقّفت في مكان ما أخيرا،وفعلت مثلها، وكان ضروريا أن نحجم عن التّقدّم أكثر لأنّنا صرنا على مشارف القرية في الأسفل ، نكاد نكون على حافّة المرتفع الّذي يطلّ عليها..أشارت إلى أحد القبور الصّغيرة وقالت لي:

ـ هذا قبر الزّهرة..

لكنّني نظرت حولي، فوجدت قبورا أخرى منتشرة حوله وقريبة منه، تكاد تلتصق به وصغيرة أيضا، كأنّها مجتمعة في حفلة ـ لا تنتهي ـ للمّ الشّمل،ولا أسماء على شواهدها الّتي كانت عبارة عن أحجار متوسّطة الطّول كالّتي تستعمل في البناء.

قلت لها في دهشة:

ـ إنّه من غير إسم مثله مثل هذه الّتي تجاوره.. بل يكادون يكونون كومة من تراب..نبتت عليهم الحشائش..والأزهار البرية..فكيف عرفته..؟

قالت لي صديقتي:

ـ أعرفه لأنّني لم أتوقّف عن زيارة **الزّهرة** منذ توفيت كلّما سنحت لي الفرصة، وأحيانا آتي برفقة والدتها..أسقي تربة القبر بالماء، وأروي روحها بأحاديث الطّفولة البعيدة ،

وأسرّ إليها بما آلت إليه حياتي.. هؤلاء هم إخوتها وأخواتها مجتمعون هنا يطلّون على القرية وكأنّهم ملائكة..يحرسون قلب الأمّ المكلومة فيهم..سيبدو لك لو قابلتها أنّها نسيتهم، بينما هي في الحقيقة تعيش معهم من خلال إخوة وأخوات أنجبتهم بعدهم ،وأعطتهم أسماءهم..ستنادي على **الزّهرة** كلّما نادت على شقيقتها..الأمّ لا تنسى، هي فقط تصبر،وتتصبّر بمن حولها من صغارها، وتنتظر يوم اللّقاء الموعود متفائلة لأنّ أبناءها سيقودونها في رحلة الخلاص إلى الجنّة..تسبح **الزّهرة** في عالم لا متناهي من النّعيم الآن..هل سأنال شرف قربها من غير أن أشقى..؟

أنظري حولك **نوريّتي**..يعجّ هذا المكان بأناس كالجواهر حين كانوا أحياء..تقضين اليوم تعيسة، لكنّهم ما أن يقابلوك حتّى ينتزعوا منك ابتسامة أو ضحكة من القلب، قصدوا أم لم يقصدوا ذلك..نحن مدينون لهم لأجل بذور الفرح الّتي كانوا يزرعونها في كلّ المسالك الّتي تشاهدين الآن، فطيبتهم الّتي وصلت إلى حدّ السّذاجة لن تجديها اليوم إلاّ نادرا.. لن يتغيّر النّاس لمجرّد أنّهم كبروا ،أو تعذّبوا بمآسي اختبرت قدرتهم على التحمّل في مراحل معيّنة من حياتهم..فهاهي والدة **الزّهرة** تُبتلى في طفلتها الأخرى الّتي أسمتها **الزّهرة** أيضا فقد توفيت بسبب البرد..هكذا يقولون، فرغم وفرة المحصول، وامتلاء المخازن بالقمح والعسل والزبدة الطّافحين من الجرار الضخمة..لم تملك الأسرة الفراش المريح ،والغطاء الدّافئ، ولا سبيل للتّدفئة إلاّ إن تجمّع الكلّ حول موقد الحطب الوحيد الموجود حينها في غرفة المعيشة الواسعة الّتي كانت تشغلها العجوز الكبيرة ليلا..توفيت الطّفلة الّتي لم يتجاوز عمرها وقتها ثلاثة أعوام بين يدي أمّها..تركت كلمات هذت بها ولّدتها رعشة البرد، ولم تجد الجارة المسكينة سبيلا حينها لإنقاذ ابنتها، واكتفت بضّمها إلى صدرها حتّى تيقنت من رحيل ملاكها، كما رحل الآخرون..يجب أن نعترف **نوريتي** بأنّ المرأة هي عدوّة المرأة وإلاّ فكيف تفسّرين أنّ هذه المتفانية في خدمة نساء الأسرة الكبيرة لا تحظى بالعرفان وببعض الرّحمة ،وهي تقاوم الموت..تحاول دفعه بعيدا عن ابنتها بينما جميعهن بمن فيهم زوجها مستغرقين في نومة هانئة..طلع الصّبح على جثّة هامدة صغيرة أخرى..حينها أصيبت بالصّدمة فعلا،

وحاولت إقناع زوجها بمغادرة القرية إلى المدينة مسقط رأسها، لكنّه رفض..كانت تخرج لأيّام تهيم على وجهها وحيدة تشاهد صغارها الغائبين في كلّ مكان .. **عينان ملوّنتان تعشقان الكحل لا تبكيان وإلاّ سيفسد الكحل..**ربّما هكذا كانت تفكّر لذا كانت دموعها على عكس ضحكتها نادرة...

أخذت **منال** مكانا قرب قبر الزّهرة..جلست، ومدّدت رجليها ودعتني إلى أن أفعل مثلها.

امتثلت..وما أن بسطت رجليّ حتّى تمدّدت على التّربة ،وأراحت رأسها على فخذي كعادتها، واستمرّت تقول:

ـ والدة الزّهرة **حضريّة**..هكذا نسمي بنات المدن، لكنّها اندمجت في هذا العالم،ونافستهم بقوّة حتّى تفوّقت عليهم..قالت لي مرّة بينما كنّا نتفقّد قبر الزّهرة..وطبعا لم أفهمها حينها لأنّني كنت مجرّد طفلة : **كم كنت حمقاء يوم ظننت أنّ البذور الّتي زرعت، وسقيت ،ورعيت بإصرار ستنبت، ومن ثمّ تعطي ثمارا،أتساءل يا صغيرتي كيف أنّي لم أنتبه إلى أنّ الأرض حيث بذرت كانت بورا..؟** وأجهشت المرأة بالبكاء في تلك المرّة الوحيدة، وفسد الكحل..كانت في قمّة اليأس.. خيّب الجميع آمالها.. فالّذي يعطي بسخاء لا يتوقّع المقابل.. لكنّه يرجو أن يثمر عطاؤه بطريقة ما، كأن ينجح في تغيير واقع معيّن إلى الأفضل..

كاد صوت صديقتي يختفي ،ثقل لسانها، وشرعت حروفها تخرج مترنّحة من بين شفتيها.لقد بذلت جهدا مضاعفا لتستمرّ في سرد ذكرياتها الّتي لا تنتهي..قبّلت جبينها فوجدته ساخنا ،وقلت بهدوء:

ـ تعالي لنكمل رحلتنا حبيبتي فالجميع ينتظرنا..كتمت صوت هاتفي لكي لا يقطع عليك شريط ذكرياتك فكلّ المكالمات ترد من أختك..ولا تتوقّف..قومي بنا إليهم.

قالت لي:

ـ لكنّي أريد أن ندخل مقام الوليّ لأعرّفك عليه..فكيف لم أنتبه لذلك منذ وطئت قدماك **الدّشرة..؟** أنا لا آمن الغد فربّما أموت..فأكون قد أغفلت تحقيق هذه الأمنية..

اِستسلمت لإلحاحي، فتشبّثت بكلّ ما منحته لها من جهدي لأسندها ،وتنهض لتصل إلى السّيارة منهكة وارتمت على المقعد الخلفي وهي تلهث مقطوعة الأنفاس..وبما أنّها عنيدة لا تنهزم بسهولة قالت لي:

ـ سنعود في الغد إن كان في العمر بقية لزيارة الضريح مساء...

صمتَت بعدها..أغمضت عينيها ،ولم أعد أسمع غير تردّد أنفاسها.

آه منك يا منال..في كلّ مرّة تخيفينني..**إن كان في العمر بقية..إن كان في العمر بقية..**

أقرأها ، وأسمعها منذ شهور..والسّماء من يومها تبقيك حيّة.

كنّا قرأنا الفاتحة على ساكني القبور قبل أن نغادر، وودّعنا **الزّهرة** بالدّموع، ونال اِخوتها أيضا قسطهم من مياهنا المالحة السخّية ..لماذا بكينا وقد مرّ على موتهم زمن بعيد..؟ لست أدري..منذ متى كان للموت موعد محدّد ،أو ساعة من نهار أو ليل نعرفها، يطبق على أنفاسنا فيأخذ أرواحنا ونحن نحدّق فيه وقد كنّا نعلمه..؟

قلت في نفسي مخاطبة صديقتي في صمت:

ـ يأتي الموت يا **منالي** من غير أجراس تدقّ أو طبول تقرع معلنة حضوره..لنقوم إليه مقبلين نسابق الخطو مشتاقين..أو ندبر نسابق ظلّنا مرعوبين..

لكم أن تتصوّروا كيف تمّ استقبالنا، وجدناهم قلقين، فهم لم يسمعوا صوت صديقتي منذ غادرنا، وسعداء في نفس الوقت، لأنّ ابنتهم نالت حظّها من الفرح مع صديقتها. لم أخبر أسرتها لليوم بما حدث معنا، وكيف أنّها قضت الأيّام في المستشفى على سرير المرض،

وكيف أنّ رحلتنا ونزهتنا في تحفة الإمبراطور الرّوماني **نيرفه كويكول** استغرقت أقلّ من الوقت الّذي رجوناه لها.

رغم أنّ قرية **منال** لا تبعد كثيرا عن مدينة **سطيف..** إلاّ أنّنا لم نطأ بيتهم حتّى تجاوزنا الظّهيرة، فقد أخذنا وقتنا، وعملت على قيادة سيّارتي بشكل يريحها، فلا سرعة، ولا اهتزازات،ولا منعطفات تشعر بها أثناء تجاوزها.. كنت أعي حالة الإعياء الّتي تعانيها، والغثيان، والقيء الّذي يأتيها بشكل مفاجئ سواء كنّا على الطّريق أو في مكان ما كدارهم مرتاحتين..متقلّبة حالتها بإستمرار، فما أن يصفو الجوّ، ويتحسّن المزاج حتّى تعود العاصفة لتكتنفها ،وتفسد كل ما جمّلها منذ دقائق..أشفق لحال **منال** ،لكنّي لا أظهر لها غير الإعجاب بالصّلابة الّتي تنبع من ذاتها، ومقاومتها الشّرسة للمرض حتّى وإن أعدّت للموت في كلّ ليلة عشاءه الأخير.

● ● ● ● ● ● ●

تردّد صدى الضّحكات في أرجاء ذلك البيت لأوّل مرّة منذ وصلت إليهم بعد أن كان الصّمت مخيّما عليه. أكاد أجزم أحيانا ألاّ أحد كان يكلّم أحدا سوى للضّرورة.

إستشعرت حين أنصتّ للنّكات الّتي كانت تطلقها **منال**، وللأصوات الضّاحكة الّتي صدحت بها حناجر أحبّتها كمّية الحبّ ،والمشاعر الضّخمة الّتي تكدّست داخل تلك القلوب الحزينة لأجلها..هاهي وجدت فرصتها لتنفجر ينابيعا ولوحات فرحٍ بألوان الرّبيع تختم بكلّ رونقها فصل الخريف.

عزفت صديقتي على أوتار شواعرهم ،

فجعلت السّعادة ترفرف بأجنحتها تلثم قلوبهم الّتي عانقها الأسى منذ وقت طويل،

وبالتّحديد منذ أصابها المرض، وقرّر الأطبّاء اقتراب رحيلها..كانت كلّ الوجوه الّتي استقبلتنا مألوفة لديّ ،عدا وجها واحدا وجدناه سبق الآخرين، ضمّت **منال** بلهفة الأمّ والمشتاق وقبّلتها بشغف على وجهها ،ورأسها، ويديها والدّموع تنهمر سيلا جارفا أخفى لونهما ،وصارت المناديل تنهال عليها من كلّ صوب ،ثمّ ارتفعت أصوات العتاب والتّذمّر من ضعفها أمام أختها المتعبة المريضة. عندما سألت عنها قيل لي:

ـ هذه **زكية**..الأخت الكبرى..

فقلت في نفسي:

ـ هذه توأم روحها..لعلّها حملت لها رسالة من ذاك الشاعر أخيرا بعد أن طال انتظارها..

لن تعثروا في حكاياتي على كلّ الأسماء،لأنّني حريصة على عدم إغراقكم في فوضى محاولة تذكّرهم فتنسون المهم،ويضيع منكم الأهمّ.

بذلوا جهدا معتبرا في تهدئة **زكية** ،فقد كان تعبيرها عن الاشتياق لشقيقتها يفوق التّصوّر.

اِكتملت الأسرة، وحلقة الحبّ بحضورها ،رغم أنّ غياب الأولاد ينغّص على صديقتي صفاءها، إلاّ أنّها تعزّي نفسها في كلّ مرّة بضرورة تعويدهم على غيابها النّهائي عندما يحين أوانه..كان اليوم رائعا بحق..**منال** وطرائفها، و**زكية** الأخت الكبرى ،وغناؤها الّذي جعل الأب يصفّق ويجرّ أحفاده وحفيداته إلى الرّقص وسط حلقتنا.

أخذ الكرى صديقتي ليلتها هادئة بعد أن أفرغت كلّ ما حوته معدتها..ممّا اضطرّنا لِإعطائها مغذ وريدي نامت به مغروزا في ذراعها المشوّه بآثار الإبر الكثيرة عليه..لم يخل مكان به وريد من ثقب الإبرة في أطراف صديقتي.

سيقنعنك يا طفلتي أنّ دميتك بشعة ،فترمين بها بعيدا..

فيسرعن إليها ويستولين عليها.

عزف حذر

أشعر اليوم بتعاسة غامرة لا أعرف مصدرها..لعلّها لازمتني منذ بدأت أكتب عن صديقتي ولم أعرها انتباها إلاّ اليوم، لأنّها أصبحت لا تطاق فكلّ ما يدور في فلك **منال** يثير الأسى.

بدأتها برسائلها وكأنّني لم أنهل من بؤسها كفاية، فلازمتها لأيّام لم أعد أحصيها حينها ،حتّى أنّ زوجي صار يعاتبني وقتها كلّما كلّمني:

كيف أنّي أهملته والأولاد وأهملت أعمال مكتبي؟

لكن ماذا كنت لأفعل..؟هل أترك صديقتي وحيدة في أيّامها الّتي غدت معدودة منذ مدّة..؟ وهذا الإستمرار الغريب في الحياة برغم متاعبها الصّحية الجمّة!

أطربني صوت ضحكتها الخافت، فرُحت أتغزّل بها ليلتها ترافقني تصفيقات والدها وأخواتها وحتّى الصّغار الّذين انكفأوا يضحكون ،ويهلّلون لبراعتي في التّمثيل، وقفت وسط الحلقة الّتي شكّلناها للسّهرة، ووجّهت لها الكلام بنغمة العاشق الولهان:

ضحكتك يا مليكتي:عزف كمان.. تغريدة هزار

تجعل الشّمس تقتحم الغيم..تصافح المطر

تعانق البرق وترسل للقمر قبلة المساء

كنت أشعر بالغبطة لأنّي ساهمت في صنع الفرح معهم ..ما أبدعها **منال** حين تقرّر فجأة أنّ ساعة الفرح قد حانت.

لم يكن االظّرف مناسبا للحديث بين الشّقيقتين فصديقتي منهكة والأخت أيضا ليست على ما يرام.. سبقتنا بالمجيء بيومين فقط قبل عودتنا من **جْميلة** ،

ولم تحظيا بفرصة للانفراد ببعضهما البعض.. كانت عيناها تقولان أشياء ،ولأنّ الظّرف كما أسلفت لم يكن مناسبا، تأجّلت كلّ الأسئلة الملحّة الّتي تشغل بال **منال**.قلت في نفسي:

ـ سيجلو الغد الغموض..

فكّرت ليلتها بجدّية في العودة إلى بيتي وأسرتي، فلم يكن من المعقول ما يحدث لي من انسلاخ كلّي عن عالمي.

حدّثت نفسي :

ـ مرّت السّهرة بسلام..

كنت أنشد وقتا أخلو فيه إلى نفسي، فتسلّلت بهدوء خارج الغرفة بعدما شاهدت **منال** نائمة في سكون..صديقتي..طفلتي..كم أحبّها وأتألّم لأجلها.

فتحت الباب برفق، وأغلقته ورائي.. نزلت درجات السّلم العتيق محاولة عدم إصدار أيّ صوت يتسبّب في إيقاظ أحدهم، لأنّ الوقت تأخّر ،بل تجاوزت السّاعة الواحدة صباحا..كان خشب درجات هذا الأخير يصدر أصواتا تعزف للزّمن القديم، وكنت أريد بلوغ فناء الدّار ، المقعد تحت شجرة اللّوز بالذات. أغراني منظر السّماء والنّجوم المرصّعة على صفحتها بالخروج، جذبني نور القمر كوكبا بوجهه الكامل مبتسما ،بدا لي الوقت مثاليا للتّأمّل بعيدا عن الجدران الّتي تجعلك تبدو سجينا يكتفي بنافذة صغيرة يطلّ منها على العالم.. لكنّي ما أن بلغت أسفل السّلم حتّى تناهت إلى سمعي أصوات ترتفع حينا، وتنخفض حينا آخر، فأدركت أنّي كنت مخطئة عندما اعتقدت الجميع نياما.. كنت سأواصل طريقي إلى الفناء عندما استوقفني صوت والد **منال** :

ـ تعالي يا ابنتي..شاركينا الحديث فلا أحد غريب بيننا.. وأنت واحدة منّا..

تأثّرت لهذا التّشريف الّذي حظيت به، وخجلت من ردّ دعوته لكنّي قلت معتذرة:

ـ أخشى أن يكون الحديث شأنا خاصا بينكما يا عمّاه..

حينها خاطبتني الأخت الكبرى قائلة:

ـ أقبلي **نوريّة لعلّي** سأحتاج إليك يوما ما..شاركينا الحديث من فضلك..

أظنّكم فهمتم أنّ اللّذين لم يهجعا بعد كانا والد صديقتي وشقيقتها **زكية.**

قعدت على اِستحياء بجانبها على السّرير الّذي كانت ستنام عليه في غرفة المعيشة محاولة اِخفاء شعوري بالحرج ،فقد كان واضحا أنّهما كانا يتحدّثان في شأن خاص فعلا.

أخيرا بدّد صوت الأخت الصّمت الّذي خيّم للحظات عندما التفتت إلى أبيها لتقول له:

ـ أنتظر ردّك على قراري يا أبي..

لم تسمع الرّد الّذي انتظرته..في المقابل سألها:

ـ هل تعين حقا كم عمرك يا ابنتي..؟ ماذا حدث لك؟ أنت أعقل أخواتك وأكثرهنّ حكمة؟ ماالّذي أصاب عقلك حتّى صرت لا تميّزين بين الخطأ والصّواب..؟

فرّت دمعة من عينها لست أذكر من أيّهما، وقالت محاولة السّيطرة على انفعالها:
ـ كيف يمكن لي أن أشرح لك يا أبي ما يطرأ من ضغوطات نفسية على الواحدة منّا حين تصل إلى مرحلة معيّنة من حياتها مع زوج لم تختره..؟ وتزوّجته غصبا في حين كان قلبها مع رجل آخر تقدّم لخطبتها فرفضتموه وعاندتم في ذلك..؟ لا علينا أيها الحنون..رضخت لكم، واستسلمت لأنّني كنت رغم مقاومتي بنتا مطيعة ،فكبحت رغباتي، وتخلّيت عن طموحي فجعلته أضعف من أن يشكّل محورا من محاور حياتي..اِعتبرت أحلامي مجرّد أوهام راودت عقلي الفتي حينها..أنا لم أرض بهذا الزّوج يوما وسأظلّ كذلك..

قاطعها قائلا:

ـ ماذا تريدين أكثر بعد كلّ هذه الأعوام الّتي أنجبت فيها أولادا ؟ صار أحدهم في سنّ الزّواج..هل تدركين حماقة ما ستقدمين عليه..؟ ألا يعاملك زوجك بما يرضي الله ويحسن إليك..؟ أنظري إلى ما ترتدينه من ثياب ومصاغ ،وإلى السّيارة الّتي قدتها إلى حيث نحن في هذا الوادي السّحيق، والمسكن الفخم الّذي في الأصل هو مكتوب باسمك..لماذا لا تشعرين بالامتنان للسماء يا صغيرتي، وتتمرّدين على النّعمة..؟

صمت لبرهة ثم أضاف:

ـ أراك لم تعودي تخجلين من أبيك الشيخ ،وتتحدثين عن رجل آخر في حضرته غير زوجك..!

إحمرّت وجنتاها، لكنّها ضمّت يديها إلى صدرها كمن يتوسّل ،وقالت له:

ـ هل الزّواج يا أبي ثياب ومصاغ وسيّارة وبيت..؟ لم يكن هذا الرّجل مناسبا لي منذ البدء..لا تنس أنّي أحمل شهادة ،وكان طموحي أكبر من العيش مع زوج لم ينل سوى القسط القليل من التّعليم..كلّ همّه وتفكيره يصب على كيفية جمع المزيد من المال.. كان ارتباطي به إهانة وتحقيرا لكلّ الأعوام الّتي أمضيتها أحصد التّميّز تلو التّميّز في دراستي.. وممّا زاد في عمق الهوّة بيننا فارق السنّ..فهل نسيت كم يكبرني..؟ للأسف ليس كلّ ما يضرّج قلوبنا بالحزن والحسرة يقال.. إذ تبقى لدينا أسرار دفينة نأنف من البوح بها حتّى إلى المرآة الّتي نحدّق إلى ذواتنا من خلالها محاولين اختراق الهيكل الّذي يجمّلنا ونجمّله لنصل إلى الأعماق..ستبقى بعض الزّوايا قاتمة حالكة بعيدة عن الأعين..حتّى عنّا نحن لأنّنا نجيد إخفاءها خجلا..عن أسرار الزّواج الّتي تسكن بين الجدران أتحدّث ياأبي.. أنا أحترم هذا الرّجل وأسعى لفراقه ممارسة حقي في ذلك..أتطلّع إلى تحقيق حلمي الّذي تنازلت عنه يوم تزوّجته..

تمرّدت ولن أتراجع إلى الخلف مهما كانت النّتيجة فقد سبق وأعلمته بقراري في الإنفصال عنه..

هتف والدها بسخط:

ـ يا إلهي جنّت اِبنتي..وما كان موقفه..؟

تابعت تقول:

ـ لم ينبس ببنت شفة ونظر إلي مليا.. ثمّ قال لي أنّه سيفتح لي مكتبا، ويجعلني وكيلة صفقاته ،وسيجلب لي الزّبائن أيضا من أصدقائه..لكنّي رفضت رغم أنّ عرضه كان مغريا..تغيّرت ولم أعد أتحمّل الحياة معه..

بدا الأب مصدوما..لا يصدّق ما يسمع من أعقل بناته..وأنا أنصت محاولة جعلهما ينسيان وجودي.. اِنتصب واقفا واقترب منها..كنت أشعر به يتفتّت من الدّاخل..جلس بجانبها، وبهذا صارت بيننا، وعصية على الإقناع أيضا..تحدّث إليها بلهجة التّحذير لعلّها تفتح عينيها على الواقع ،وتطرد الصّور المغرية الّتي ستحطّم لا محالة كيان أسرتها. قال لها:

ـ أنت تحاربين طواحين الهواء..مهزومة لا محالة وستندمين حتما..تلفّتي حولك..لن تجدي أنّك الوحيدة الّتي لم تلبس على المقاس..هل تطمحين إلى صنع قدر على هواك؟ آلهة اليونان فشلت.. فكلّ إله عندهم كان له هوى وقرار.. ستهتفين بحرقة: صادفت السّعادة ذات يوم فكيف تركتها تفلت من يدي بعد كلّ الّذي شهدته من عناء..؟ أنت تحدّثينني بالألغاز لكنّني فهمتك..ألا ترين أنّ الأوان قد فات..؟ ذلك الرّبيع نصادفه وللأسف أعتذر منك الآن فقد عاكستك الأيّام..عيشي بما توفّر لديك في الوقت الرّاهن..هو موجود بشتّى الصّور وقد تجلّت شمسه رؤيا لمن افتقدوا النّور طيلة حياة..أعرف أنّه أخطأ موعده فلا التّاريخ ناسبك ولا المكان..زوجك يمدّ إليك يده وربّما يستعطفك..اِمتطي الحلم من حيث هو وعيشي اللّحظة..اسرحي حيث الشّمس والخضرة تلوّنها شقائق النّعمان هناك حيث بيتك الفخم والأولاد..الغد مسطور عند الّذي لا يغفو ولا ينام..

كنت أتأمّل في منطقه ، لدرجة أنّي صرت أشاهد الكلمات تتجلّى صورا تنبع من قلبه قبل أن ينطقها لسانه حِكما بأجنحة ،إستلهمها من عمق التّجربة، والعمر الطّويل الّذي عاشه. شعرت بالنّدامة على خروجي من الغرفة، فصرت أعنّف نفسي في سرّي:

ـ ما الّذي دهاك لتخرجي في هذا الوقت..؟ لكان النّوم أريح لك بعد يوم طويل شاق..تحوّلي الآن إلى ذبابة أو نملة حتّى ينسوا وجودك.. وإلاّ لن تجدي ما تقولينه فإن أرضيت أحدهما لن يعجب كلامك الآخر..

أمّا هي فقد سرحت بعينيها في الفضاء ،فلم أشعر أنّها كانت تدرك أو تسمع ما يقول، ومن ثمّ تحدّق فيه بصمت ،كأنّها تستمتع بمنظر شفتيه ترسمان الحروف بقدر حرصه على ثنيها عن قرارها الرّهيب..اِلتفتا صوبي أخيرا في نفس اللّحظة لتسألني عيونهما قبل أن يصدر الصّوت فتحرّره شفاههما:

ـ ما رأيك **نوريّة..**؟ قولي شيئا..

تذكّرت كيف أنّ **منال** تحدّثت عن زواجها ،وكيف أنّ البداية الخاطئة تنتج خطوات خاطئة متتابعة.. سمعتُني أقول لها بهدوء الّذي يتوقّع أن يؤخذ برأيه من غير نقاش:
ـ أعتقد يا عزيزتي أنّك زهدت في متع كانت أهمّ لديك من المادّة الّتي توفّر عليك المجهود وتعب الجسد..أفهمك لأنّي امرأة مثلك..هي روحك من أشقيت..

شعرت بالحرارة تقرص خدّيّ، وربّما احمرّا لأنّ الوالد فهم مقصدي من دون شكّ..أضفت قائلة:

ـ لم تتسرّعي عزيزتي..لكنّك أحدثت الصّدمة بعد صمتك الطويل ، فلم يظهر منه عدم رضاك ،ولا أدعوك لأن تتراجعي، لكنّي أتمنّى عليك أن تستريحي ولو لأيّام من عناء الكبت، والصّمت،والتّصنّع... تمتّعي بصحبة الأهل ،ولا تفكّري في شيئ سوى الإنطلاق والمرح..خذي عطلة من الأمومة والزّواج..هل تفهمين عليّ عزيزتي..؟ تحدّثي عن كلّ ما سكن جوانحك،

وتشبّث بجدار صدرك من غير خجل..لديك أخوات رائعات..صاحبي الطّبيعة وتنشّقي هدوءها، وسكينتها، ومن بعد ذلك أعلني قرارك، وسيحترمه الجميع..

لم أنتظر ردّة فعلها على اقتراحي..غادرت الغرفة بعد أن قبّلت رأس الوالد الحزين الّذي بدا ممتنا لي،وعانقتها فكان عناقي أوّل شحنة تعاطف؛تحرّر مكبوتاتها ،وتجعلها تشعر بالارتياح.

عدلت عن الخروج إلى الفناء، وعدت أدراجي إلى الغرفة لأتمدّد بقرب منال؛ حريصة على عدم إيقاظها فهذه السّيدة الطّفلة كانت تبتسم راضية على غير عادتها..تساءلت:

ـ تراها ماذا ترى في أحلامها..؟

تشبّثت بالنّعاس لأنّني كنت أعلم أنّ اليوم القادم سيكون مكتظا،فصديقتي وحدها تحتاج ليوم يفوق عدد ساعاته الأربع والعشرين الّتي اعتدنا عليها.

توسّدت اشتياقي لزوجي، وضممت حنيني الطّافح لأولادي إلى صدري ،ونمت سريعا بعد أن عاتبت نفسي على ابتعادي الطّويل عنهم، فضّلت أن أحرمهم وجودي بينهم لبعض الوقت على أن أحرم **منال** من مؤانستي لها ودعمي،الأكيد أنّها كانت تستحق هكذا تضحية منّي .

● ● ● ● ● ● ●

إستيقظت على أصوات قادمة من الفناء، وقبلها على نسمة باردة جعلتني أنكمش تحت الغطاء.. وصديقتي تستقبل يومها الجديد كعادتها تلقي تحيّة الصّباح على الغائبين

والبعيدين الّذين يهفو إليهم قلبها المشتاق..سمعتها تقول:

ـ جواد..

لعلّه خيّل إلي..قلت لها متثائبة:

ـ صباح الخير يا الجنّية..ألا تشعرين بالبرد..؟ أغلقي النّافذة..ستمرضين ..

ضحكت وقالت ممازحة:

ـ أنا مريضة بالأساس..هل نسيت؟ بل قولي أنّك لا زلت تريدين النّوم..هيّا انهضي **نوريّة**..لدينا يوم آخر فلنعشه معا أيضا..

قلت في نفسي:

ـ يا إلهي..إنّها تنهك قواي..قاتلتي لا محالة..

تركت جسدي ينزلق خارج الفراش بينما روحي ما تزال تتوق إليه ،وسألتها بعد أن أبعدتها عن النّافذة المفتوحة:

ـ كيف تشعرين..؟

قالت بحماسة:

ـ أنا بخير..بخير جدا..لا تنسي أننّا سنبيت اللّيلة في مقام الرجل الصّالح..لذا استعدّي من الآن **نوريّتي**..سأنتظرك في الأسفل لنفطر معهم فلا تطيلي..

عقد الذّهول لساني، وتبخّرت كلماتي في فضاء الغرفة، وأنا أقول لها بعد خروجها:

ـ هل نبيت هناك..؟ هل جننت يا منال..؟

أخذت وقتي في الإستعداد لأنّني صرت أدرك ما معنى أن نقضي يوما بصحبة صديقتي.

شربت كوبا من الماء الفاتر في انتظار تناول الفطور، وأخذت حمّاما ساخنا جعلني أشعر بالتحسّن.. وآخر باردا لأحصل على الانتعاش..إنقشع النّعاس عن عينيّ في الواقع كغيمة رمت بها الريح بعيدا، وتبخّرت آخر خيوطه مع آخر كلمات لصديقتي:

ـ سنبيت اللّيلة في مقام الوليّ...

نسجت صديقتي أجنحة تليق بتحليقها المتمادي في الجرأة والمغامرة ،وروّضت قلبا منهكا على التعاطي مع طموحها المسابق للوقت..

ماذا جدّ معك عزيزتي..؟

كنت أسائل طيفها الّذي يبقى معي حين تبتعد هي :

كيف انقلبت من أرض مقفرة لا يسكنها سوى الألم والكآبة إلى حديقة تشعّ بالضّياء والبهاء..؟ أشجارها يانعة، وورودها فوّاحة..؟ من أين لك بهذا النّشاط..؟ فمنذ وطئت قدماي بيتكم الأسطوري وأنت تصنعين الدّهشة..تتفتّحين، وتفوحين بعطر الحياة بين كلّ سكرة موت وإغماءة، وتنافسين بحكاياتك شهرزاد.. بينما أنا نوريّة شريكتك، أتبعك ،وأتسمّر هناك حيث لم يعد يغادرني جنون الخيال.

تجهّزت وخرجت قاصدة غرفة المعيشة . حيث الجميع مجتمعون . لفطور الصّباح. ما أن ناصفت درجات السّلم العتيق حتّى كدت أصطدم بصديقتي الّتي لأوّل مرّة أراها تهرول..أي نعم تركض، وتصعد درجات السّلّم إثنتين اثنتين مسرعة، تحمل في يدها ظرفا متوسّط الحجم..لم تترك لي مجالا للسّؤال. قالت لي لاهثة من غير أن تتوقّف:

ـ إنزلي..هم في انتظارك..ستبرد قهوتك والفطائربالعسل لذيذة..

ولجت غرفتها وأوصدت الباب..سمعت المفتاح يدور..يا إلهي! . قلت في نفسي . ماذا لو أغمي عليها..؟ كيف سنفتح الباب لنسعفها؟

عدت أدراجي، ونقرت على هذا الأخير برفق ونادیتها:

ـ **منال**..عزيزتي..هل كلّ شيء على ما يرام؟

سمعتها تقول بعصبية:

ـ اِنزلي **نوريّة**..دعيني الآن..

يا اِلهي..صار لصديقتي حنجرة قويّة.. هي تصرخ الآن عندما ترسل الكلمات..أين كانت تخبّئ كلّ هذه القوّة..؟ ماهذا الشّيء الّذي أمدّها بكلّ تلك الطّاقة..؟ ألم نكن نصيخ السّمع لنفهم جيدا ما تريد قوله منذ اِلتقيتها بل ومنذ ساعة فقط..؟ وتنزل درجات السّلم بهدوئها المعهود، فجأة صارت تهرول، وتقفز وتصرخ..هل اختفى المرض ؟ أم أنّه كمنَ لها ليغريها ،ويجعلها تطمع في الشّفاء ثمّ يطفو مجدّدا ،ويوجّه لها ضربة مركّزة أقسى من الّتي قبلها؟

إستيقظت يومها على أحجية اِنجلى غموضها بعد ساعتين قضيتهما جالسة على اِحدى درجات السّلم أتأمّل حجره وخشبه القديمين..لا قهوة، ولا فطائر بالعسل.

فُتح الباب أخيرا، وبدت **منال** الّتي أعرفها وقد تنضّحت عيناها، واحمرّ أنفها.. ترتعش يداها تأثّرا..لم تختفِ حماستها كلّيا لكنّها أسبلت عليها خليطا من العواطف الّتي لم أفهمها حتّى سلّمتني الظّرف ضحكت ثمّ بكت،وعادت تضحك ثم عادت تبكي ،وسمعتها تهمس فعلا كعادتها هذه المرّة :

ـ اِقرئي **نوريّة**..

حين تكتب لي.. تنشد الطّيور تراتيل المساء..تزهر شقائق النّعمان في غير وقتها..يغزو الرّبيع كلّ فصول العام.

حين تكتب لي..تشرق روحي وأنسى مأساة أعوامي..أنسى أنّي كبرت،وأنّي ودّعت الرّبيع وتركت كلّ أفراحي ورائي ،واستقبلت أشجاني.

حين تكتب لي..أنكر الخريف..لا أعرفه..تزهر الأشجار في بستاني وأصبح من يومي أوزّع الضّحك والابتسام، ولا أحزن جلّ أيّامي.. فهل ستكتب لي؟

الشام ذات يوم من تشرين الأول

كيف أنت يا منية روحي، وكيف الأيّام معك؟

تراك ما تزالين تذكرين ذلك الشّاب الشّاعر الّذي هواك..وأعارك مظلّته في يوم ممطر سعد فيه بلقاك؟ أعرتك المظلّة كي تعودي ،وتعيدي إليّ بعضا من روحي الّتي تبعتك مبتعدة كحوريّة دفعت بها الأمواج إلى الشّاطئ..خطفت قلب أحدهم، ومن ثمّ أعادتها إلى الأعماق حيث مملكة الحوريات وصناديق كنوزها قلوب سرقت من الشطآن..

هل صدّقت أنّي نسيتك يا بعض نفسي؟

صدّقي..ولكن قبل أن تأخذك الظّنون بعيدا أخبرك أنّي نسيتني قبل أن أنساك..رقدت لشهور في المستشفى في حالة غيبوبة بعد أن أصابتني رصاصة قنّاص،اخترقت جمجمتي لتخرج من الجهة الأخرى..تراها كانت اليمين أم اليسار؟ هذا تفصيل لم يعن لي لاحقا كثيرا، وعندما أفقت من سباتي العميق عثرت على ذاتي من غير ذاتي. نسيت الكثير..من بينهم أنت. لم أكن أذكر لا اسمي ولا عنواني..نسيت جنسيّتي وقضيّتي الّتي لأجلها أسرفت من عمري مسافرا من قطر إلى قطر ومن عاصمة إلى عاصمة.. نسيت معاهدة السّلام ،ولكنّي بقيت على إصراري على مقاومة الاِحتلال..لكأنّ الفكرة كانت مختلطة بدمي تسري في شراييني مسيطرة على الدوام، ومهما تغيّرت الظروف على كلّ كياني. نسيت أنّي غادرت بلدي مهزوما مدحورا لأعيش في بلد آخر عشّشت فيه البوم والغربان بعد أن لجأ أصحابه إلى دول الجوار ،وتركوه فريسة بأيدي العصابات.. اِحمدي الله على سلامتي ،واِحمديه على عودتي إليك أيضا..يا قلب جواد..هل ستقبلين اِعتذاري لو أخبرتك أنّ ما حدث كان خارجا عن إرادتي؟

سنلقي اللّوم أنا وأنت على رصاصة القنّاص الّتي قطعت الطّريق على رسائلي، وحرمتني من لذّة قراءة حروفك وكلماتك..

يا لخيبتي الّتي أخشى لو اِكتشفت بعد كلّ الشّهور الّتي مضت أنّي ضيّعت حلمي في لقياك بعد أن ضيّعتك من قبل.. هل تصدّقين رجلا يعترف أنّه كان ومايزال يسكنه الحياء كفتاة عذراء، وأنّ أرضه جنّة للعشق لا يسكنها سواك..؟ فلا تردّي الرّجاء واقبلي الاِعتذار..ما حيلتي يا منية النّفس وقد لفظتني كلّ الدّيار؟

جعلوا من وطني سجنا مفتوحا محاصرا ،وتناسوا الأهل والخلاّن..كسروا أيدينا، وهشّموا عظامنا وقطعوا أرجلنا حتّى لا تأخذنا النّخوة فنسعى لخلاصنا. لكنّنا سنفعل ولو زحفا على البطون نشارك دماءنا مع الأشواك.

اختنقت بنا الملاجئ والغيتوهات..حتّى هذه رأوها كثيرة على شعب يحبّ ،ويحتفل،ويتزوّج، وينجب الكثير من الرّجال والنّساء..صرنا يسكن بعضنا فوق بعض..يلعب بعضنا فوق بعض..يأكل بعضنا فوق بعض..نستحمّ في العراء، ولا نغادر ملابسنا فكلّ بيوتنا مكشوفة.. سقوفها السّماء ،وأرضيّاتها أتربة المخيّمات..وعندما تنازعوا فيما بينهم كنّا وقودهم وشمّاعتهم الّتي عليها يعلّقون أخطاءهم على الدّوام.. مادت بنا الأرض، وضاقت بقدر ما دمّرتهم ثوراتهم وزعزعت كيان وجودهم، فتكرّر الشّتات أضعافا وأضعافا إذ طال أرواحنا وأفكارنا..عشت وسط هذا الهول ،فلم أعد الشّاعر ،ولا الدّيبلوماسيّ ولا حتّى العاشق المحزون..طالتني في الأخير يد القدر الطّويلة ،واخترقت جمجمتي رصاصة خرجت من الجانب الآخر،أراد مطلقها أن تحدث الهلع وسط المتجمهرين، فأصابت من لا ناقة له ولا جمل في الّذي يحدث..الرّبيع ربيعهم يا فتاتي، وما نحن سوى أطفال تائهين بين الجموع ونبحث عن النّجاة لأرواحنا على ضفاف الحصار والشّتات.

ما أن فتحت باب سيّارتي حتّى وجدتني أخرّ على الأرض صريعا ،ثمّ أتفرّج على جسدي..بينما تجمهر النّاس حولي وأنا أراهم،وأراني..اكتنفتني الحيرة من أمري ،وممّا يدور حولي. كنت جثّة ملقاة على الرّصيف مخضّبا بدمائي، ومذعورا أتساءل:

من هذا الممدّد الّذي يشبهني وكيف أنّهم لا يسمعون ندائي؟

إستغفرت الله في وحدتي..أجل يا فتاتي..كنت وحيدا في عالمي.غادرتُ مادّتي، ورفرفت كطائر حرّ في الفضاء الواسع..لكنّي كنت مقيّدا إلى جسدي أينما حملوه أتبعه..أحدّق فيه، تبلغني رسائله، ورسائل من حوله..هل كنت حيّا؟

الأكيد أنّني كنت أتنقّل بين تلك الرّسوم الهيوليّة للموت والحياة..عشت معك في محيطها اللاّنهائي أجمل حياة.. لم يعن لي النّهار واللّيل فيها الكثير بقدر ما عنى لي الشّتاء والرّبيع..عشنا فصلين معا حبيبتي لعدّة شهور..ربّما كان الرّبيع أطول من الشّتاء، أو ربّما كان العكس تماما..

أخذ الشّتاء حظّه منّا ومن دفء القرب أكثر ،مزاحما مظاهر الفرح الأخضر والمزركش بشتّى الألوان الأخرى، وببياض دائم كما أحبّه وتحبّينه..حيث الثّلوج تغطّي الحقول وتجمّل أشجارها.تزوّجتك هناك وكان العرس بهيجا..عانقتك أخيرا، وقبّلتك ورويت عطشا منك خلته لدهور..لكنّني ويا لحسرتي نسيتك ما أن عدت وسكنت جسدي الفاني..

ليتني بقيت معك أحلّق في مدارك..كم كنت محتاجا لحنانك..لاحتوائك فحينها لم تكوني امرأة من ورق.. طغى حضورك على كلّ حواسي، وعندما أفقت من غيبوبتي سألوني:

ـ ماذا كنت ترى فقد تجمّل وجهك بوشاح الفرح طيلة شهور؟

لم أدرك أنّك أنت..ولأنّي عشت معك أجمل حياة قلت لهم:

ـ كانت حوريّة.. تلك الّتي تزوّجتها في عالمي الثّاني..

ربّما تتساءلين الآن : متى تذكّرتك..؟

ربّما أومضتِ في عقلي شعاعا ،فأثرت وجداني عند هطول أمطار نيسان ،وتفقّدي لمظلّتي عندما خرجت أمارس الضّياع في شوارع المدينة الخالية،غير مراع لحالة الخطر والحصار ، أو عندما حمل لي الصّديق رسالتك الأخيرة، ففتحتها فتناثرت نسائم عطرك في الأجواء،واخترقتني، فتلبّستني، وأثملتني حالة العشق من جديد كبداية..ثمّ قرأت كلمات

تشبه كلماتك تتحدّث عن عالم سرمدي مخلوق من نور نكون فيه اثنان. نمت ليلتها أئنّ تحت وطأة الشّوق لحوريّتي..وقبل أن يطلّ الصّبح الجديد انبثقتِ لي إلهاما يقول:

ـ هي الحوريّة..وهي فتاتك..

فزدتني اِفتتانا على اِفتتان..من يا ترى أخبرك أنّنا فعلا حتّى ولو لم يكن العالم من نور كنّا اثنين..؟ أيقنت أنّك المصير الّذي لا أهرب منه إلاّ إليه، فاهنئي، وقرّي عينا..لن أختار سواك في كلّ حياة وسأبقى قيد الإنتظار ليوم لقياك..حتّى وإن تغيّر المكان في العالم الفاني، أو ذلك الّذي يسوده الخلود والأبدية.

في انتظارك يا منيتي

جواد

نسيت أن أخبركم بأنّني وضعت رسالة **منال** الأخيرة للشاعر في صندوق البريد ،بمجرّد وصولنا إلى مدينة **جميلة** ،كنت حريصة على اِسعادها، وتحقيق كلّ رغباتها.

كتبت العنوان الّذي كان معها على الظّرف بعد أن أفعمت داخله بعطرها ،وحرصت على أن تصله في أقصر أجل، لعلّه يردّ على خطابها فتهدأ نفسها،وتهنأ بالا.

لن أتمكّن مهما حاولت من وصف مشاعر تملّكتني، وألجمت لساني عن الكلام.. شاهدت لحظتها صديقتي تجلس على حافّة سريرها، تخبّئ وجهها بين راحتيها..تبتسم حينا وسط دموعها وتمسحها وتغمض عينيها حينا آخر.. خيّل إليّ أنّها قاومت دموعها فكانت تعصر آخر قطرات منها لكنّ هذه الأخيرة لم تأبه لرغبتها، فتدفّقت غيثا غسل قلبها ،وبشّر بأيّام أكثر

سعادة وهناء.. هكذا تنبّأت لها يومها.

بوركت أيّامك منال العزيزة.

إقتربت منها وتناولت يديها بين راحتي..قبّلتهما وضممتها إلى صدري..قلت لها ضاحكة ممازحة :

ـ هنيئا لك منال..عاد أسدك من الموت بعد أن يئس من الهرب منك..فأنت لم تتركيه وشأنه حتّى في عالمه الآخر..

ضحكت صديقتي فبدت لي كالشّمس حين تشرق بعد العاصفة..تدفّقت كلّ إيماءة من وجهها الضحوك إلى قلبي فمسحت عنه كلّ أسا لأجلها.. يا لسعادتي الجامحة.

يا لسعادتي الجامحة..

سأخبركم اللّيلة وليس غدا كيف أنّي أوصدت أبواب تعاستي..أحكمت اِغلاقها..شيّدت لأشباح ماضيّ وأحزاني معبدا.. وقبرتها فيه للأبد.

عندما نحزن ؛ نذرف الدّمع ،ونغتمّ، وننتحب..مشاعرنا تلك..صدّقوني

سهل رسمها على الورق..لكنّني اللّيلة حُبلى بالفرح، ولغتي في وصفه تعجز..هل أقول مثلا:

كسرت قيودي..؟ حرّرت ضفائري..؟وسرّحت شعري..وقلت له:

حلّق في الفضاء..غنّ معي لطفولتي..لجنوني.. لعشقي الساحر المنتظر؟

لا تحابني يا عواصف ويا رعد ويا برق بل يا صواعق.. لا أخشاكم

ففي حقلي أنتشي وأراقص المطر.. أشعلت قنديلي، وأنرت ظلمتي.

أعلنت سعادتي.. سأدعو الطّيور والفراشات ،وننشدها أهازيج ومقامات

ونجعلها مأدبة للشّمس وللرّبيع..ففي الأخير قلبي المحبّ انتصر.

في مدينة الظلال

حظيت بالقهوة السّاخنة، وبالفطائر المحلاة بالعسل الجبلي بعد أن أتخم قلبي بالفرح لسعادة صديقتي..اِنتعشت الحياة في ذلك البيت الرّيفي الفخم.واندمجت **زكية** في أحاديثنا، إلاّ أنّ الحيرة والحزن خيّمتا على عينيها الخضراوين.

أوصد الموت بابه دون **جواد** ،وأجّل حياته في الأبدية ،لكنّه أذاقه كبداية سعادة لم ينس طعمها حتّى بعد استفاقته من غيبوبته، وعاد من رحلة نسيان طويلة ليجد صديقتي في اِنتظار الموت الّذي أهمله وأهملها هي الأخرى..بيد أنّ **منال** أثارت دهشتهم لأوّل مرّة منذ وقت طويل،فقد اِستحالت إلى ياسمينة تنثر عبقها حيثما حلّت منشدة أغاني العشق والغرام غير آبهة للذّهول الّذي أثارته حولها:

ومن الشّبّاااااك لارمييييلك حاااالي

ومن الشّبّاااااك لرمييييلك حاااالي

ومن الشّبّاك لرميلك حالي ياعيني

من كثر شوقي إليك ما بنااااام

هذا ما أحدثته رسالة الشاعر لدى صديقتي..هو الحبّ عندما يسعدنا، ويأخذ بتلابيب عقولنا وقلوبنا..اِنزوى الوالد في مكانه المعهود على المقعد الحجري خارجا،هادئا،متفكّرا فيما حدث ليلة أمس. توفّيت زوجته وتركته وحيدا يصارع حوادث الأيام لعلّه يفلح في حماية بناته منها.. قضينا بقيّة اليوم نعدّ لزيارة مقام الوليّ..ليس للزّيارة في حدّ ذاتها ،فما كان علينا سوى العودة إلى **القرّابة**،وإلقاء السّلام على ساكنيها،ومن بعدها دخول تلك الحجرة الصّغيرة ذات القبّة الخضراء حيث ضريحه..لقد كنّا سنقضي ليلتنا هناك، وهذا ما أثار قلقي بل فزعي الّذي كنت أحاول السّيطرة عليه..لم أعتد على هكذا مغامرة،

وصديقتي لا ينقصها الإلهام..خاصّة بعد أن صارت كفراشة في عزّ الربيع، تتنقّل بين زنابقه وبنفسجه بل كانت أوركيدة..متفرّدة تلك **المنال**..هاهي تعدّ العدّة ،وتعطي التّعليمات لأخواتها في المطبخ لقضاء ليلة تاريخية هناك كما تصفها، وكانت القهوة السّيدة كمنبّه لنا حتّى لا يأخذنا النّعاس.

ألا تعلم صديقتي أنّ الرّعب كان كفيلا بجعلي لا أنعس لأيّام؟ كيف أستسلم للنوم بين الأموات..؟ سأشعر بهم محيطين بي،أو يطوفون بيننا ،ينتظرون فرصتهم كي يجهزوا عليّ.

قرّرت الأوبة إلى أسرتي الصّغيرة بعد مغامرة تلك اللّيلة، وكنت أتحيّن الفرصة المناسبة لأخبر **منال** وكلّما حدّقت في وجهها المضيئ بالسّعادة أجّلت الحديث بشأن ذلك.

كنت مرتاحة لما صارت عليه **منال** رغم حرج موقفي مع زوجي واشتياقي لأولادي، وإهمالي لعملي..أبعدت القلق عنّي حتّى لا تنتقل إليها مشاعري السّلبية..حرصنا على جعلها تركن إلى الرّاحة لساعات، ووضعنا لها المغذّي الوريدي بالنّظر للإجهاد الّذي تعرّضت له طيلة الصّبيحة ،وكلّما أبدت مقاومة كنّا نحن أيضا أكثر حزما معها.

إنّها تحيا مع الطّبيعة..توحّدت معها..تتغذّى على ما تنتجه ،وتزرع الخضر الّتي تتناولها في حوض صغير خلف دارهم ،وتقطف فواكه الموسم من بستان أسرتها.

تقول لي:

ـ الأرض أمّنا..أنا أثبت عشقي وانتمائي لهذا التّراب..حتّى يحسن إليّ عندما أدفن فيه فيحوطني بحنانه كغطاء سريري،ووشاح أمّي..

ها قد تبدّى الشّفق ساحرا ممّا هوّن عليّ وحشة الطّريق.

عند المغرب حملنا متاعنا ،وانطلقنا رفقة الوالد ،لكنّ مخاوفي عادت، وتفاقمت عندما شاهدته يرجو لنا ليلة طيّبة ،

ويعود أدراجه مختفيا عن أنظارنا عند المنحدر ما أن وصلنا إلى المكان المنشود.

شغلت نفسي أثناء المسير بتتبّع خطوات **منال** الّتي سبقتنا صحبة والدها ،تحمل القنديل المنير في يدها مزهوّة به كطفلة..ذكّرتني بعيد **المولد** الّذي كان فرصتنا الوحيدة للإحتفال بالشّموع.. فعلا..ما أجملها أيّام الطّفولة..!

اتّسق القمر،وبدا ضوء القنديل قمرا ثانيا آثر صحبتنا، وبرفقتنا حلا له المسير..نسيت **زكيّة** الّتي كانت صامتة منذ خرجنا..لعلّ ما دار بداخلها أكبر ممّا نتصوّره نحن وقتها..حتّى أنا،شعرت بالحزن يتسرّب إلى داخلي عندما تخيّلت الحياة وصديقتي غير موجودة فيها.

تساءلت في قرارة نفسي:

ـ هل يمكن لي أن أنساها أو أسلوها لو فقدتها..؟

اِستسلم العالم في الغابة من حولنا للنّعاس، ولم يخرق سكونه سوى هند البوم ونهامه ،ونقيق الضّفادع الّتي ما أن يحلّ الظّلام حتّى تنطلق في نزهتها،ولولا الحذر لداستها أقدامنا. عزف سوير اللّيل سمفونيته المعهودة..التفتّ إلى **زكيّة** وجلة ،وسألتها:

ـ هل حقا يوجد خنازير في غابتكم كما أخبرتني **منال**..؟

اِبتسمت مدركة لخبث شقيقتها، وقالت:

ـ نعم **نوريّة**..نحن لا نراها نهارا لأنّها تخافنا وقتها..لكنّها تغادر جحورها ليلا فهي حينها ملكة الغابة..لا تخشي شيئا..سنسمع قباعها من بعيد قبل أن تقترب منّا فنستعدّ لها..

اِلتصقت حينها بمحدّثتي، متشبّثة بذراعها إلى أن بلغنا المقبرة، وألقينا على الرّقود السّلام،وقرأنا الفاتحة، ثمّ تحسّسنا طريقنا بين القبور نحو غايتنا..اكتستنا حالة من الخشوع والرّهبة حين وصلنا..فتح والد **منال** باب الحجرة المنشودة ،وسلّمنا المفتاح ،وقبل أن يقفل عائدا من حيث أتى أوصانا بإغلاق الباب على أنفسنا بإحكام ،

ثمّ اِلتفت إليّ مطمئنا ،وقال:

ـ المكان آمن يا ابنتي لكنّ الحذر مطلوب دائما..

حاولت اِظهار شجاعتي أمامه ،لكنّ داخلي كان يصيح مستنجدا:

أضيئي يا نجوم صفحة السّماء، واِهجعي يا غيوم..بل تبدّدي.. فاللّيلة سهرتنا مع الهياكل والأشباح..وتبسّم أيّها البدر المنير..واشرقي أيّتها الأنوار الغيبيّة على هذا المكان حتّى يتراجع الظّلام فتطمئنّ نفسي..

ما أن دلفنا إلى الداخل حتّى تملّكتني السّكينة ،ونسيت ما كنت فيه من عناء. توسّطها ضريح الوليّ الّذي حكى لي والد **منال** كيف أنّه لجأ إلى القرية فارا من بطش الفرنسيين عند استيلائهم على مدينة الجزائر،وكيف أنّهم حوّلوا جامعه هناك إلى إسطبل لدوابّهم وخيلهم، فكان له الفضل في نشر المحبّة والسّلام بين قبائل المنطقة الّتي كان زعماؤها في تناحر وحروب مستمرّين، رغم ما كان يتهدّدهم من خطر الغزاة القادمين من الضّفة الأخرى.

أقام بينهم وعلى عكس ما يتناقل عن أمثاله من المتصوّفة، لم يتناول طعاما قط لم تصنعه يداه. أهداه الأهالي قطعة أرض عاش على ما تدرّه من خير بعدما رأوه من تعفّف وعزّة نفس لديه،وقبل وفاته أوصى بها لفقرائهم من بعده.

بقي نبراسا لهم وقدوة حتّى بعد أن وافته المنيّة..ولأنّه أوصاهم بأن يدفنوه وسط موتاهم؛ لم يجدوا مناصا من تحقيق رغبته ،و بنوا على قبره تكريما له وعرفانا لصنيعه معهم.

علّم صغارهم وأدّبهم بخلق القرآن، وبقيت جلسات الذّكر الّتي شهدها عهده مستمرّة إلى يومنا هذا في كلّ المناسبات.

● ● ● ● ● ● ●

أشعلت **منال** الشّموع، وأعواد البخور ،فأخذتني نوبة السّعال،بينما انشغلت **زكية** بقراءة الفاتحة على الضّريح المغطّى بأعداد هائلة من الأقمشة ذات اللّون الأخضر والأبيض.

إلتفتت إليّ صديقتي قائلة:

ـ ماذا أصابك **نوريّة**..؟

خرج الكلام بعسر من حنجرتي وأنا أقول لها:

ـ خنقتني رائحة البخور..سأموت خنقا هنا يا **منال**..

قدّمت لي الماء ،فتناولت جرعات ،وقلت لها بعد أن شعرت بأنّي شربت البخور مع الماء:

ـ المكان مغلق وأنت جعلت الهواء خانقا فيه يا الجنّية..

ضحكت وهي تقول:

ـ أصمتي..لا تتحدّثي عنهم وإلّا سامرونا اللّيلة..

قلت:

ـ من هم..؟ من تقصدين..؟"

إبتسمت، وقالت بخبث :

ـ أقصد سكّان العالم الثّاني **نوريّتي**..هؤلاء الّذين لا نراهم، ويروننا..

واصلت تقول وسط نوبة ضحكها المعتادة عندما تستمتع بمنظر عينيّ المفتوحتين ،وحاجبَيَّ المرتفعين :

ـ لا تخشي من يسكن هذا المكان فكلّهم طيبون..

قلت لها:

ـ يا رب.. يا **منال**..أنت تخيفينني..

بدأت أردّد آية الكرسي والمعوّذتين بدون توقّف ،بينما أعدّت **زكيّة** الموضع حيث سنقضي اللّيلة.. ثمّ قالت:

ـ سنبيت اللّيلة هنا..أعددنا كلّ شيئ لذلك ..والآن يا بنات بماذا نبدأ..؟

قالت منال:

ـ ستربط كلّ واحدة منّا شريطها على عمود الضّريح..وتدعو وتتمنّى على الله بما ترغب..

إستغربت،ولم أفهم ما قالته، فسألتها :

ـ أيّ شريط..؟ لا أملك شريطا ولماذا نربطه إلى العمود..؟ هذه خزعبلة يا **منال..**

أدخلت يدها في جيب بنطالها، وأخرجت ثلاثة شرائط من القماش الأخضر ،يشبه ذاك الّذي غطّي به الضّريح..وزّعتها علينا قائلة:

ـ هذه الشّرائط من إزار جدّي الأكبر..إحتفظت بها جدّاتنا..حتّى أمّنا إلى أن وصلت إلينا..الآن **نوريّتي** تمنّي ما تشائين في سرّك..واربطي شريطك على عمود الضّريح..لكن ليس بقوّة مرّة واحدة تكفي..اِفعلي مثلي..

أغمضت عينيها للحظات كأنّها تعيش حالة التّأمّل ،ثمّ ربطت شريطها،كذلك فعلت **زكيّة.**

وجدت نفسي أدعو الله في سرّي أن يحفظ صديقتي ويشفيها..لم أشعر بدموعي تنهمر..كنت كمن كانت تبحث عن سبب لها لتبكي، ثمّ ربطت الشّريط تماما كما فعلتا..قالت **منال:**

ـ من المفروض أن نطوف حول الضّريح سبع مرّات بعد هذه الخطوة..

وجدت نفسي أحتجّ، وأستنكر:

ـ لا..لن أطوف حوله فهذا فعل الجهلاء..نحن مثقفات..ونحترم عقولنا..

قالت:

ـ هذا تقليد يا **نورية**..يمكن أن نستغني عنه..لكن هل ستفشل العمليّة من أوّلها..فكلّ المراحل مرتبط بعضها ببعض..

قلت:

ـ لو نطق الوليّ الصّالح الآن لأبدى حزنه لحماقات البشر،ولأعلن براءته ممّا يقترفه جهّالهم فقد أعلوا شأنه حيا ،وأهانوه ميّتا بهكذا طقوس..

● ● ● ● ● ● ●

لن أتمكّن للسّاعات الباقية على اِشراقة الصّبح من معانقة الكرى حتّى أتمّ كتابة هذا الجزء المتعلّق بليلتي الغريبة مع صديقتي في مدينة الظّلال،حيث ترقد الهياكل بسلام تحت التّراب،وتهيم الأرواح. القدير وحده أعلم أين مبتداها ،وأين منتهاها.

تصوّروها مملكة، وكنّا الضّيوف حينها، في قصر سيّدهم عالي المقام. قمنا بكل الطقوس المعتادة في هكذا زيارة ،ولا أعتقده كان بحاجة لدعائنا بقدر حاجته إلى وعيِنا أثناء التّعامل مع ظاهرته الّتي توارثتها الأجيال.

لجأنا إلى مضاجعنا نحتمي من برد اللّيل ببطانيّاتنا ،ورسمنا خططا مبتكرة لبدايات جديدة في مكان حيث توقّفت كلّ خطط الحياة..تهامسنا بأسرارنا ،وبما يجيش في صدورنا ،

وكنت بمثابة المستمع الجيّد والمحظوظة بينهما..

أفرغنا ما لدينا حتّى نخرج في الغد من هناك وكأنّنا تركنا كلّ ماضينا المثقل خلف ظهورنا.

تجدونني مجبرة على استعمال **نون** الجماعة لأنّني صرت جزءا من عالمهما ،فكلّ ما يلامسهما يزلزل كياني ويفسد حياتي..كنّا سننزل الجبل في الصّباح بخطوات واثقة ثابتة، فلا أشواك تؤذيها، فتجعلها تتردّد في التّقدّم ،ولا حجارة تعيقها أثناء المسير.

سألت **منال**:

ـ ما سرّ الشّرائط المربوطة إلى العمود..؟

أجابت:

ـ لو وقعت الإستجابة لدعوة واحدة منّا..فإنّها ستجد شريطها مفتوحا..وإن بقي على حاله فهذا معناه أنّ أمنيتها لن تتحقّق..

قلت متعجّبة:

ـ أنا لا أصدّق أنّك تؤمنين بهذه التّرّهات يا صديقتي...

قالت:

ـ هناك ظواهر نراها، أو تحدث يا صديقتي ولا نملك لها تفسيرا..نحاول أن نسقط فكرة المنطق والعقل على كلّ ما يصادفنا في هذه الحياة..لكنّنا يجب أن نعترف بوجود أمور وخوارق لا يملك لها إدراكنا المحدود تفسيرا..مهما بلغنا من العلم والمعرفة..

لم يكن اللّيل طويلا كفاية لنروي فيه حكاياتنا،وحكايات أمّهاتنا، وجدّاتنا، والعمّات..كانت حناجرنا تصدح بالضّحك ،ثمّ ننتبه إلى أنّنا وحدنا الأحياء وسط مدينة الأموات.

نسينا موضوع أمنياتنا المعقودة على عمود الضّريح..

وحدها **زكيّة** بقيت ترسل من حين لآخر نظرات الرّجاء ناحيته.

لعلّ أرواح من سكنوا تلك القبور أحاطت بنا ،وآنسنا وحشتها لوقت مستقطع من الزّمن، احتسبوه نزهة ،نفضت عنهم شقاء العزلة والوحدة..تجاور تلك اللّيلة الضّدّان: **الموت والحياة** ،وانبثق منهما مفهوم آخر للوجود لدى **منال** خاصّة.

تعلّقت عينا **زكية** المتعلمة،والمثقفة بعمود الضّريح،كانت تنتظر إشارة من السّماء.. لعلّها شعرت بالتّردّد بعد حديث تلك اللّيلة..كان الجميع في حالة ترقّب بمن فيهم أنا ،فكم كانت ستحزنني عودتي إلى عالمي الّذي ينتظرني تاركة خلفي **منال** بخوفي المستمرّ عليها ،و**زكيّة** بزواج فاشل قاومت لأجل بقائه ،وإذا بها تقرّر فجأة التخلّي عن مقاومتها،شعرت بها يتيمة حقا،فماذا كان سيكون الحال لو كانت أمها موجودة إلى جانبها..؟ سألتها:

ـ هل توصّلت لقرار نهائي عزيزتي..؟ أم أنّك تحتاجين للمزيد من الوقت؟

استدارت إليّ،وقالت :

ـ لم أكن بحاجة لإعادة التّفكير في قراري إلى أن أقنعتني أنت وأبي بالتّروّي والحكمة رغم أنّي لم أعدمهما يوما ،بيد أنّي فعلا، أتساءل **نورية** العزيزة عن جدوى زواج لا تكونين فيه راضية عن حياتك..أعلم أنّك تلومينني في أعماقك..

سألتها:

ـ لماذا الآن بالذّات بما أنّك لم تكوني راضية منذ البدء..؟

اِعتدلت في جلستها محاولة اِبعاد نظرها عن عمود الضّريح ،وقالت لي :

ـ كانت البداية خاطئة كما تعلمين ..ثمّ أنجبت الولد تلو الآخر..ركّزي معي وستفهمين : في بادئ الأمر حدّثت نفسي قائلة لها: ماذا سيشاع عنك حين تعلنين إفلاس زواجك بعد شهور قليلة عشتها مع هذا الرّجل..؟ سيتّهمونك لا محالة بالاستهتار بقدسية الزّواج ،

أنجبت الولد الأوّل فحدّثت نفسي مرارا: كيف سيعيش هذا الولد من غير أب..؟ وبعدها صار الولد اثنان وأكثر، فأخذت نفسي جانبا ،وهمست لها في حيرة: هل ستأخذينهم معك عندما تغادرين..؟ أم تتركينهم ومن ثمّ يحترق قلبك شوقا إليهم..؟ سيفكّرون حتما أنّ أمّهم تخلّت عنهم..سيحقدون عليك، وربّما سيكرهونك . حسنا . افترضي يا **زكيّة** أنّك لم تتخلّي عنهم ،وحملتهم معك كما تحملين حقائبك طالبة اللّجوء عند أسرتك..حينها سيرفضهم الجميع قائلين: لن نرعى أولاده بينما هو يسرح ويمرح..ويتزوّج من جديد في غالب الأحيان.. أترين يا **نورية** كم كان حواري مع نفسي عميقا، ومثيرا، وواقعيا..؟ لقد كنت في ورطة حقيقية..

بينما كنّا نتحدّث قدّمت لنا صديقتي أكواب القهوة السّاخنة..احتسيتها، لكنّني في الواقع كما أسلفت لم أكن بحاجة إليها كي أطرد النّعاس عن جفني..قالت زكيّة مواصلة كلامها:

ـ الزّواج بناء متكامل الإنشاء..لا يمكن أن نتهاون أو نخطئ في وضع أساساته، ومن ثمّ إقامة جدرانه وحتّى أحجاره . فمثلا : هل يمكن لنا أن نتزوّج، ونعيش مع الشّريك رافضين العلاقة الحميمة معه، فيلجأ راضيا إلى مصدر آخر لإشباع رغباته،وتستمرّ الحياة سعيدة رقراقة..؟ أوهل يجوز لأحدهما أن يقرّر عدم الإنجاب ويكون كلّ شيء على مايرام..؟ هل يليق بالزّوجة أن تحدّد خطّة زواجها ،فتحصرها في أعمال الطّبخ، والغسيل، والكيّ، وتنجب مستسلمة لهذا الكائن،ولكنّها تقرّر ألاّ تربّي ،ولا ترعى أولادها، فينجح الزّواج رغم ذلك..؟ إنّه خطّة للحبّ ،والتّفاهم الدّائمين..هو الدّائرة المغلقة الّتي لا تسمح بالاختراق..ألا أعدّ بطلة يا **نوريّة..؟** ما رأيك؟

فاجأتني جرأتها بل أذهلتني..حينها قالت **منال** موجّهة كلامها ل**زكيّة**:

ـ ما رأيك لو كان الّذي يعاني هي الزّوجة الّتي تصاب بحالة نكران للذّات، واحتقارها عندما لا يراها بعلها سوى مكبا لسائله المنوي..؟ فلا يحترم أنوثتها ،ولا يراعي شعورها..ما أن يشبع رغبته حتّى يهرع مزهوا ليأخذ حمّامه لأجل الصّلاة ، فهو رجل مؤمن يخشى الله..

أو يعطيها ظهره، ويغوص في وصلة هانئة من الكرى..أشقيتِ زوجك أختي وظلمتِه، فهو لم يعلم يوما أنّك أُجبرت على الزّواج به، ولولا حبّه لك لما تحمّلك..أعتقد أنّ كلاكما الضحيّتان..أحببتما.ولم تكونا محظوظين في الحب ،فهناك حبّ يجلب السّقم والعلّة، وهناك حبّ بلسم وشفاء..هناك حبّ يجعل القلب أرضا بورا، وهناك حبّ يصعد بك إلى السّماء تقطفين النّجوم ،توزّعينها محبّة وتفاؤلا على الّذين من حولك بغير حساب..هناك حبّ يدخلك العتمة، تعانين الهجر ،والغياب، وقلّة الإهتمام ،وهناك حبّ يطلّ عليك كالصّبح بشمسه البهيّة، يسبغ عليك الجمال حتّى وإن كنت من قبله ترينك أقبح النّساء، وهناك حبّ يطفئ إشراقة وجهك ،ويسرق منك الجمال يا سيّدة الجمال..أحبّي هذا الّذي يحبّك أختي،واخلصي له، فإنّنا نعاني قلّة الحبّ والوفاء.. إقنعي بما لديك لتنالي السّعادة بغير حساب..

قالت **زكيّة** بنبرة حزينة:

ـ لكنّي لم أعد أتحمّل وجوده بقربي..لا أطيق النّظر في وجهه..

قالت **منال:**

ـ تأمّلي حياتك معه من زاوية أخرى ،وحاولي البداية من جديد..ضعيه تحت المجهر، واختاري من صفاته ما جعلك ترضين عنه في لحظة من اللّحظات قبل أن تستدركي نفسك وتذكّريها أنّه ليس الرّجل الّذي أحببت واخترت..سترين كيف أنّ نظرتك إليه ستتبدّل، وكيف أنّك ستشفقين عليه، وستحاولين تعويضه عمّا فاته من دفء العلاقة..

تململت **زكيّة** في مكانها ،وقالت:

ـ ألن نقوم لنرى ماذا حدث مع شرائطنا..؟ فقد تجاوزت السّاعة منتصف اللّيل..

قلت لها مستغربة:

ـ يا رب..يا **زكيّة**..لا أصدّق أنّك تحملين الأمر على محمل الجدّ.."

فركت **منال** عينيها لتنفض عنهما غيمة النّعاس الّتي غشيتهما ،وتثاءبت ،وقالت:

ـ هناك دائما إيمان بشيء ما يسكننا..لا يتبدّل مهما حاول الآخرون إقناعنا بخلاف ذلك.. زارت أمّي منذ أعوام هذا المكان ،وقضت ليلتها فيه مع زوجة خالي العاقر كما كانوا ينعتونها..تصوّري سعادتها بعد أن وجدت شريطها الّذي عقدته منذ ساعات مفتوحا.. بيد أنّ القدر رسم لها طريقا آخر مغايرا ،غير الّذي فكّرت فيه واتّخذته في بداية حياتها..انتظرت لأعوام أخرى ولم تنجب فطلّقها خالي ، وارتبطت بآخر أنجبت معه توأما من الذكور غاية في الصحة والجمال.. تسمعنا السماء ، وتختار لنا موعدا مناسبا.. لم يكن لها نصيب في الاستمرار مع خالي ،لكنّها خبّأت لها ما هو أجمل وأجلب للخير..لا علاقة للرّجل الصّالح بما يحدثه المستقبل لكنّهم يتبرّكون به ،وما يأتي بعد ذلك لا تفسير منطقيا له..يؤمن زوّاره بطهارة الرّقعة الّتي دفن فيها أيضا.. لذلك يستجاب لهم الدّعاء فالحجّ والعمرة ليسا متاحين في كلّ وقت..هكذا أخبرتني جدّتي..

بدأت مقاومتي تضعف، وصار النّعاس يشاطرني سهرتي، فكنت أطبق جفنيّ بقوّة..أعصره منهما عصرا.. لعلّه يبتعد ويزول فأستعيد نشاطي ويقظتي.

قالت لي صديقتي:

ـ لدي إيمان قوي بسلطان الرّوح **نوريّتي** ،فما جسدي الفاني سوى سكن مؤقّت لها..لن أشيخ أبدا ولن أمرض، فأنا الرّوح ومأواي هذا المهترئ مهما تعذّب، وناله ما ناله من النّصب ،سيبقى مجرّد محطّة من محطّاتي..أعشق الأماكن الّتي تذكّرني بحتمية النّهاية في آخر المطاف..فمثلما تجاوبت مع أطياف الماضي البعيد في **جميلة القديمة**..كذلك يسبّح كلّ ما فيّ للخالق هذه اللّيلة..لماذا أشغل فكري بما يخبّئه لي الغد..؟

سأضع نصب عيني أهدافي الّتي أصبو إلى تحقيقها،وسأعمل على بلوغها، لعلّني أحيا كفاية لأراها تتجسّد على أرض الواقع..من غير أن أجهد عقلي في تصوّر المستقبل..وإن رحلت؛ يكفيني شرفا أنّي بدأت..

اِلتفتت إلى **زكيّة** الّتي كانت تغطّ في نوم عميق،وقالت:

ـ ربّما ستكمل **زكيّة** ما سأبدأ به..وهكذا..سأخوض الحياة المتبقيّة لي يوما بيوم ،وأسعى نحو نقطة الضّوء تلك خطوة خطوة من غير وجل..نسامر اللّيلة ماضينا **نوريّتي** بجانب رجل أمضى حياته في خدمة الإنسانية ،وترك علمه بين يدي من اتّبعوا خطاه بغضّ النّظر عمّا لحقه من أذى بعد أن صار مقامه مقرونا بالخرافة والجهل..

قاطعتها قائلة:

ـ أليس ما فعلناه اللّيلة ضربا من الجهل صديقتي..؟

اِبتسمت مستسلمة وقالت:

ـ نعم..لكنّني أُلبسه بعضا من فلسفتي..تمنّيت دائما أن أظفر بليلة كتلك الّتي قضتها أمّي هنا،وأخوض التّجربة بنفسي..لاحظي أنّنا لم نطبّق طقوس الزّيارة بحذافيرها..

نظرت إلى **زكيّة** وقالت ضاحكة:

ـ تأمّلي وجهها..يبدو عليها القلق حتّى وهي نائمة..

قلت مغالبة رغبتي في النّوم:

ـ معذورة المسكينة..غلبها النّعاس بينما كانت تراقب عمود الضّريح،وما تنتظره من خوارق عليه..تراها بماذا تحلم الآن..؟

خيّم الصّمت بيننا، فقد تعبت **منال** ،واضطجعت بقربي لتغفو..

أقبل الفجر متّئد الخطى..تمهّد له تغريدات الطّيور خجولة ،

وصياح الدّيكة يصلنا من بعيد مذكّرا بالحياة الّتي تعجّ في أسفل الجبل..سافر مخيالي عبر كوّة صغيرة تؤدّي دور النّافذة..فتحتها فرأيتني أتجوّل في وادي الظّلال تحيط بي أشجار الصّنوبر والبلّوط العتيّة..أفتح يديّ ،أحتضن غبار النّجوم بينما تنبعث الأصوات من حولي خافتة لدرجة أنّي شعرت بها تهاتفني من أعماق أعماقي.. توشوش لي كما الرّيح..فجأة برزت لي من حيث لا أدري **حوريّات** الغابة أو ربّما **عرائس الجان** تحفّهنّ البومات..وكلّ طيور الغابة وسباعها..بدوا جميعا مسالمين..رغم ذلك تراجعتُ خطوة للخلف جزعة.. أحاطت بي **الحوريات** يسألنني:

ـ من أنت..؟

وقبل أن أجيب اقتربت منّي إِحداهن، وصدر منها صوت رقيق كأنّه الناي يعزف للّيل الحزين بلكنة أمازيغية تبرز من خلال مخارج الحروف من غير أن تحرّك شفتيها:

ـ لا تخشينا..هذه الغابة لنا.. ونحن حارسات وادي الظّلال ..

كنّ يلبسن زيّ **الأمازيغ**..تزيّن أجبنتهنّ الحلية الفضّية الملوّنة، أضفت عليهن ألقا وجاذبية، ولا أتذكّر من وجوههنّ المشرقة سوى زرقة العينين الغامقة، الغامضة، المضيئة ،كنجوم نزلت من السّماء لتقود مسيرتهنّ نحو النّور..هل كنّ متوجّهات نحو النّور..؟ هو خيالي الّذي أملى عليّ أفكاري، وتصوّراتي من خلف تلك الكوّة لحظتها.

وسط الذّهول الّذي سيطر على حواسي..نسيت أنّي كنت أسير في مملكة الأموات.. أمسكت إِحداهنّ بيدي وسحبتني ،فسرت مرغمة أتبعهنّ، بيد أنّي تمكّنت من السّؤال أخيرا:

ـ إلى أين تأخذنني..؟

توقّفت **الحوريّة** فجأة، وحرّرت يدي من قبضتها، وأجابتني:

ـ اليوم موعد زيارة أمّنا.. أنت ضيفتنا أيّتها الإنسية لذا أحببنا إكرامك ،والتّرحيب بك بما تمليه علينا أخلاقنا وتقاليدنا..فإن شئت تركناك وشأنك..وإن شئت رافقتنا إلى هذا الموعد المجيد..

حدّقت في الأخريات اللّواتي توقّفن بدورهنّ عن السّير لمجرّد سماع صوت أختهنّ الهامس.

كان عددهنّ يفوق عدد أصابع يدي أضعافا .فلم أكن في وضع يسمح لي بالعدّ..سألتها:

ـ هل كلّكنّ أخوات..؟ أقصد هل جميعكنّ بناتها..؟

أومأت برأسها بنعم ،فتعجّبت ،وعدت فنظرت حولي ،فلم أر بنيانا ،أو معلما يدلّ على أنّنا اقتربنا من مكان سكناهم..كلّ ما كان حولنا أشجار،وخصب ،تعطّر الجو روائح الزّعتر، والخزامى،والمريمية والصّنوبر ،والسّرو..للأشجار شذا كما للأعشاب العطرية، والزّهور، والورود..سألتها:

ـ هل ما زالت داركم بعيدة..؟

أشارت بيدها باتّجاه الأشجار أمامنا ،وقالت:

ـ هناك..

تبعت عيناي إِشارة يدها ،فلم أشاهد غير مزيد من الأشجار..ودّعنا اللّيل بتسلّل أولى خيوط الشّمس عبر أغصان الشّجر الكثيف..فأمسكت **الحوريّة** أو **الجنّية** بيدي من جديد، وسحبتني معها مسرعة.. كنت أهرول وراءها، فلم أعد أحترس لموضع قدمي..ترامى إلى سمعي فجأة أنين من تحت أقدامي، فقفزت أحاول الابتعاد كمن لسعته نحلة ،ولكن هيهات.. كيف يمكنني أن أبتعد وهي تقودني..تحكم قبضتها على يدي، وما ألهاني عنها غير ما كنت أراه حولي من جمال امتزج بالغربة والوحشة.

سمعتها تقول لي:

ـ احترسي..لا تنسي أنّك تدوسين على هياكل وجماجم.. اندثر كلّ ما يرمز للحياة لديهم ولم تبق لهم سوى وحشة القبر..

قلت في نفسي وأنا مازلت أتجوّل بمخيالي من خلال تلك الكوّة:

ـ تبّا لي ولخيالي..ها أنا أصاب بالعدوى من **منال..**

إستولت عليّ الدّهشة وأنا أشخص إلى البعيد ببصري، فأرى أسراب الطّيور ترتفع، وتتوارى في السّماء بينما توقّف البوم عن النّعيق، وأسلم تلك العيون المستديرة المزيفة للنوم العميق.

تفرّقت الوحوش والسّباع، فلم يبق لهم أثر..وحدي و**الحوريّات** أو ربّما **عرائس الجان** بقينا.

حان دورنا لنبطئ السير ،ولم أكن أفهم كيف بدأ عدد **الحوريّات** يتناقص بين الأشجار. تساءلت :

ـ تُراهنّ حلّقن في السّماء،وابتعدن مثلهنّ مثل الطّيور..أم تلاشين ببساطة مع أوّل خيط ظهر لأشعّة الشّمس..؟

وجدت نفسي مع الّتي تمسك بيدي ؛لا تتركها أخيرا وجها لوجه قبالة أكبر شجرة في الغابة والّتي يصدف أنّها كانت السّنديانة الوحيدة الموجودة هناك، أو هكذا تهيّأ لي.

قالت مشيرة إلى جذعها:

ـ أدخلي.. فهاهنا تقيم أمّنا..

قلت مذهولة:

ـ لكنّها شجرة...؟!

لم تهتمّ لحيرتي، ودفعت بيدها الجذع، فبدت لنا فتحة سمحت بمرورنا عبرها رغم ضيقها،ففي الخيال يتحقّق كلّ مستحيل..وجدت نفسي وسط عالم آخر،لا يحمل تفاصيل سوى ما تعلّق بالأخوات،وأمّهنّ، فقد كان الصّبح يشرق خارجا ،والظّلام يحيط بنا هنا داخل هذا الجذع الّذي ـ ويا للذّهول الّذي أصابني ـ اتّسع ليحتضن هذه الأجساد الهلاميةالمضيئة. أحطن بالسّيدة العجوز، وجلسن بين يديها..يقدّمن لها فروض الحبّ ،والطّاعة..حدّقت في وجهها الخالي من كلّ تعبير..كان شديد البياض بينما كانت عيناها بنفس زرقة عيون بناتها تتوقّدان بوميض غامض جميل..يتوسّط جبينها وشم لم أتبيّن شكله جيّدا بينما تضع على رأسها محارم وتشدّها عليه على طريقة جدّاتنا في الأيّام الخوالي،وكان كلّ ما ترتديه أبيض اللّون رسمت عليه دوائر صغيرة زرقاء فاتحة..هكذا بدت لي في خيالي.. بل بدت لي ملامح وجهها لحظتها قاسية بعض الشّيء..غشيتني الرّهبة فهي لم تكن تتكلّم..تقدّمت لأقبّل يدها مثلما فعلت بناتها فوجدتها يدا شديدة النّحافة بأصابع غاية في الطّول..أجل..أذكر ذلك لأنّني استغربت حين وضعت شفتي على ظهر يدها، وقلت في نفسي:

ـ يا لها من أصابع طويلة...!

أشارت إليّ أن أقترب منها أكثر،وعندما فعلت؛ أحاطت وجهي بكلتا راحتيها ،وقالت لي:

ـ سأحمّلك أمانة..سلّميها ل**منال**..أخبريها أنّي أهديتها بعضا ممّا أمتلك..لأنّها نجحت في اجتياز الإمتحان..

في الحقيقة..سرت قشعريرة في جسدي بمجرّد أن لمست يدها..رغم ذلك ركّزت تفكيري في الّذي كانت ستكلّفني به لأستوعب هذه الأمانة، وأحملها كما هي لصديقتي، لكنّها فاجأتني

عندما وضعت شفتيها على فمي الّذي فغرته دهشة وجزعا ،وأرسلت موجة من أنفاسها فيه..أجل.. أنفاسها الّتي اجتاحتني كريح عاتية،وغمرت رئتي حدّ الاختناق.

عجزت عن التّنفّس..أحسست بتلك الأنفاس تحتلّ كلّ شبر من جسدي، بل امتلأ داخلي بها، فجحظت عيناي ،وصرت أبحث عن طريقة أستعيد بها تنفّسي.

شعرت بضربات قويّة على ظهري،وبالبلل يغرق وجهي وينزل مع عنقي ،وثيابي، ثمّ جاءني صوت **زكيّة ومنال** من بعيد،تناديان باسمي،وتطلبان منّي الإستيقاظ، والتّلفّظ بالشهادة. كانتا ترميان الماء على وجهي..فتحت عينيّ شيئا فشيئا وقد أفقدني الهلع تركيزي..هرب منّي الكلام..بل لم أعد أتذكّر شيئا ممّا يجب أن يقال..سمعتُني أهتف:

الله أكبر...

لحظتها.. لم تتمالك الصّديقتان نفسيهما، ودخلتا في نوبة من الضّحك..وجدتا صعوبة في التّوقّف، والعودة إلى جدّية الوضع الّذي كنت أعانيه..أسرعت إحداهما وفتحت باب حجرة المقام ليتسرّب هواء الصّباح النّقيّ إلى رئتيّ..عاد إليّ إدراكي فعرفت بأنّي أنا أيضا غلبني النّعاس، فغفوت إلى جانب **منال..** احتسيت جرعات من الماء، وقلت لهما غير مصدّقة:

ـ كنت في البدء أتخيّل..ومن ثم صار ما عشته واقعا..والآن..هل يعقل أنّ كلّ ما مررت به حدث في زمن لا يمكن تحديده سوى بالدّقائق فكان مجرّد حلم ..؟ لا دخل لخيالي فيه..ولم أتأمّل العالم الخارجي من خلال الكوّة فعلا..؟ بل كانت ذاتي تتفرّج على ذاتي أثناء موتتي الصّغرى..؟

جلت في الحجرة بنظري باحثة عن الكوّة ،وعندما عثرت عليها..كانت مغلقة وضع عليها القنديل الّذي حملناه معنا اللّيلة الماضية.

عانقتني **منال**، وقالت :

ـ كان مجرّد كابوس صديقتي..ثمّ أضافت ضاحكة..المهمّ أنّنا اكتشفنا أنّك تحسنين التّكبير..

قلت بعد أن عاد إليّ هدوئي :

ـ لكنّه كان يبدو حقيقيا..عشت كلّ لحظة فيه بكلّ جوارحي يا **منال**..حتّى أنّ السّيدة العجوز طلبت منّي أن أخبرك أنّها وهبتك بعضا ممّا تملكه ،وألقت بأنفاسها في جوفي فكدت أموت اختناقا..كنت داخل جذع شجرة سنديان يا **منال**..ها أنا بلّغت الأمانة..دعينا نخرج الآن من هذا المكان فأنا بحاجة إلى فنجان قهوة أستعيد به صفاء ذهني..

تذكّرنا ثلاثتنا أمنيات اللّيل..لعلّ الرّعشة نفسها تملّكت قلوبنا ،ولا أكذبكم شعوري ساعتها فقد رجوت لأوّل مرّة في حياتي أن تكون السماء قد استجاب لي ،وأرسلت لي علامة تطمئن قلبي..هرعنا إلى شرائطنا المعقودة نتفقّدها..عقد الذّهول بدوره ألسنتنا عندما عثرنا على شريط **منال** ملقى على الأرض بقرب الضّريح ،بينما بقي الآخران على حالهما.

تبادلنا أنا و**زكيّة** نظرات الشّك والرّيبة ،وأرسلت عيوننا السّؤال ذاته:

ـ هل أنت من حلّت عقدة **منال**..؟

أشرعنا كلتانا أعيننا ورفعنا حواجبنا إشارة إلى النّفي ،بينما أطرقت صديقتي ساكنة تتأمّل قطعة القماش الخضراء، ثمّ رمقتنا بتلك النّظرة الّتي بدت غير مصدّقة أكثر منها متّهمة، وسألتنا بهدوء:

ـ من الّتي فعلتها..

أجبنا بصوت واحد:

ـ ليس أنا..؟

أحسست لوهلة أنّها تمثّل علينا دور البريئة ، فقلت لها بينما كنت أتفحّص ردّات فعلها من خلال تقاطيع ذلك الوجه العزيز على قلبي:

ـ ألم تكوني أنت يا **منال**..؟ لعلّك أردت مداعبتنا أو إسعادنا..إعترفي.. وسنغفر لك.. ولا تعبثي بعقلينا..

تفتّق وجهها عن إبتسامة شاحبة ،وكانت ستقول شيئا عندما سمعنا صوت والدها يلقي السّلام علينا..استدرنا في وقت واحد إلى الشّيخ الّذي كان بالكاد يتمالك أنفاسه من فرط التّعب، وشعرنا بالأسف لأنّنا نحن من تسبّب في هكذا تعب، فلو كنّا نزلنا بمجرّد طلوع الصّبح لكنّا سبقناه،وألقينا نحن السّلام عليه بينما هو جالس على مقعده الحجري.

سارعت **زكيّة** تحمل عنه قفّة..فاحت منها رائحة الفطائر، ولاحت في قاعها قارورة القهوة والفناجين..هكذا ختمنا مغامرتنا في مملكة الأموات..بفناجين قهوة، وفطائر محلاّة بعسل النّحل،وبلغز محيّر..سبقنا الشيخ بينما لم نغادر نحن حتّى ودّعنا أهل القبور، وقرأنا عليهم فاتحة الكتاب.

عانقت الشّمس الأفق،وغمرت الأجواء بنورها، بينما رافقنا الضّباب نزولا من قمّة الجبل.

لاحقنا كعذول قضى ليلته، يتنصّت على أسرارنا وهمّه أن يطمئنّ إلى أنّ لا جديد سيفوته من باقي حديثنا..رمقت بزاوية عيني **منال** فوجدتها تبتسم، فعدت للتّساؤل بيني وبين نفسي:

ـ هل كانت هي من فعلتها لتشاكسني كعادتها..؟ الأمر عجيب ومحيّر فعلا..!

لا أعتقد أنّ الأماني تتكسّر على مجرّد عمود لضريح رجل قضى حياته باحثا عن نقطة يتلاقى فيها مع نفسه المطمئنّة ،ولكنّها الفسحة الهادئة الّتي شاركتهما فيها،والحديث المطلق من غير قيود عن مكنون كان يعشّش كغراب في أعماقهما، ولربّما فعلت مثلهما في صمت، فقد كانت سعادتهما ورضاهما عن مآل المستقبل هي ما أهمّني في نهاية تجربتنا.

كم أنا فخورة الآن لأنّي ساهمت ذات يوم في صنع معجزة إنسانية.

لم تكن ليلتنا تعني البحث عن الحدث الخارق، والغوص في ما وراء الطّبيعة ،

بقدر ما كانت تعني البحث عن الذّات، ومصالحتها،

وعقد ذلك الإتّفاق مع النّفس على السّلام أو الوصول إلى اختيار نهائيّ ينهي حيرة استمرّت لسنوات.

أثّرت تلك اللّيلة في حياة السّيدتين، فقد جعلتهما يسجّلان وقفة ،ومن ثمّ البداية من جديد.

للكلمات تأثير شديد في بناء أو هدم النّفوس.

أدهش يا صديقتي..كيف لمجرّد كلمة تقال أو تكتب لنا فتعيدنا للحياة أو أخرى ترمي بنا بعيدا عنها..هي السّم الّذي نخشاه..والبلسم الّذي نرجوه ساعة الألم.

الطائر الحر

لكلّ بداية نهاية ،يحضر الوداع حيث يوجد اللّقاء ،يكمن الضّحك الحلو خلف أستار دمع غزير يغرق الهدب ،يصرخ الألم بكلّ قسوته ما أن نستسلم للضّحكة الطّويلة، فيرنّ جرس داخلنا يذكّرنا أنّنا لسنا بخير ،وما ضحكنا سوى تعبير عن حماقتنا،فنحن نتحمّل، لكننا لا نجيد النّسيان.

كنت أستعدّ منذ أيّام لإخبار صديقتي عن ضرورة العودة إلى أسرتي..لم أشعر بوطأة الوقت معها رغم احتياجي لنصفي الآخر الّذي تركته هناك مع زوجي وأولادي..حصلت على فرصتي في أن أحيا الحبّ الآخر الّذي يجهل حلاوته الكثيرون:

عشق الرّوح للرّوح..

شغلت **منال** حيّزا وافرا من قلبي ،وكانت من قبل صديقة الشّباب، فكيف بها وهي الآن رفيقة ما تبقّى من الدّرب..تساءل هؤلاء الّذين أعدّوا لموتها واستعدّوا:

ما بالها لا تذبل، ولا تضعف..؟ من أين لها بكلّ ذلك الإشراق..؟ إنّها تتفتّح للحياة باستمرار ،وتنير ما حولها كشمس الصّباح..لعلّها لن تكون يوما شهيدة المرض..

أشرق فجر الخميس الأخير مع صديقتي، وسنح لنا غياب والدها للتّسوّق بالمدينة بقضاء وقت ممتع على **الصدّارة** مقعده الحجري لكنّنا لم نتحمّل ملمسه ،بالنّظر للجوّ الّذي كانت برودته تزداد يوما بعد يوم في هذا المكان الجبلي..لذا أعددناه بما يليق بنا ،وتحوّلت من مجرّد مقعد حجري إلى أريكة مريحة ، ثمّ إنّنا غيّرنا ثيابنا،وعدّلنا في زينتنا، وأخذنا صورا لنا، خلّدنا بها صداقتنا الّتي لن يمحو أثرها الزّمن فكلّ ما كان خارجا عن المألوف يبقى في الأذهان تتناقله الأجيال، ويضرب به المثل في كلّ موضع ومناسبة يستدعيان ذكره..بدأ الضّباب ينحسر عن أعلى الجبل فقد صار كعادته يتدحرج من القمّة ببطء إلى الأسفل حيث البساتين، ومنهل الماء..بدا لنا

ـ ونحن جالستان مستغرقتان في صمتنا وتأمّلنا نحتسي القهوة ـ كغيمة بيضاء أصابها الضّجر من المكوث في السّماء ،فهبطت تتلذّذ بملامسة الزّهر والشّجر..تعانق الحياة الّتي تنشد للحبّ في الوادي.

علّمتني **منال** كيف يكون الصّمت، والتّأمّل مهمّين للرّوح الّتي تحيا في أجسادنا ،لكنّي في هذا الخميس الأخير خرقت الهدوء المخيّم وقلت لها آسفة:

ـ ألا ترين يا صديقتي أنّي أطلت الغياب عن بيتي والأولاد..؟ كنت سأكون في غاية السّعادة لو بقيت بجانبك العمر كلّه..لكنّ نصفي الآخر ينتظرني، ويتصبّر بما استطاع على غيابي..

أفلتت منها تنهيدة، وقالت:

ـ لست وحدك المجبرة على العودة **نوريّتي** ،فأنا مضطرّة أيضا لحزم أمتعتي، والأوبة إلى هناك حيث يتوعّدني الكدر في زوايا غرفتي المظلمة ،وتنهش ما تبقّى منّي وحدة أسبح من خلالها في الفراغ..هل تفهمينني صديقتي..؟ الحياة هنا حيث حديقتي، وحوض الخضراوات الّذي زرعته ،وسقته، ورعته يداي ،وهذا الجبل، والوادي، والهواء النّقيّ..هناك أولادي الّذين أحبّهم ،والكثير من الإهمال..

هؤلاء الّذين ينبع الجمال من أرواحهم، ويشعّون بهاء من هالاتهم..تتغيّر الألوان على وجوههم،ويكتسيها الشّحوب عندما يحزنون..يفشل البرد في جعل أنوفهم تحمرّ ،وتنهزم الشّمس الضّاحكة عند عتبات تعاستهم.

اِبحثوا في دواخلكم أيّها الأنقياء عن لحظة الانكسار،وكيف بدت وجوهكم قبالة المرآة، وعن التّألّق والبريق اللّذان اكتسيا سحناتكم وأنتم تحدّقون فيها مشدوهين على صفحة الماء..أخشى على صديقتي من الإهمال وأخشى عليها أكثر من الاستسلام..قلت لها:

ـ سنعود..وستعود رسائلنا إلى سابق عهدها عزيزتي..ستكتبين لي في أيّ شيء وعن كلّ شيء..من جهتي سأبقى أنتظرك في كلّ يوم كما كنت أفعل من قبل،

وسأسعى وراء الظّروف أطوّعها لأجلك ،فآتي لزيارتك من وقت لآخر حين تنزلين إلى قريتك، وأنال حظّي من الحبّ معك..

قامت ،واقتربت من الحافّة المطلّة على الوادي ،وسرحت ببصرها للبعيد حتّى خلتها لن تتحدّث لكنّها قالت:

ـ هل سأبقى على قيد الحياة حتى ذلك الوقت **نوريتي..**؟ أتساءل..هل يمكن لنا أن نحيا وحدتنا من جديد، ونتجاوز آلامنا بالصّراخ من حين لآخر لإفراغ شحنة السّلبية الّتي تغشانا لحدّ الإختناق، ومن بعدها نتحسّن ونستمرّ..؟ نحن لسنا قدّيسين ولا دراويش..بل مجرّد أناس شاءت أقدارهم ألاّ يكون حديثهم سوى مع أنفسهم ومع السماء..الكيس الممتلئ فوق الحدّ يا صديقتي ينفجر في وجه صاحبه أوّلا..ثمّ إنّنا سنبدو أمام المحيطين بغربتنا مجانين..لن يستقيم حالي هكذا **نوريّتي**..تعالي وألق ببصرك للفضاء الشّاسع الّذي أحظى به هنا..أنا أسكر في كلّ يوم بنبيذ الطّبيعة فلا أشعر بالألم،وإن داهمني أستلهم القوّة من هذا المكان الّذي أبدع فيه الخالق عندما صوّره..لا تجوز المقارنة بين الظّلمة والنّور..

شهقت بكلّ ما ملكت من قوّة دفقة من الهواء،ثمّ راحت تزفرها بهدوء،وبسطت ذراعيها كأنّها تستعد للتحليق. كنت أتأمّلها بكل الإعجاب الّذي أكنّه لشخصها المكافح. قالت لي مبتسمة:

ـ لو جاز لي تغيير اسمي لسمّيتُني **الطّائر الحرّ**..لأنّني فعلا حرّة هنا..لن أتقلّب على مرقد الحيرة واليأس من الآن..سنرتكب جرما لو سمحنا لليوم يمضي من غير أن نحياه بكل تفاصيله..دعينا نجرح شيطان أفكارنا السّخيفة بغبطتنا، فقلوبنا تعزم والله يدبّر..هذا ما هتف لي به أحدهم في المنام في تلك اللّيلة الّتي قضيناها عند ضريح الوليّ..وعندما يجنّ اللّيل ونضيء القنديل سأكتب رسالة ل**جواد** تضعينها في صندوق البريد وأنت في طريق العودة إلى أحبّتك..ما رأيك **نوريّتي..**؟

عاد الضّياء إلى الوجه الّذي أعتم منذ ساعة ،وازدانت العينان ببريق الحياة من جديد،

وكنت سأصدّق أنّ الشّريط فتح بفعل قوّة خفيّة يهمّها أمر صديقتي، لكنّها شاكستني كعادتها بضحكتها الماكرة عندما عدت وسألتها عنه ،فاحتفظت بالشكّ في قلبي، وقرّرت نسيان لغزي المحيّر ،ففي الأوّل والأخير لن يحدث سوى ما هو مقدّر.

عاد والد **منال** من رحلته الأسبوعية لسوق المدينة قبل فترة الغداء بقليل صحبة زوج **زكيّة**..كم كانت دهشتنا ،وفي نفس الوقت سعادتنا عظيمتين عندما استقبلته كما تفعل أيّ زوج كانت في زيارة لبيت والدها، وتشتاق لشريك حياتها..لن أبالغ لو قلت أنّ المسكين ذهل أيضا ،ولم يدر ما يفعل بعد أن وجد نسخة أخرى من أمّ أولاده جميلة مثلها،ولكنّها في ماعدا هذا التّفصيل لا تشبهها..همست لها قائلة:

ـ ما الّذي غيّر موقفك فجأة **زكيّة** العزيزة..؟

أجابتني وقد تورّد خدّاها خجلا كفتاة عذراء:

ـ سأبحث عن صفاته الطّيبة وأحبّه لأجلها..هذا ما أقنعتني به **منال**..والباقي الّذي تعلمين سأجد له حلاّ أيضا إذ يكذب عليك من يدّعي أنّ الحبّ ليس ضروريا بين رجل وزوجه لتستمرّ حياتهما سعيدة رقراقة رغم ما يعكّرها من حين لآخر..هو يعدني ويفي بوعوده دائما..وهذا في حدّ ذاته ما يجعلني أحترمه كرجل وكزوج..؟ لم يفت الأوان للبدء من جديد ما دام يحملني في قلبه لحدّ الآن..سأكافئه على صبره وتحمّله لحماقاتي معه..هو في الواقع أحسن وأطيب زوج تحلم به فتاة..

قلت محتجّة:

ـ يا إلهي يا **زكيّة**..هل كلام **منال** فقط ما أقنعك بالعدول عن فكرة الطّلاق..؟هذا ليس عدلا..

أرسلت ضحكة خجلة ،وقالت:

ـ بل ثلاثتكم..أبي وأنت و**منال** أثّرتم في قراري..لكنّ **منال** تمتلك روح الإقناع،

فحديثها كماء نبع ننهل منه ولا نرتوي..يتغلغل في المسالك الوعرة للنّفس يعبّدها ،ويطوّعها..هي صديقتك وأنت أعلم بها منّي **نوريّة** العزيزة..

كنت أنصت إلى **زكيّة** تتحدّث ،وأحدّق فيها،ثمّ تسرح أذني وراء الإغراء النّابع من الأصوات المحيطة بي، تملأها الغبطة ،وكلّما استغرقت في هذا العالم الذي داعب وجوده حواسي ؛شعرت بالطّمأنينة تغزو جوانحي،فيخبرني الهاتف الهامس في عقلي:

ـ إهنئي..وقرّي عينا **نوريّة..** فكلّ شيء سيكون على ما يرام..

لأوّل مرّة منذ وفاة والدتهنّ رحمها الله؛ تجتمع كلّ الأخوات على مأدبة الغداء.. كان لزاما الإحتفاء أيضا بقدوم زوج **زكيّة** الّذي صار لأوّل مرّة محطّ اهتمام الجميع.ألم يصبح أخيرا حبيب أختهنّ..؟ هذا ما لاحظته فقد أحبّوه بعدما أحبّته **زكيّة**..أمّا المأدبة فكانت طبق **التّيكربابين** التّقليدي..سيبدو لكم طبقا عاديا لا يليق بهكذا احتفال، لكنّه يتمتّع بمكانة خاصّة في هذه المنطقة **الأمازيغية**..يتكوّن مرقه من الخضر واللّحم وكرات الدّقيق المتبّل بالنّعنع والفلفل وزيت الزّيتون الحاضر دائما على موائدهم،لا ينافسه سوى طبق **الكسكسي** كتقليد دائم، فلا غنى عنه عند كلّ وجبة عشاء،خاصّة لدى كبارالسّن. تتفنّن زوجة الإبن في صنع شتّى الأكلات فيزيحها الوالد جانبا ،ويطلب طبق **الكسكسي** المعتاد،ويا حبّذا لو كان من دقيق القمح مدهونا بزيت الزّيتون. أسبل اللّيل ستاره الأنيق على البيت الأسطوري بعد أن ترك النّهار بصمة الفرح عليه وانحجب..غادرت **زكيّة** واطمأنّ الوالد..لم تكن هي نفسها تلك الّتي نزلت منذ أيّام يائسة،غير راضية لا تدري ما تفعل بما تبقّى لها من العمر. أعددت حقيبتي، وتمدّدت أدّعي النّعاس لتحظى **منال** بفرصة الكتابة ل**جواد**..

كنت سأشعر بالذّنب لو سامرتها فتجهد ،ولا تكتب.. فأغادر صباحا من غير رسالتها.

يسألونني عنك ويلحّون في السّؤال:

هل ما زالت تتوشّح بالفرح والانتظار..؟ هل ما زالت طفلة لا ترهبها ضراوة الزّمن وتَكدُّس الأعوام في سلّة الأوهام؟

هل ما زالت تسامر اللّيل..تكتب للأطياف..تحنّ لحبيب يشاطرها الخيال؟

يسألونني عنك..أخبريني أنت..فأنا لا أعرفك حقا..لأجيب عن السّؤال.

الجزائر ذات مساء من بدايات تشرين الثاني

لا تسألني..لماذا أنت حبيبي؟ ففي الحبّ خطايا لا تغتفر، أوّلها السّؤال..
في الحبّ يا سيّد الحبّ لا يوجد خيار..لماذا في البقاء أو في الرّحيل نحن تعساء..؟

ما رأيك..؟ هكذا يجب أن يكون السّؤال..

كالطّائر الحرّ أحلّق فوق المعاني..أنثر حكاياتي عنك ،وأفراحي ،وأوجاعي..يصاحبني جنوني، ولحظة إلهامي..أقطع الحدود فلا شيء يمنعني..أخترق جدراني..لا شيء يأسرني، أسافر إليك في زاويتي أتفرّج على ذاتي..البارحة خاصمني الكرى،وتحيّر وجداني.

شكوت للباري سوء أحوالي..عزّاني البحر، وقبّلني النّجم..عانقني الضّباب، وصاحبتني البومة..أهدتني حلو الأغاني.

هاهو الصّبح يصافح قلبي ، ويقبّل جفنيّ..أطلّ قوس قزح على نافذتي فأحيا ألواني.

جناحاي جديدان منذ آخر لقاء..يا من تسألني، وتهواني.

رسمتك اليوم على غير عادتي شمسا أضاءت دربي وقمرا اِتّسق ما أن لمح خطاي فاحتواني..رسمتك نجما رافق أحلامي بل أبهجني وبدّد آلامي.

أنا يا ذاك المحبّ لست في الواقع كما يمكن لك أن تراني..ربّما أقول في الحبّ ما يثير الجنون..وربّما تتملّكني لحظة إلهام تسكرني..تجعلني أنتشي فأبوح بأسراري..بل وأقول أكثر ممّا تتصوّر يا من تهواني.. فلا تصدّقني مهما اعترفت حتّى تراني أحتويك بحناني وبدفء القول والمعاني..فالحبّ اهتمام وسهر عند نافذة الإنتظار ،وسيل من العتاب عند الغياب ،وحضور في كلّ وقت لأجل الأمان.

أنا فلكك الّذي يسري بك نحو دائرة الضّوء حيث الأمان..

أنا غيمتك الممطرة وصحو سمائك..أنا أرضك الخصبة حيث حياتك ومماتك..

لن أقول: أحبّك

لكن أخبرني أنت:

هل سكنتك روحي وصرت لا ترى الشّمس حتّى تراني؟

جواد العزيز

بعد أن سرحت معك في عالم الخيال بكلماتي البسيطة الّتي أرجو أنّي حمّلتها ما يكفي من روحي الّتي تحبّها.. أخبرك أنّي رقصت فرحا، وذرفت الدّمع أنهارا، وضحكت حتّى أسمعت طيور الجبل والوادي، واحتضر الحزن لغيابك ما أن لامست يداي ثمّ عيناي مداد قلبك على ورق معطّر بأنفاسك الّتي طبّبت بها آخر جراحي ،وأطفأت بها نارا كانت تحرق أحشائي..قبّلتك في كلّ سطر ،وفكرة،وعانقتك طويلا حين جعلت الرّسالة تهجع على صدري تحت طيّات ثوبي ليلا ،وعلى وسادة حلمي.

كتب محمود درويش: **لا أنام لأحلم...**

أمّا نحن فلقد ترافقت روحانا منذ البدء،ولم نفترق يوما.. تجاوزنا أهوالنا معا..وقفنا على

عتبات الموت معا،وأقفلنا عائدين ـ أرجو ذلك معا ـ أليس هذا دليلا على أنّك لي ،وأنّي لك؟ رغم كلّ المسمّيات الّتي يمكن أن تطلق على حالتنا كشخصين تحابّا ،وفرّقت بينهما التّقاليد والجغرافيا..تأكّدت بعد أن قرأت رسالتك أنّ روحي كانت تسري إليك عندما كانت تجنح للسّكينة، وأنّها لم تبرحك يوما إلى الآن..الحمد لله أنّك بخير.

جواد العزيز

جرّتني قدماي ذات صباح إلى مرآتي ولكن بجهد أشدّ وأقوى من كلّ المرّات..حدّقت في **منال** حبيبتك مطوّلا..كانت الفكرة قد اِكتملت في عقلي،

بل كنت أكاد أرمقها طيفا يقف ورائي..يقول لي:

ـ ها أنا ذا..متى تعوّلين تجديني طوع بنانك..

قلت لتلك الّتي تسكن مرآتي مخرجة صوتي كحشرجة مذبوح من فرط الألم الّذي كان ينهشني:

ـ ستصنعين فرحك يا سيّدتي رغم الجدران العالية والحواجز..ستتماهين مع عالم كلّه محبّة خالصة للإنسانية..سيرتاح ضميرك ويهنأ ،لكنّ البراكين ستهيج ،والزّلازل من تحت قدميك ستضرب، وتتخطّفك العواصف بل الأعاصير ،وربّما حطّمتك إن لم تزدادي قوّة وشموخا مع مرور الوقت..عبثا تحاولين تجنّب قبح بعضهم من حيث أنت، فالمعارك ننتصر فيها أحرارا..

من يومها قرّرت أن أحرّر روحي من كلّ قيد..أنا مريضة ،أو لعلّني كنت كذلك أيّها العزيز..فما أشعر به مؤخّرا غير عادي، فقد كان مقرّرا لي أن أموت منذ أشهر.. حصلت على فرصتي في أن أحيا كما أشتهي بسبب تقرير طبّي وهبني بضعة أشهر أعدّ فيها حقائبي، وأستعدّ لمغادرة هذا العالم..إستغرقت مسيرتي نحو الصّفاء والتّصالح مع الذّات الوقت الّذي لزمني كي أعبر إلى الضّفة الأخرى..أنتظرك..أقولها لك الآن وكلّي ثقة في قدر السماء المنصف، فكيفما قدّر سأجده أنصفني وأنصفك.

حكيت لي عن الرّبيع الّذي لا يعنيكم..دعني أؤكّد لك أيّها العزيز أنّ كلّ ما أصابنا كشعوب ودول هو نتيجة تفريطنا في أرض الرّسالات..أنتم حلقتنا المفقودة لنشعر بالأمان أخيرا.

أنتم الضّمير المؤرّق، وكلّ ما يحصل من مخاض في بلداننا لن يؤدّي إلى نتيجة من غير حلّ للقضيّة المهمّة والوحيدة..حلّ يرضيكم ويرضينا كحملة للهويّة الثّانية في صدورنا.. لست أبالغ لو قلت لك أنّنا سنبقى نتخبّط في فوضانا الظّاهرة والخفيّة، ما دام الشّتات ،والدّاخل يرمقاننا من بعيد كيتيم يقف عند باب الجار،

يشاهده بحزن وقهر كيف يحتضن أولاده بينما هو وحيد يصارع الأهوال.

هذا هو فهمي البسيط لوقع القضية على نفوسنا كعرب بالخصوص ،إذ نعيش حالة اِنكار لإنسانيتنا..وإلاّ فكيف نستحلّ وسائدنا ،وننعم بالهجعة بينما قطعة منّا مبتورة، وبعض أشلائنا ترقد بالعراء..؟ لست أفهم في السّياسة، ولا في تلك الأيدي الخفية الّتي تحرّكنا كدمى من وراء ستار..تسيطر على انفعالاتنا، وتجعل الفصول تتداول علينا كما يحلو لها، وأينما حطّت رياح مصالحها.

ما زلنا بعيدين عن النّضج والوعي اللّذين تتطلّبهما نهضتنا كشعوب ،رزحت طويلا تحت الاستدمار،ثمّ التّبعيّة ،ومن بعدها الاستبداد والدّيكتاتورية.

سأختصر من الآن كلّ الحوارات غير المجدية ،وأتجاوز كلّ الخطوط الحمراء مسرعة نحو الهدف. سأخفض رأسي للعواصف، وأغمض عينيّ عن مفاجآت الغد..سيكون الإنجاز خطوة خطوة حتّى وإن لم يكتمل بغيابي، فسيكون هناك من يتتبّع خطاي ويتمّ ما بدأته.

أحاول منذ بداية الرّسالة أن أخبرك أنّي مصابة بسرطان الثّدي..فهل سيغيّر مرضي من شيء في قلبك ناحيتي؟

توقّفت رسائلك فجأة، واكتشفت مرضي في آن واحد..تألّمت، وزاد غياب ريح أو أثر يأتياني منك في معاناتي..ثمّ أصابني اليأس من نجاتي، وأيقنت أنّي ربّما أغادر هذا العالم سريعا، فلابدّ لي أن أتوقّف عن الحلم والأمل في المستقبل، وكنت أنت ضمن هذا الحلم..سيصنع أولادي حياتهم، ويتبعون تطلّعاتهم ،وأبقى أنا في زاويتي وحيدة بعد أن ضيّعت ذات يوم أجمل أمنية..ذلك الشّهريار الّذي نطق من خلال إحدى صفحات الجرائد الّتي كنت أقرأها قبل أن تسارع أمّي لتلمّع بها زجاج نوافذنا..وذلك النّشيد المعلن لقيام الثّورة على المذياع كلّ مساء ،وسلامات تُرسل للخالة أمّ محمّد وأبوعلي في الضفّة من غزّةَ.كنتَ أغنية مارسيل الّتي لقّنتها لأولادي وحفرتها في صدورهم ،فخبز الأمّ وقهوتها ميلاد وحياة متجدّدان..

وها أنا سأفقد حياتي أيضا..هكذا كنت أفكّر..لذا عملت على نسيانك،

وكنت في كلّ مرّة أفشل..مع مرور الوقت تغلّبت على كلّ هواجسي، وتقبّلت مشيئة الأقدار، فأعادتك إليّ، وأعطتني وسائل النّجاة بروحي.

ها أنا تمكّنت من إخبارك بمرضي قبل أن أنهي رسالتي ، فلم يعد بإمكاني قول الكثير حول ما مررت به حتّى لا أحزنك ،فأفسد علينا فرحة نجاتك.

لا مزيد من الألم أيّها العزيز.

لا تنسني لأنّي لا أنساك أبدا

منال

● ● ● ● ● ● ●

نتصنّع النّوم أحيانا فيأخذنا ،ولا نشعر إلاّ ونحن نسافر بأحلامنا وكأنّها واقع، لكنّني في تلك اللّيلة بقيت أرمق **منال** من تحت أهدابي وهي منكبّة على رسالتها تكتبها بكلّ جوارحها..تمسح بظهر يدها دموعا أعاقت الرّؤية لديها ،وتتوقّف لتحتسي جرعة ماء من الإناء الطّينيّ الّذي صنع خصّيصا لأجلها.

عندما أنهت الكتابة طوت الرّسالة، وتساءلت بيني وبين نفسي..

ماذا كتبت له لتكون هذه الأخيرة بهذا الطّول..؟ قبّلتها وضمّتها طويلا إلى صدرها، ثمّ دسّتها داخل الظّرف،وهمّت بغلقه بعد أن كتبت عليه العنوان لكنّها تراجعت، ونظرت صوبي ،كأنّها تريد أن تتأكّد إن كنت فعلا نمت.تركتها على مكتبها وتمدّدت على السّرير بقربي كعادتها، وكنت أسمع تردّد أنفاسها المتعب في أذني عندما اقتربت أكثر وهمست لي:

ـ عندما تستيقظين..إقرئي ما كتبته ل**جواد** قبل أن تغلقي الظّرف..فلعلّني كنت سخيفة..

ثمّ استطردت قائلة :

ـ لكنّ لا سلطان على العواطف حتّى وإن بدت سخيفة حين نعبّر عنها بصدق..اقرئي صديقتي وفقط..

تعالي أخبرك كيف يكون المساء خاليا من دبيب الحياة حين تغيبين يا صديقتي:

أجنح للحزن فأطفئ سراجي، وأخاصم النّجوم والقمر..أحتاجك جدّا..فإنّي الآن صرت ألاحق ظلّك في حلمي..

أراني وحيدة أتوسّد الرّمل ،وألتحف السّماء.

هل تؤمنين بصدقي في محبتك..؟

إن لم يكن كذلك..فانصتي لتردّد خافقي واقرئيني بين الكلمات.

عدت إلى عالمي فوجدت زوجي والأولاد ينتظرون قدومي على أحرّ من الجمر.

إنبثق الفجر جديدا يومها، واحتفى بي كلّ واحد منهم على طريقته..كيف لا وقد غبت عنهم لأسابيع فنحن لم نفترق يوما..أحبّوا **منال** لأنّني أحببتها، لكنّهم صاروا يغارون من المكانة الّتي استحوذت عليها في نفسي.

وجدت زوجي الحبيب أكثر تمسّكا بي، فلقد صار يسكب المزيد من جرار الحبّ المترعة بالشّوق على قلبي واكتشفت أولادا أكثر شعورا بالمسؤولية ،فهم يسبقونني إلى أعمال كنت أقوم بها لأجل راحتهم فيؤدّونها وكلّهم فخر..أمّا ابنتي ذات الأعوام الثّلاثة فلم تعد تفارقني، وتنام اللّيل على صدري..إستولت على مكان والدها، وتأبى النّوم في سريرها ،لكأنّها كانت تخشى أن يتكرّر سيناريو مغادرتي في ذلك الصّباح وهم نيام..تستيقظ ليلا فزعة تتلمّسني ثمّ تهدأ ،وتعود فتغمض عينيها ملتصقة بي.

عدت كما تفعل الطّيور إلى أوكارها بعد رحلة طويلة إلى حيث الدّفء..بيد أنّي رحلت لبعض الوقت عن وكري الدّافئ إلى حضن صديقتي الدّافئ أيضا..ثمّ إنّي تغيّرت أكثر بعد أن تركت جزءا منّي معها..صرت أهيم كطائر لا تهنأ روحي في مكان..كان البعض منّي يحاكي الحياة الّتي تحياها..أستيقظ صباحا على طيفها يبتسم لي بحزن ،كأنّه يعاتبني، وأغفو على همسها العذب في أذني..لم أهمل عملي لكنّي شرعت في دراسة كلّ ملفّ يقدّمه لي نائبي ومساعدتي في مكتبي بفتور، ولا أقابل زبائني..قال لي زوجي ذات يوم:

ـ أنت بحاجة لاستراحة محارب حبيبتي..مكتبك بين أيد أمينة..اِسمحي لنفسك ببعض الرّاحة والهدوء..

كنت حزينة ،فلم يمرّ يوم إلاّ ونغّص عليّ الشّعور أنّ صديقتي تحتاجني، ولم يعد بوسعي اِخفاء ذلك الحزن عن زوجي..قلت له:

ـ أنا بحاجة للحديث إلى **نوريّة** حتّى أشعر بالسّكينة والطّمأنينة من جديد..

قال لي مستغربا:

ـ ما الّذي يمنعك..؟ اتّصلي بها..تحدّثي إليها إن كان ذلك هو ما تحتاجين إليه..

رفعت يديّ إلى السّماء في حنق، وقلت له:

ـ كيف السّبيل إلى ذلك وقد هجرت كلّ أساليب الحياة المدنيّة..؟ تخلّت عن كلّ ما يجرّها إلى السّير مع التّيار الّذي جرفنا نحن المتحضّرون..انصرفت إلى جذورها كما تقول فهي ابنة الأرض والشّمس والماء كأنّها شجرة..حتّى الهاتف استغنت عنه، فلا تستعمله إلاّ نادرا عندما تحدّث أولادها بقلق من خلاله، ومن ثمّ ترمي به بعيدا عنها خوفا على صحّتها..أنا أتّصل بأخواتها أسألهنّ عنها..لكنّ ذلك لا يطفئ شعلة الحنين في قلبي لصوتها الرقيق ولحديثها الّذي ينزل رقراقا على روحي.. فيجعلني أعيش في عالم غير عالمنا..عالم كلّه نقاء وبهجة..

قال لي مشفقا:

ـ أكتبي لها حبيبتي كما كنت تفعلين، وعبّري لها عن كلّ ما يجول بخاطرك ،والأكيد أنّها سترُدّ.. بل ربّما ستسبقك هي فتصلك رسالتها قبل أن يردها بريدك أنت..

ضمّني كطفلة إلى صدره عندما رآني أنتحب، وأضاف قائلا:

ـ الحمد لله أنّي لم أصب بجنون الغيرة من هكذا محبّة وصداقة حبيبتي..ما رأيك يا صديقتها..؟ هل عليّ أن أغار عليك من **منال** لأنّها أخذت حيّزا كبيرا من تفكيرك وشغلتك عنّي وعن الأولاد..؟

لم أجبه لأنّي كنت مرتاحة على صدره ،أفكّر في الخطاب الّذي كنت سأكتبه لصديقتي.

عندما خيّم اللّيل وأسدل أستاره على الخلق ،وسكنت الأرواح..خرجت على أطراف أصابعي من غرفتي كي لا أوقظ ملاكي النّائمة في سريري، ودخلت غرفة مكتبي..أشعلت فانوسي الّذي كنت قد اقتنيته اقتداء بـ**منال** ـ لكنّه على عكس قنديلها يضاء بالكهرباء

ـ وجلست أكتب لها..لم يكن تسجيل التّاريخ ولا المكان مهما لدينا بقدر أهمّية اللّقاء بين روحين في زمان ومكان يخصّاننا وحدنا..لا يشاركنا فيهما أحد.**كتبت لها:**

صديقتي **منال**

أصابتني الدّهشة يا صديقتي عندما استيقظت على الحقول والرّوابي تنشد للرّبيع ،وعلى شقائق النّعمان تناجي شمسه، وأنا أهيم على وجهي فيه كنورس أضاع بوصلته..فتاه عن شاطئه.

تساءلت قائلة:

ـ كيف هنت عليه..؟ فتركني وحيدة وسط كلّ هذا الجمال الّذي لم أعد أستطعمه.

شعرت بالأرض تلفّ بي ونادتني السّماء..أنْ دوري حول نفسك وتطلّعي نحوي لتنجو روحك..من بعدها شحّت مياه الغدران وأجدبت الأرض معلنة عن مقدم فصل آخر،فاحتجبتُ خلف الورق، وبين كلماتك في انتظار الرّبيع الآخر لعلّه يعود..عن **سلام روحي** الّذي فقدته حين ابتعدت عنك أتحدّث **منال** العزيزة..وعن ربيع المحبّة الّتي جمعت بيننا صديقتي، وعن اللّقاء الطّويل الّذي رسمنا فيه لوحة اختزلنا فيها كلّ الألوان،فجعلناها بالأبيض النّاصع النّقي، والأخضر بلون العشب، والتّرابي بلون الأرض، ووقّعنا عليها في الأخير بأحرف لخّصت ما يوجد بيننا من صدق ووفاء..طرنا بأحلامنا إلى عالم أكثر إنسانية وقد كنّا لا نحيا هذه الأخيرة إلاّ ونحن نغازل النّعاس على وسائد الأمنيات..سنعبّد لأولادنا الطّريق الّذي يؤدّي في النّهاية إلى مبادئ الإنسانية المحضة لكي نجعل منهم أشخاصا جديرين بالعيش على هذا الكوكب الّذي كان في البداية المنفى لأبينا **آدم** وأمّنا **حواء**.

تخيّلي يا **منال**.. لو أنّ الهالات النّاصعة الّتي تحيط بأجساد الأنقياء من البشر كانت تُرى منيرة بالعين المجرّدة كقناديل ؛تضيء في العتمة لكانت الأقمار الصّناعية التقطتها،

وصوّرتها كنقاط ضوء متحرّكة تثير الإعجاب والدّهشة..لتَسابقَ سكّان الأرض إلى بلوغ تلك الدّرجة من الإشعاع من خلال اعتناق صفات ،وتصرّفات كانوا في السّابق احتقروها واعتبروها علامة من علامات الضّعف والغباء..ستُشطب حينها من المعاجم اللّغوية كلمات: كالجوع، والفقر ،والقتل، والاغتصاب، والعنف، والحرب..ستختفي أسلحة الدّمار الشّامل، وحتّى تلك الّتي يعتبرها بارونات وسماسرة الحروب تقليدية..لن تكون هناك حدود ،وبالتّالي لا تأشيرات، ولا جوازات سفر..سيعتكف الشّيطان حينها في قلعته حزينا مغتاظا.. يعضّ على أصابع النّدم طالبا المغفرة أو معزّيا نفسه أنّه سيأخذ معه أمما سابقة إلى الجحيم.

من المؤكّد أنّ تخيّلا كهذا يعدّ ضربا من الحماقة في عالم تغلّبت فيه الألوان البشعة على أغلب خرائط الأمم، وبخاصّة أمّتنا نحن ..هذه الأمّة الّتي انتحلت فيها الشّياطين صفة الملائكة فالتبست على أغلبيتنا حقائق الأمور، وتدثّرت بأستار غير أسترتها حتّى صار الوهم حقيقة راسخة لا يمكن تبديلها.

أنا لا أهلوس الآن بفعل اشتياقي إليك، لكنّي أردت أن تتأكّدي من أنّني أعرف من أنت..لذا لا أسمح لنفسي بأيّ حال من الأحوال بالابتعاد عنك ،أو نسيانك ولو لساعة من يوم..

أنت ذلك الكائن البشري الّذي التقطت الأقمار الصّناعية إشعاع هالته متجوّلا في الحقل أو متجّها نحو شجرة الصّفصاف في أسفل الوادي.

أنتظر خبرا منك يُطمئن قلبي عليك يا صديقتي..فلا تجعلي انتظاري يستمرّ دهورا حتّى ولو بدت مجرّد أسابيع أو أيّام بالنّسبة إليك.

المخلصة نوريّة

دار سماح

طويت أصباحات الشّتاء الّذي حطّ بأثقاله عندنا أترقّب زيارة ساعي البريد كالسّابق، وقد كنت أيقنت أنّ منال تسلّمت خطابي.

غزا البرد روحي قبل أن يلامس جسدي، وصارت مواقده مواقد حنين واشتياق لحكايات صديقتي ولمكتوب تفوح منه رائحة أنفاسها وعطرها..أخبرتني أختها أيضا أنّها غادرت إلى بيتها في الجنوب، ممّا جعل قلقي من ارتداد ذلك على صحّتها يقضّ مضجعي.

بينما أنا أتطلّع من نافذة مطبخي، وأتفحّص في تلك الصّبيحة الشّتوية الآثار الّتي خلّفتها ثورة السّماء اللّيلة الّتي قبلها على أشجار وأزهار حديقتي ؛سبقتني يد ساعي البريد إلى علبة رسائلي مبشّرة بيوم مميّز سأقضيه رفقة بعض من روح **منال.**

أبهجتني رؤيته كالعادة، وهرولت إليه مرحّبة..عبّر لي ضاحكا في إحدى المرّات عن دهشته إزاء شعوري في كلّ مرّة بمروره..قلت له ممازحة:

ـ لا تندهش يا صديقي..إنّها الميتافيزيقا..

كان المطر ما يزال ينزل زخّات ،وكان كلّ شيء رائعا..رائحة الأرض المعطّرة بمائه، وأوراق الشّجر المثقلة بقطراته، وأزهاري الّتي بدت باكية تحته ،لكنّ العشب كان أجمل وأكثر جاذبية، فقد أصبح لونه الأخضر برّاقا يسرّ العين.. أشترك أنا وصديقتي في عشق المطر فلنا معه أجمل الذّكريات.

خبّأت المكتوب بين طيّات ثوبي مخافة البلل، ولجأت مسرعة إلى غرفة مكتبي، فلا مجال للجلوس ساعتها خارجا على كرسيّي الهزّاز..كنت أنشد قراءتها كعادتي في هدوء بعد أن طال انتظارها.

كتبت لي صديقتي :

نوريّة العزيزة

وصلني مكتوبك، ولا داعي لأن أصف لك مقدار سعادتي به..أعتذر أيضا عن تأخّري في الكتابة لك فأنا في خضمّ عمل سيغيّر الكثير في يومياتي، لذا كنت أنتظر الفسحة المناسبة للاِلتقاء بك على الورق وبين السّطور،فما بيننا أكثر من مجرّد رسائل نتبادلها عزيزتي.

غادرت ذات يوم عالمي هذا ليلا، ومن ثمّ عدت إليه منذ أيّام تحت ضوء النّجمات تخفيفا لوطأة النّظر لما لا يعجب.

ألحّ شقيقي بأن نسافر فجرا لنصل إلى ما يفترض بأنّه بيتي قبل منتصف النّهار ،لكنّي رفضت أن تشهد الشّمس على دخولي المدينة..لم يخبرني حينها أنّه سيعود من حيث أتى بمجرّد وصولنا ونزولي من سيّارته..شعرت بالذّنب حيال عنادي لكنّي فعلا.. لا أقوى على النّظر إلى ما يذكّرني بحوادث الماضي..أبحث عن الأمان والسّكينة بين كلّ تفصيل من تفاصيل حياتي.

رفض شقيقي رؤية بعلي بعد الّذي رآه من إهماله لي ،وشعرت بالاِمتنان لأخي وسأبقى كذلك ما تبقّى لي من العمر،فهو لم يتخلّ عنّي منذ بدأت محنتي مع المرض.

نوريّة العزيزة

حدّق شهريار السّعيد في وجه شهرزاد الحكيمة فراعه خيال ابتسامة رضى على تلك الشّفاه وفي تلك العيون اللّئيمة..لم تعد شمسا مقفرة، ولا قمرا شاحبا، ولا خيالا باهتا، وأضاءت هالتها المعتمة..فتساءل بدهشة:

ـ ما بالها لم تمت بعد..؟ هل تنتظر سيفي..؟ حرمتها من الحبّ، والنّور، والجمال ،وحاصرتها أسوار قلعتي الحصينة..سأقطع عنها هند البوم..لا لن يكفيني،

سأضرب عن الطّعام أيضا فلن أمنحها السّكينة..

هكذا استقبلني زوجي بعد غيبتي الطّويلة.

هرع فلذات كبدي إليّ متلهّفين بمن فيهم غزالتي الّتي خاصمتني، ولم تكلّمني منذ ذلك اليوم المغمّ..عزّيت نفسي لو تذكرين أنّي لابدّ مفارقتها ،وفكّرت أيضا أنّها حسنا فعلت حين كرهتني حتّى لا تتعسها غيبتي الأبديّة ..حتّى وإن بدت مؤلمة حزينة.

قبّلتني على كلّ وجهي وعانقتني عناق المحروم، وزاحمتها المدلّلة الصّغيرة، بينما أمسك ولدي بيدي بين كفّيه يقبّلها حينا ،ويمرّغ فيها وجهه حينا آخر كأنّه كان يمسح بها أثر آلام الغياب الّذي طال..كلّ هذا ووالدهم يحدّق بي مشدوها لكي لا أقول مصدوما..لم يسألني كيف؟ ومع من قدمت في ذاك الوقت المتأخّر من اللّيل..؟ بينما سارع ولدي إلى جلب حقيبتي الّتي كانت قابعة في مدخل العمارة..سألني أخيرا:

ـ ألم تكوني ستموتين منذ شهور..؟ كنّا ننتظر في كلّ يوم نبأ رحيلك..

اِلتفت الأولاد إليه ،وقالوا بصوت واحد:

ـ نحن لم نكن ننتظر خبرا كهذا يحطّم قلوبنا ويحرمنا لذّة وجودها في حياتنا..

اِلتفّوا حولي ينتحبون، يقولون لي :

ـ كنّا نترقّب عودتك مع كلّ إشراقة شمس..ويواسي بعضنا البعض بأنّ وضعك الصّحي يستدعي بقاءك في بيت الجدّ يا ماما..

صدّقتهم..فهم أولادي..قطعة منّي..أمّا هو فلم يضرّني في شيء..كان غريبا عنّي منذ البدء وبقي غريبا.

إستغرقت في نوم عميق خلال السّاعات المتبقّية من تلك اللّيلة،ولليوم الموالي بعد أن أخذت أدويتي في المحلول الوريدي الّذي يجعلني أقاوم هجمة الألم، وأشعر بالتّحسّن،

مالحا كان أو حلوا ذلك المحلول فهو سيؤدّي الغرض حتما..بيد أنّي في كلّ مرّة أستغرق وقتا أطول في العثور على الوريد الّذي يرحّب بالإبرة لتُغرز فيه..للعلم **نوريّتي** تعلّمت الكثير من خلال مرضي،بل صار بإمكاني رعاية أحدهم في حال المرض..تحمّلت مسؤولية جسدي المنهك واحتياجاته، ومارست دور المنقذ من خلال إنقاذه هو أوّلا..أعترف بأنّي كنت كالبورصة..في كلّ يوم على حال..لكنّي اقتربت مؤخّرا من الكمال، خاصّة من النّاحية الرّوحية.

نمت حتّى ساعة متأخّرة من اليوم الموالي ،وعندما فتحت عينيّ أخيرا وجدت أولادي يحيطون بي وعيونهم وجلة متحيّرة ،بينما لسان حالهم يقول:

ـ هل من الطّبيعي أن يأخذ الكرى أمّنا كلّ هذا الوقت؟

اِبتسمت، وأشرت لهم أن يقتربوا أكثر ،وعندما صاروا ملتصقين بي؛ تكاد أجسادهم تغمرني همست لهم :

ـ صباح الخير أحبّتي..

تنفّسوا الصّعداء حينها ،وضحكوا،قال لي ولدي :

ـ اِنّه ليل اليوم الموالي ماما..

تناولت عشائي رفقتهم ليلتها..الأمر الّذي لم أفعله منذ أعوام فقد كان الحاجز النّفسي بيني وبين والدهم قد بلغ إلى أقصى علوّه..كنت فقدت الرّغبة في الحياة ،ولم أعد أشتهي شيئا بعد أن حرمت من لذّة مشاهدة إشراقة الشّمس وغروبها.

هاهو يضرب عن الطّعام في البيت، ويخاصم الأولاد لأنّهم أعلنوا الفرح بعودة والدتهم.

سأتجاوز كلّ حديث يخصّه لأنّي لا أريد تبييض صفحته أمام عدالة السّماء، فالحديث عن الذّنوب يجعلها تنسلخ عن روح صاحبها،وتتبخّر مهما عظمت ،

كما يتبخّر ماء المحيط وينزل مطرا في مكان آخر.

المهمّ عندي أن تعرفي أنّي لم أتخلّ عن حميتي كما يمكن لك أن تتصوّري بينما استمتعت بعشاء باذخ بالحبّ ،وبحديث حميم كالّذي يدور عادة بين الأمّ وأولادها.

تردّد صدى ضحكاتهم الدّافئة في زوايا البيت ،فسارعت إلى نسخها على جدار قلبي كي أتدفّأ بها باقي ليلتي..تناولت عشائي مع أولادي..تصوّري..لا أصدّق..ثمّ إنّي كرّرتها مرارا عندما كنت أشعر بالقدرة على فعلها..بالمقابل فإنّ المكان يخنقني فلا تظنّي أنّني عدت لأجل البقاء فيه لأنطفئ كشمعة الميلاد؛ تموت على قطعة حلوى نخدع بها أنفسنا فنبتهج بانقضاء العام الّذي تسلّل ماضيا إلى حال سبيله من غير أن نشعر،ولنزيد الطّينة بلّة ننشد للفرح عند عتبات رحيله..إنّما هي محطّة أولى توقّفت عندها لأجل تحقيق مشروعي،وأولادي كانوا الحلقة الأهمّ والأصعب الّتي يجب حلّها لأستمرّ في التّقدّم نحو إنجازه.

انتظرت بزوغ الفجر الجديد لأعلن لك عن أوّل فوز أحرزته ،فقد كانت ليلتي طويلة، والحديث معهم أيضا كان ذا شجون..تسلّحت بالصّبر والحكمة ،وانتقيت كلماتي بحذر شديد كي لا أوقظ الحزن في قلوبهم من جديد..تدارسنا الوضع الّذي نحياه كأسرة..هي في الواقع ما تزال قائمة لأنّنا لا نتقبّل كونها عبارة عن بناء هشّ قابل للسّقوط في أيّة لحظة، لذا وجب علينا إعمال العقل من أجل الخروج من دائرة أتحمّل مسؤولية توريطهم فيها، فأنا الّتي أنجبتهم ،وأنا غير سعيدة فأتعستهم معي..تفهّموا أنّ طبيعة مرضي تستدعي عناية خاصّة لن أجدها حيث تعشّش اللاّمبالاة والإهمال ،ثمّ تفهّموا حاجتي لمكان أقضي فيه ما تبقّى لي من العمر في سكينة ،وأحظى فيه بمتعة النّظر لجمال الكون، فلا ستائر ثقيلة، ولا أبواب مغلقة، ولا ظلمة..هي السّماء، والشّمس، والهواء..وجدتهم يعلمون بأنّ الحبّ إن وجد يوما يموت إذا لم يحظ بالاهتمام والرّعاية، مثله مثل حديقة يتركها صاحبها لعناية السّماء..ترتوي بالغيث لو جادت به هذه الأخيرة ،وتجف النّباتات فيها والزّهر حين تمسك السّماء ماءها، وترسل شمسها الحارقة..حكيت لهم عن مشروعي الإنساني بإسهاب ،

وكم كنت مغتبطة وأنا أراهم يخطفون الكلام من أفواه بعضهم بعضا ليعبّروا لي عن اعتزازهم بأمهم المحاربة الشجاعة. كنت كلّما اقتربت من إعلان عزمي على الإنفصال عن والدهم يعصف التّوتّر في داخلي، فأهرب لشيء آخر أحصل من خلاله على ثقة وإقدام يجعلاني أتغلّب على مخاوفي من نتيجة إعلان كهذا..فحكيت لهم كيف أنّ أبي تنازل لي عن بيت العائلة في الدّشرة، وانتقل للعيش في منزل العمّ الملاصق لبيتنا..كان عمّي هذا قد هاجر إلى فرنسا هو وأسرته منذ السّبعينات ،ولم يرجع من يومها.

حدّثتهم عن كلّ التّرتيبات الّتي قمت بها لإنجاح مشروعي، وأوصيتهم بمواصلة الإشراف عليه في حال وفاتي، لأنّني حتّى وإن غادرت أخشى أن تبقى روحي قلقة على مصير اللّواتي سأتركهن خلفي.ثمّ التزمت الصّمت عندما أجهدني الحديث ،ولم أتفوّه بالكلام المهمّ، فقد كانوا في غاية الحبور.

بلغني صوت أنفاسهم وهي تتحرّر من غبار الحزن واليأس ،وشعرت بموسيقى الحبّ الخالد تعزف في أعماقهم..أنا حبّهم الخالد **نوريّتي**..تجسّدت لي نظرات عيونهم البريئة كرسائل سلام داخلي،ووصلتني إشارات السّكينة في أصواتهم الهامسة كوشوشات النّسيم العليل، لذا لم أقو على قول المزيد، فأفسد حفلة الفرح الّتي أقاموها حولي.وكانوا سيتركونني للنّعاس يعالج قلقي عندما اقترب ولدي، وقبّلني ثمّ قال لي بصوته النّاعم الودود :

ـ فهمنا يا أمّي..أنّك قرّرت الإنفصال عن أبي، فلا يمكن للطّائر المسجون في القفص أن يحلّق بينما القضبان تمنعه..نبارك كلّ خطوة تقومين بها ونحن معك نساندك..أنت الأمّ وهو الأب وسنكون سعداء لسعادتك..لا تخشي علينا يا **شهرزاد** العصر..لا يطاوعني لساني على التّفوّه بكلمة الطّلاق..لكنّني أدرك أنّه الحلّ الأفضل ما دامت الحياة مستحيلة بينكما ،وما دام المرض يتربّص بك عند كلّ زاوية مظلمة..فقط نحن نشتاق إليك الآن أكثر، فالخوف من الفقد يستبق الحدث، ويذكي نار الشّوق والحزن من قبل أن يحدث..تصبحين على خير يا خير الأمّهات..

حاولت أن أقول شيئا لكنّني عجزت عن العثور على ما يناسب من الكلمات ،فاكتفيت بابتسامة امتنان له ،بينما تسلّلت دموعي شاقّة طريقها بهدوء لتستلقي على وسادتي.

أغمضت جفنيّ ،وأحسست بقلب أمّه يتسلّل بهدوء خارجا من حجرة نومي بعد أن أزاح ثقلا عظيما كان جاثما على صدري، وحرّرني من تأنيب الضّمير.

ها أنا أكتب لك بعد أن صلّيت الفجر، وركعتي شكر لله على نعمة الحياة والمحبّة.

أتساءل الآن بينما يهرول قلمي على الورق ليزفّ لك ما يبهج من الأنباء: هل أنصت لقلبي المشاكس يؤزّني على التّوقّف عند هذا الحدّ.. فأجعلك تتلهّفين لمعرفة المزيد في رسائل قادمة..؟ أم أريح قلبك وأكمل رسم لوحة البهجة الّتي تنتظر رتوشك المهمّة عليها..؟

في الواقع..أنا متعبة **نوريّتي**..ثمّ إنّي سأتغلّب على قلمي العنيد فأتوقّف عند هذا الحدّ ،يكفي أن تعلمي حرصي على زرع فسيلتي طالما بي نبض ،ومهما كلّفني الأمر.أنت روحي التوأم.

صديقتك

منال

● ● ● ● ● ● ●

لابدّ لي من التّوقّف لبعض الوقت لالتقاط الأنفاس، ولكن ليس قبل أن أخبركم عن التّغيّر الكبير الّذي حدث في حياة صديقتي..حان موعد الرّبيع الّذي تنجلي فيه الظّلمة، وتنقشع عن سمائه الغيوم وتذوب بذوبان ثلج شتائه الهموم.

كان المرض هو المحنة الّتي حرّرت **منال**، فمن العيب أن يمضي العمر على أحدهم وهو عبد لضعفه وانقياده..لقد حقّقت ما لم نحقّقه نحن الأصحّاء، وكانت وما تزال على شفا حفرة من الهلاك لكنّها متماسكة، وتفطّنت إلى أنّ القدر اختارها ليجعلها مميّزة.

ستخوض طريقك أيّها القارئ في يوم ما قاصدا قرية **منال**، وتنعطف بسيّارتك لتسلك الدّرب الوعر نزولا ،فتقابلك عند ذلك المنعطف لافتة كبيرة عليها صورة بيت أسرتها في كامل بهائه ورونقه..مكتوب في أعلاه: **دار سماح**

تلك هي الدّار الّتي أنشأتها صديقتي لتستقبل فيها مريضات بالسّرطان بلغن مراحله الصّعبة فتحوّلن إلى أشباح ،لا أحد ينتبه إليهنّ..ينتظرن الخلاص بينما تخلّى عنهنّ الأهل،فبقين حبيسات أسرّة المستشفيات، يتلقّين ما يهدّئ من ثورة الألم الّتي لن يشعر بقسوتها سوى من ذاق بعضا من لسعها..هو المحلول الوريدي المصاحب لكلّ النّهايات في حالة أمثالهنّ وبعض الصّلوات لأجل خلاصهنّ، وبما أنّ مصيرهنّ صار محسوما يصرّح لهنّ الأطبّاء بتناول ما يشتهين. أمّا **منال** فقد غيّرت كتابة حكاية كلّ من دخلت دارها، وأقامت فيها..جنّدت لأجلهنّ ممرّضات بلغن سنّ التّقاعد ،وتطوّعن لإنجاح مشروعها الإنساني، وأطبّاء تطوّعوا هم أيضا لزيارة نزيلات الدّار خلال أيّام الأسبوع.

لن أقول لكم بأنّ كلّ من مكثت في الدّار نجت من المرض بفضل الحياة الصّحيّة الّتي حرصت على توفيرها لهنّ صاحبتها، لكنّني أؤكّد لكم وبكلّ ثقة أنّ أرواحهنّ المعذّبة الهائمة وجدت هناك السّكينة والأمان المفقودين بسبب المرض الخبيث، وهجران الأهل، فمنهنّ من ودّعن الحياة وهنّ يبتسمن راضيات جميلات بصبرهنّ.

كتب لها جواد :

لن أكبر أو أشيخ.. ولن أسمح لنظري أن يضعف فأحرم من مشاهدة وجهك الملائكي الحبيب..ستحطّ طائرتي يا منية القلب بالجزائر العاصمة في الواحد والعشرين مارس القادم. تزوّجيني يا بنت عمّي

مرّ عام كامل على أولى رسائل **منال** ،ولم تخبرني بعد بوضوح عن معنى الأسطر الّتي كتبتها لي منذ سنوات.

لا وجود للنّهايات حيث ينبت الأمل

رحيل بن دحمان